

نهر الحياة

عبد الوهاب مطاوع



حلمة
التونسي

دار الشروق

نهر الحياة

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الثالثة

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الطبعة الرابعة

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروقة

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -

رابعة العدوية - مدينة نصر

ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

عبد الوهاب مطاوع

نهر الحياة

دار الشروق

الإهداء

مَرَّةً أُخْرَى ..

إِلَى كُلِّ أُمَّدْقَائِي عَلَى الْوَرَقِ

أَمَلًا .. وَحُبًّا .. وَعِرْفَانًا ..

عَبْدُ الْوَهَّابِ مَطَاوِع

« إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله »

« من سورة يوسف »

« قرأها عمر بن الخطاب وهو يصلي بالناس فبكى حتى ابتلت
لحيته الشهباء ! »

شكوتُ وما الشكوى لمثلَى عادةً
ولكن تفيضُ النفسُ عند امتلائها
(شاعر عربي)

عيد الميلاد

أنا ياسيدى شاب فى التاسعة عشرة من عمرى ، نشأت فى جو أسرى هادئ يظله الحب والتفاهم بين أبى وأمى وكنا ولدين أنا الأكبر طالب فى السنة الأولى بإحدى كليات جامعة الاسكندرية والأصغر طالب بالسنة الثانية الثانوية ، وأبى محام بإحدى المدن الصغيرة القريبة من الاسكندرية ، وأمى ربة بيت متعلمة جميلة هادئة .. من هذا النوع الذى «يصالح» الدنيا مهما فعلت به .. نفسها راضية دائما .. باسمه فى وجوه الناس .. تساعد كل من يطلب مساعدتها وتحب جيرانها وأهلها وأهل أبى وبجها الجميع وحين حصلت على الثانوية العامة ، أراد أبى أن يلحقنى بكلية جامعية فى عاصمة الاقليم الذى نعيش فيه لكى أذهب إلى الكلية وأعود فى نفس اليوم إلى بيتنا الهادئ فى المدينة الصغيرة لكن نفسى كانت تهفو إلى الالتحاق بكلية أخرى لا وجود لها فى عاصمة الاقليم .. ورغم ذلك فلم أعارض أبى خاصة حين قال لى إنه لا يريد لنا أن نفترق بلا ضرورة ، لكيلا نحرم من صحبتنا ومن اجتماعنا كل مساء على مائدة العشاء كما تعودنا منذ صغرنا ، ووافقته احتراماً لمشاعره وتقديراً لرغبته فى أن نكون تحت رعايته وبالقرب منه ، لكن نفسى كانت تهفو إلى الكلية الأخرى ويبدو أنى حزنتم فى داخلى لحرمانى منها .. وان هذا الحزن قد ظهر على لائى بعد أيام من ظهور النتيجة وجدت أبى وأمى جالسين فى مكتب

أبي في الشقة يتهاसान ، كعادتها حين يتشاوران في أمور الحياة ، ثم خرج إلى أبي وأنا جالس في الصلاة اتفرج على التليفزيون وسألني هل مازلت راغبا في الالتحاق بهذه الكلية ؟ ورأيت حيرته فأشفقت عليه وقلت له لا يا أبي لا أريدها ولا أريد أن أبتعد عنكم .. فابتسم ابتسامة حزينة وقال لي وكأنه يخاطب نفسه : لا بل أنت تريدها لكنك ولد طيب ولا تريد أن تؤلني ، لكن الحق معك .. إذ لا بد أن نتعود على الفراق من الآن لأن الدنيا لا تدوم على حال واحد ثم قبلني وأعلن لي موافقته على التحاقى بهذه الكلية ، وبعد أيام كنا نقدم أوراقى فى مكتب التنسيق ، وقبلت أوراقى فى الكلية ، واقترب موعد الدراسة ، وجاء يوم السفر فاستيقظنا جميعا من الفجر وركبنا القطار الذى يغادر بلدتنا « فى عتمة » الفجر ، ووصلنا إلى الاسكندرية فأقنا فى فندق صغير ، ونزلت مع أبى نظوف شوارع المدينة القريبة من كليتى حتى عثر على سكن مناسب لى فى شقة قديمة مفروشة من غرفتين تؤجر للطلبة بإيجار معقول فى الشتاء بشرط اخلاثها قبل الصيف لتؤجر خلاله بإيجار مضاعف عدة مرات .

وانتقلت أسرقى من الفندق لتقيم معى فى الشقة الأيام الأولى من الدراسة وراحت أمى تصنع لى طعاما يكفىنى أسبوعين ، وتنظم لى حياتى وترشدنى إلى كيفية تدبير حياتى وحدى ، ثم سافر أبى وأمى وشقيقى بعد أن اطمأنوا على وتعرفوا على جيرانى فى نفس الدور ، وأوصوهم بى خيرا ، وكان جيرانى الملاصقون لى أسرة طيبة لموظف فى الميناء فى الأربعين من عمره يعيش مع زوجته الاخصائية الاجتماعية وحدهما ولم ينجبا وكانا يتجنبان التعرف على سكان هذه الشقة من الطلبة قبلى لكنها توسما فى أسرقى الطيبة فرحبا بمعرفتها وخاصة أمى بالذات التى كسبت ودهما سريعا ، ووعداها برعايتى وتبادلا مع

أبي أرقام التليفون . ولا أنسى منظر أبي وهو الرجل الوقور الذى طالما رأيته يزأر فى المحكمة . وهو يقول لجارى على السلم مودعا والدموع فى عينيه : أستودعتك الله .. وأستودعتك ابني وابنتك ثم يشد على يديه بانفعال ويعانقه ويعانقني أمامه ويمضى بغير أن ينظر وراه ، أما أمي فكانت لدهشتي أكثر تماسكا .. فقبلتني وابتسامتها لا تفارقها وعانقت زوجة جاري وقبلتها وحيثما وانصرفت ، أما شقيق الأصغر فقد انفجر باكيا على السلم ، حتى ضحك جاري وزوجته مستغربين وتعجبت أنا أيضا لأننا رغم حبنا لبعضنا كنا دائمى «النقار» مع بعضينا ودائمى الاختلاف حول كل شيء أنا أشجع الزمالك .. وهو يشجع الأهل ، أنا أحب القراءة والهدوء وهو يحب الموسيقى والأغاني الأجنبية والضجيج ، وحين كنا معا فى المدرسة كنا نلعب معا لفريق الكرة وفى التقسيمة كاد يكسرنى أكثر من مرة حتى تعجب مدرس التربية الرياضية من عنفه معى فى الملعب وحذره مرارا ومع ذلك فقد كنا لا نغادر المدرسة إلا سويا .. ولا نتفصح إلا معا ولا نذهب الى السينما مساء كل خميس إلا ويدي فى يده .. ونبيت كل ليلة وليس فى قلوبنا سوى الحب الخالص لنا ولأبينا وأمنا .

وسافرت أسرتى وبدأت حياة الغربة .. بعيدا عن أسرتى لأول مرة .. ولا أنكر أنى اضطرت واهتزت لكن اغراء تجربة الحياة الجامعية الجديدة كان يخفف من ذلك ، ومضت الأيام الأولى وكان اتفاقى مع أبي أن أزورهم بعد ١٥ يوما لأمضى معهم عطلة نهاية الأسبوع ويزورونى هم بعد الأسبوعين التالين لقضاء العطلة معى .. وجاء يوم سفرى لبلدى وبدأت أجمع ملابسى التى سأحملها معى «للمسيل» فى بيتنا فإذا بالبواب يطرق وإذا بأبى وأمى وشقيقى لم يطبقوا انتظارى فجاءوا هم إلى .. وكانت مفاجأة سعيدة ..

وأضمت أسرتي معي يومين لاحظت خلالها أن شقيقي قد كف عن معاندتي ومناقرتي كان الفراق القصير بيننا قد هذب سلوكه نحوي .. « وشكوت لأبي وأمي من هذا الأدب » الذي لم أعوده منه فضحكا طويلا .. وقالوا لي إنه لم يتم خلال الأيام الأولى من عودتهم لبلدنا .. وانه كان يلح عليهما في الحضور منذ الأسبوع الأول .. وأن حاله في غيابه كان « يصعب » عليهما فازددت حبا له وعشنا يومين ونحن في غاية السعادة وزار ابواي جبراني وقدمنا لهم هدية بسيطة من منتجات بلدنا واطمأنا على ، والحق أن جاري لم يقصر في أداء ما وعد به أبي .. فكان يطرق بابي كل مساء .. ويسألني عن أحوالي ، ويسألني عن دراستي ويحذرنى من رفاق السوء في المدينة الكبيرة ويدعونى للعشاء معها فأعترت بأدب للمذاكرة وكانت زوجته الفاضلة حين تلقاني على السلم تصافحني وتسألني عن أحوالي وتطلب مني ارسال غسيل إليها .. لكنى كنت اعتذر شاكرا لها عطفها . وسافرت أسرتي وتكررت زياراتها لي .. وبعد شهرين قال لي أبي إنه يتعلم قيادة السيارات ليشتري سيارة يزورني بها مع الأسرة كل أسبوعين ، وبعد شهر آخر اشترى سيارة قديمة اشفت عليه من ثمنها وتكالي فيها لأنى أعلم أنه ليس ثريا وإنما عاش حياته قانعا بما يدره عليه عمله من دخل غير كبير ومعتبرا انى وشقيقي ثروته الحقيقية .

وأحسست بالاشتياق لبلدتي وأصدقائى فيها فطلبت منهم عدم الحضور في المرة التالية لأسافر إليهم أنا وسافرت فعلا .. وزرت أصدقائى ومعارفى فيها ولاحظت لدهشتى أن أبى وأمى وأخى يعاملوننى خلال وجودى معهم بحفاوة غريبة كأننى « ضيف » نزل عندهم .. ولست عضوا من الأسرة .. كما يهتمون بى كأنى شىء كبير أو رائد من رواد الفضاء مع أنى طالب بالسنة الأولى بإحدى الكليات . فأنا ضيف الشرف على المائدة الذى تقدم له أطايب الطعام

وأخى لا يرد معاكساتى له .. سوى بالابتسام والاحترام وأبى يصحبنى معه فى المساء إلى النادى الذى يلتقى فيه بزملائه من المحامين ورجال القضاء ويقدمنى لهم فخورا بى . وجعلنى هذا أكثر سعادة وأكثر حبا وإعجابا بأبى وعدت إلى الاسكندرية سعيدا واقترب موعد عيد ميلادى .. وتوقعت أن تتصل بى أسرتى تليفونيا لتهنئنى .. لأننا نحرص دائما على الاحتفال بأعياد ميلادنا كلنا ، ونجتمع فى كل مناسبة حول التورتة ونشترك فى هدية للمحتفل به .

وعدت من الكلية فى الساعة الثانية ظهرا .. وبدأت أعد طعامى وأنا أتوقع أن يدعونى جارى إلى التليفون فى أى لحظة لكن مضت الساعات وجرس التليفون لا يرن ، ثم دق جرس الباب فقممت لأفتحه فوجدت جارى أمامى مرتديا ملابسه الكامله ومعه زوجته مرتدية ملابسها وفى يدها حقيبة صغيرة ، وهما ينظران إلى بطريقة غريبة .. ثم طلب منى جارى أن أجمع ملابسى لكى أسافر إلى بلدتنا لأن أبى «تعبان» قليلا ويطلب أن يرانى فأنخلم قلبى .. وأسرعت أعد حقيقتى وهممت بالتزول فوجدتها يصحبانى فقلت لها إبنى أعرف موقف سيارات الأجرة ولا داعى لإزعاجهما لكنها قالا انها يريدان أن يطمئنا على أبى ويزورا بلدتى « بالمره » لأنها لم يزوراها من قبل .

وركبنا سيارة الأجرة .. وأنا منقبض الصدر .. وكلما رأيت نظرة الاشفاق فى عيني جارى أو زوجته ازدادت انقباضا حتى وصلنا إلى بلدتنا فى الليل ، فاكشفت هول ما جرى .

اكتشفت ياسيدى انى فقدت كل شىء فى لحظة أسود من ليل المحروم ، فقد أراد أبى بجاناه الزائد أن يفاجئنى فى عيد ميلادى بزىارتي مع أمى وأخى ليقيموا لى حفل عيد الميلاد .. ويوقدوا لى الشموع ويقدموا لى هديتهم ، فركبوا السيارة القديمة فى الصباح الباكر وخرجوا إلى الطريق حيث كان

ينتظرهم القدر عند سيارة نقل طائشة قضت عليهم جميعا في لحظة واحدة ..
الجميع .. الجميع يا سيدى .. أبى .. وأمى .. وأخى لأصبح في لحظة واحدة
يتما .. بل مقطوعا من شجرة .. لا أب ولا أم ولا أخ .. ووجدت كل شيء
قد انتهى .. ووجدت نفسى . واقفا في سرادق العزاء بين زملاء أبى وأقاربه
القليلين .. ووجدت الجميع يقبلونى ويبيكون من رجال القضاء إلى الموظف
العجوز في مكتب أبى .. كل شيء انتهى قبل وصولى .. وقد «غم» على فلم
الأحظ أن زوجة جارى كانت ترتدى السواد .. وظننت ذلك من الحشمة ..
وليس إعلانا لصياح كل شيء في حياتى .. ولازمنى جارى وزوجته في بلدتى
ثلاثة أيام وكانا لى كالأهل أو أقرب ثم اصطحبانى عنوة معها إلى الإسكندرية
لأواصل دراستى وأبتعد عن ذكريات بلدتى الحزينة ووجدت نفسى وحيدا في
الشقة المفروشة التى استأجرها لى أبى وزينتها لى أمى .. وشهدت شقيقى وهو
يكشف لى عن حبه بطريقة لم أرها منه من قبل وليته لم يفعل إذ ربما كانت
أحزاني عليه أخف وطأة .

وجاعنى بعد أيام فى الاسكندرية أحد زملاء أبى مشكورا بأوراق كثيرة
لأوقعها .. لكى أحصل على معاش أبى وإعانة الوفاة من النقابة الفرعية ولكى
يرفع لى قضية تعويض ، ثم انتحى لى جانبا وقال لى إن فى ذمته دينا لأبى
وأخرج ثلاثمائة جنيه أراد أن يعطيها لى فرفضت لأنى كنت متأكدا أنه لا دين
لأبى عنده وعندما أصررت على الرفض ، طالبنى بأن أعتبرها قرضا أسدده
حين أحصل على الإعانة أو التعويض فشكرته وجاعنى جارى الطيب وقال لى
أنه ذهب إلى صاحب الشقة وأبلغه بما حدث وأن الرجل قد قرر تخفيض
الإيجار عشرين جنيها كل شهر ، وأعطانى العقد القديم لأمزقه وأكتب معه
عقدا جديدا بالإيجار المنخفض .. فشكرته وشكرت صاحب الشقة .

وبدأت أواجه الحياة وحدى تماما .. لا ناصر ولا معين سوى أسرة هذا الجار الطيب الذى تمنيت لو كانت له ابنة لأرتبط به إلى آخر العمر وسوى زملاء أبى وأقاربه وأقارب أمى القليلين ، الذين يزورنى بين حين وآخر حين يزورون الاسكندرية ، وقد انخفض وزنى فى شهر واحد عشرة كيلو جرامات حتى أصبحت بنظولونانى واسعة على وقلت ساعات نومى فلم أعد أنام أكثر من ثلاث ساعات متقطعة كل يوم .. وبعد عذاب .. وأسرفت فى تناول القهوة وقل تركيزى حتى أصبحت أذاكر الصفحة فى ساعتين لا أكاد أغانر الشقة إلا للكلية لساعات وأعود سريعا بلا أصدقاء ولا زملاء ..

وكلما جلست إلى كتيبى أطلت على وجوه الأحباب من صفحاتها فيتمزق قلبي .. وأنفجر فى البكاء فى الشقة الخالية .. ورغم صيامى يومين كل أسبوع وصلاتى الطويلة فأنى ألوم نفسى أحيانا لأنى تمسكت بدخول هذه الكلية اللعينة فكنت السبب فى أن «يتشحطط» أبى وأمى وأخى ورائى ليزورون وفى أن يشتري أبى سيارة ويقودها وهو لا يجيد القيادة ولم يشتري سيارة فى عمره وأسأل نفسى دائما هل لو كنت قد استجبت لرغبة أبى فى الالتحاق بالكلية القريبة من بلدتنا هل كان سيحدث ما حدث وأسألك هل تنصحنى بترك كليتى التى تسببت فى تدمير حياتى وإذا تركتها ماذا أفعل وأنا لا أطيق العودة إلى الشقة الخالية فى بلدتى التى تذكرنى كل قطعة فيها بجنان أبى وأمى وأخى ولا أتحمّل أن أقيم فيها وأحول أوراقى إلى الكلية التى أرادنى أبى أن أدخلها من البداية فإذا أفعل .. يا سيدى .. ماذا أفعل يحيل إلى أحيانا أن الحل هو أن أهجر كل شىء .. وأن أسافر إلى أوروبا مثلا بعيدا عن بلدتى وكليتى وعن الاسكندرية كلها لمدة سنة لأبتعد عن أرض الأحزان كلها كما يفعل بعض الطلبة أحيانا الذين يسافرون للخارج ثم يعودون لاستكمال دراستهم ، لكنى

لا أملك الامكانيات اللازمة لذلك ولو كانت لدى هذه الامكانيات فهل هذا هو الحل يا سيدى .. أم ماذا أفعل ؟ ١٩ .

□ □ ولكتاب هذه الرسالة المؤلمة أقول : إن حزنك يا صديقي يجلب عن العزاء لكن لا بأس من كلمة تقال لا أملك ولا يملك لك أحد سواها . إنك يا صديقي تواجه موقفا من هذه المواقف الأليمة التي لا نستطيع التعامل معها إلا بالتسليم التام لإرادة الله سبحانه وتعالى وبالرضا التام بما جرت به المقادير ، لأن التسليم بقضاء الله وقدره من أركان الإيمان . وأنت تمضى على الطريق الصحيح الآن بالصلاة والصيام والصبر على ما تكره النفس وما يؤلمها ولا مفر من ذلك يا صديقي ولا مهرب لأن ما لا نملك تغييره ليس أمامنا سوى احتمالته وهذه هي شجاعة الحياة الحقيقية التي تسمو فوق كل رتب الشجاعة .. أما هواجسك عن الكلية القريبة والكلية البعيدة .. فهي لم تغير من الأمر شيئا ولا مبرر لأن تضيف لآلامك الجسيمة آلاما أخرى لا سند لها من الحقيقة ، فأنت تعرف تماما أنها أجال ومواعيد و «أماكن» .. ولو كنت قد التحقت بالكلية القريبة لجرى نفس ما جرى في نفس الموعد .. وفي نفس المكان فلا تعذب نفسك بهذه الخواطر لأنك أحق بالتماس السلوى والعزاء من أن تحاسب نفسك على ما لا حيلة لأحد فيه . فاطرد هذه الهواجس من صدرك واخرج من عزلتك .. واتبع وصية عالم النفس الشهير بول كوستا لعلاج الأحزان ، باسترداد الثقة بالنفس ومحاولة نسيان التجارب الأليمة والمشاركة في النشاطات الاجتماعية ، لكي تشغلك بقدر الامكان عن الآمك ومعاناتك ..

واسترداد الثقة بالنفس يبدأ في مثل حالتك .. بتحديد الهدف الذى ينبغى أن تسعى إليه بعد أن جرى ما جرى . والهدف النبيل الذى ينبغى أن تركز حياتك له الآن هو أن تحقق الآمال التى عقدتها أسرتك الراحلة عليك ، وأن

تستكمل دراستك وأن تتفوق فيها وأن تكون جديرا بحب أبيك الحنون لك ويفخره بك حين كان يقدمك لزملائه وأصدقائه مزهوا ومتفاخرا وأن تكون أيضا جديرا بعباء أمك وشقيقك لك ، عليهم جميعا رحمة الله ، وتحقيق هذا الهدف النبيل يتطلب منك أن تخفف بقدر الامكان من أحزانك ، وأن تحاول نسيان آلامك بالانخراط في الحياة الاجتماعية في كليتك والتماس الصحبة والايناس لدى بعض زملائك والاستعانة بحكمة جارك الشهم وزوجته الفضلى في أمور حياتك فمن يدري فلعل الله قد اختار لك السكنى بجوارهما لتجد فيها بعض العزاء ، وليجدا هما فيك بعض السلوى عن وحدتها وحرمانها من الإيجاب ، وهكذا الحياة يا صديقي تقسو أحيانا .. وترق أحيانا .. وتأخذ أشياء وتعطى أشياء أخرى كأنها تشير لنا بإشارات خفية إلى الطريق للانماس العزاء والتخفف من الآلام وما أقسى آلامك ، لكن ماذا تفعل غير ذلك .. وأين المضر يا ولدى ... أين المضر؟

أما رغبتك في هجر موطن الأحزان .. فهي رغبة مشروعة .. وقد تفيد المعذبين في بعض الأحيان لكنها في ظروفك ليست مفيدة ولا ضرورية لأنها سوف تعرقل دراستك وتؤخر تحقيق الهدف السامى لك الآن ، وهو هدف يستحق أن تغالب من أجله آلامك وأن تمضى إليه بكل قوة وبلا ضياع لأى فترة من العمر فهكذا ينبغي أن يكون الوفاء لأبيك وأمك وشقيقك ، وهكذا ينبغي أن تكون صور الأحباب التي تطل عليك بين صفحات الكتب حافزا لك على ألا تتخذهم وأن تسمو فوق آلامك من أجلهم ، ، ومن أجلك أيضا ، لهذا فأنت لست في حاجة إلى هذه الرحلة لكنك قد تكون في حاجة إلى رحلة من نوع آخر سوف تسهم بإذن الله في تضييد جراحك وفي غسل هموم قلبك المثقل بالأحزان ، لذلك فان « بريد الأهرام » سوف يدعوك بإذن الله وفي

الوقت الذى تراه أنت ملائماً سواء الآن أو بعد أداء الامتحان لتلبية أفضل دعوة يمكن أن توجه إلى إنسان وهى الدعوة لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الذى ترنى يتيمًا وحيدًا مثلك وواجه الحياة بلا أب ولا أم ولا أشقاء فأدبه ربه فأحسن تأديبه وكان خير البشر أجمعين .. وسوف أرجو من أحبائه « بريد الأهرام » فى الأراضى المقدسة وهم كثيرون بحمد الله أن يحيطوك خلال زيارتك لها بحبهم ورعايتهم .. وإن يضعوك فى قلوبهم فتعرف بالدليل الحى أن لك فى الحياة أكثر من أب وأكثر من أم وأكثر من شقيق^(١) .. فاكتب إلى باسمك وعنوانك يا صديقى .. وانتظر فلقد أردت لنفسك رحلة غير مضمونة العواقب .. فأراد الله لك خيرًا منها وأبقى وأفضل أثرًا بإذن الله .

(١) تلقى كاتب هذه الرسالة عشرات الدعوات من قراء مصريين أفاضل يعملون بالملكة السعودية لإستضافته ورعايته خلال رحلة العمرة ، وكما تلقيت من أجله رغبات مئات من القراء يطلبون التعرف به ومواساته واحتضانه واعتباره فردًا من أفراد الأسرة .

حفل الزفاف

أنا ياسيدى شاب عشت تجربة فريدة أود أن أضعها أمام قرائك
ليستفيدوا منها مثلما أستفيد أنا من تجارب الآخرين التي أقرؤها في هذا
الباب ..

فقد نشأت في أسرة ميسورة الحال .. ووالدى ضابط شرطة وصل إلى
أعلى رتبها .. وهو ابن باشا سابق .. أما والدتي فسيدة مجتمعات مثقفة جدا ،
ولي شقيقة وشقيق يشغلان الآن وظيفتين محترمتين جدا .. وأنا الابن الأكبر
لأبوى .. وقد نشأنا جميعا في جو ارسقراطى .. يهتم كثيرا بالشكليات
والتقاليد وكل شيء فيه بمواعيد ونظام .. وصدقاتنا العائلية كلها من نفس
المستوى .

ولأسباب لا أعرفها حتى الآن وجدت نفسى لا أميل كثيرا إلى هذه
الحياة .. ولا أجد نفسى في صداقات الشبان والفتيات من وسطنا
الاجتماعى .. فانجذبت صداقاتى كلها إلى الشبان البسطاء المكافحين مما جعلنى
موضع نقد من أفراد أسرتى الذين اتهمونى بأنى لا أحافظ على مستوى
الاجتماعى !

ولأن أبى قد ورث عن أبيه ميراثاً ضخماً فقد كنا نعيش حياة مرفهة وعندما
التحقت بكلية الطب كانت لى سيارة بويك كبيرة أذهب بها إلى الكلية وكثيراً

ما رجوت أبى أن يستبدلها لى بسيارة صغيرة لكيلا أشعر بالخرج من زملاي وأسأتذنى فكان يرفض بإصرار وكنت أتعمد تركها بعيدا نسيباً عن مبنى الكلية .

وأثناء دراسى بالكلية ارتبطت عاطفيا بإحدى زميلاتي شدتنى إليها ببساطتها ولسنت فى أعماقتها حنان الدنيا فضلا عن جلالها وذكائها وكانت متفوقة وكنت أيضاً متفوقا وتعاهدنا على الارتباط الأبدى بإذن الله وجاء يوم التخرج ونجحنا نحن الاثنين بتقدير عال .. وجاءت اللحظة التى ينبغى أن أجول فيها حلمنا إلى حقيقة - وفاتحت أسرتى برغبتى فى خطبتها ودعوته لزيارتنا فجاءت ورآها أبى وأمى وإخوتى وأعجبوا جميعاً بجمالها وهدوئها وذوقها فى اختيار ملابسها .

وبعد الزيارة سألتى أبى عن مهنة أبيها وما أن أجبته حتى انفجرت داخله براكين الغضب وهب واقفاً يحطم بيديه الأكواب التى أمامه ويعلن بكل إصرار أن هذا الزواج لن يتم أبداً .. أتدرى لماذا لأن والد حبيبى حلاق .. نعم حلاق وأقولها بكل فخر واعتزاز لأنه رجل شريف مكافح أدى واجبه تجاه أسرته وحقق ما لم يحققه بعض « الباشوات » فأهدى إلى الحياة ثلاثة أطباء ومهندسا معاريا وضابطا رغم أنه لم ينل حظا كافيا من التعليم .

وانحازت أمى إلى جانب أبى وانحاز معها شقيقى وشقيقتى ووجدت نفسى وحدى . أتساءل ما ذنبى أنا وفتاتى فى أن يجرم كل منا من الآخر .. وأنا لم أعرف للدنيا معنى إلا بعد أن أحببتها وقررت أن أدافع عن حبي وحياتى وتوجهت إلى بيت حبيبى وقابلت أباه .. وأعطيته صورة صادقة عن الموقف ففوجئت به بعد أن عرف بمعارضة أسرتى يرفض هو أيضاً زواجى من ابنته ويقسم أنه لن يسمح بذلك لأنه لا يرضى لنفسه ولا لأسرته أن يقال عنهم

أنهم قد «ضحكوا على» وخطفوني من أسرقى ، وحين رأى تمسك ابنته بى أعلن بكل وضوح أنه سيتبرأ منها لو تزوجتنى على غير إرادته وإرادة أسرقى .
ووجدنا نفسينا حائرين .. أسرقى ترفض بسبب نظرة اجتماعية بالية .. وأسرة حبيبتى ترفض دفاعاً عن كرامتها ..

و قررت بعد تفكير طويل أن أضع حداً لهذا العذاب .. فاصطحبت فتاتى ذات يوم ومعى صديقان إلى مكتب المأذون وأخرجنا بطاقتينا وطلبنا منه عقد زواجنا .. وحين قال لى قل يا سيدى : قبلت زواجك على سنة الله ورسوله وعلى الصداق المسمى بيننا وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه .. انهمرت دموعى ودموعها ودموع صديقتى .. وخرجنا من مكتبه زوجين أمام الله والناس لنواجه قدرنا وحدنا .. بلا سند لنا إلا الله سبحانه وتعالى ولم تتأخر المتاعب طويلاً فما أن علم أبى بما حدث حتى طردنى ساعحة الله من البيت وسحب منى سيارة الأسرة فخرجت من البيت أحمل حقيبة ملابسى الصغيرة وفى جيبى سبعة جنيهات هى كل ما بقى معى بعد أجر المأذون وما أن علم أبوها بما جرى حتى طردها هى أيضاً فخرجت من البيت ومعها حقيبة ملابس صغيرة وأربعة جنيهات ، ووجدنا نفسينا فى الشارع بلا مأوى .. وكنا فى شهر فبراير ولم يبق سوى شهر على تسلم عملنا كطبيبى امتياز فى الشهر التالى حيث سيتقاضى كل منا أربعين جنيهاً وكانت ليلة طردنا ليلة شديدة البرودة .. فجلسنا فى محل نختبئ داخله من الصقيع ونفكر فيما سنفعل .. وكلما مرت ساعة ولم نجد مأوى إزداد خوفنا .. حتى جاء الفرج ونجححت فى الاتصال بأحد أصدقائى واقترضت منه خمسين جنيهاً وذهبنا إلى إحدى اللوكانداث الشعبية الرخيصة .. وحين احتوتنا الغرفة المتواضعة لأول مرة .. كان كل منا يعرف فى أعماقه أن أماننا أياما صعبة لن يخفف منها سوى

عطف كل منا على الآخر وحمايته له .. وعشنا في هذه اللوكاندة فترة تسلمنا خلالها العمل في المستشفى ، ثم وفق الله أحد أصدقائي في أن يجد لنا شقة من حجرتين على الطوب الأحمر في بيت صغير في زقاق ضيق بأحد الأحياء الشعبية ، وكانت هدية من السماء لأن صاحبها كان في حاجة إلى نقود فقبل تأجيرها لنا بلا مقدم ولا خلو بخمسة وعشرين جنيهاً .. وفرحنا بها فرحة كبرى وأسرعنا نتقل إليها .. واشترينا أول أثاث عرفناه لبيتنا .. وكان مرتبة من الأسفنج ووسادتين ومكبا خشبياً صغيراً وكريسيين وواور جاز .. وبرادا وكوبين وحلتين فقط لا غير ! .

وفي هذا العش الهادئ عشنا حياتنا سعداء بوجودنا معاً لا يزعجنا فيه شيء سوى كثرة الفئران والحشرات .. وكانت زوجتي قوية الإرادة فتعاهدنا أن نبنى حياتنا دون مساعدة من أحد .. وكانت أيضاً مدبرة فكان مبلغ الخمسة والخمسين جنيهاً التي تتبقى لنا بعد دفع الإيجار تكفينا طوال الشهر للأكل والمواصلات ولكن بلا أي ترفيه أو شراء ملابس ، وأحبنا جيراننا البسطاء .. وأحبيناهم .. وكانوا يشفقون علينا من شظف حياتنا ويتمتعون من سوء حالنا ونحن طبيبان حتى قال لي أحدهم مرة بتلقائية غريبة : إحنا كنا فاكيرين إن الدكاترة كلهم حرامية لكن ياما في الحبس مظالم ! .

ونخفت عنا صداقاتهم بعض صعوبة الحياة فكانت جاراتنا يعرضن خدماتهن على زوجتي بشهامة مألوفة عندهن فتطلب منها جارة مثلاً ملابسنا لكي تغسلها مع غسيلها لأننا طبيبان مشغولان بالعمل .. وتتطوع أخرى بشراء حاجيات البيت لها .. وتصر نالمة على أن تشاركها تنظيف الشقة بهمة . وأنا أتذكر هذه الأشياء البسيطة الآن .. لأني كثيراً ما وجدت فيها تعويضاً لنا عن جفاء أهلنا لنا وقسوتهم علينا في هذه الأيام الصعبة رغم علمهم بكل ظروفنا

ففي مقابل هذا العطف من الجيران البسطاء .. لم يحاول أحد من أهلنا زيارتنا أو السؤال عنا .. بل ولم يتركونا أيضا في حالنا ففوجئت في إحدى الليالي وأنا وزوجتي نائمين بعد يوم شاق في العمل بأربعة وحوش يقتحمون شقتنا .. ويحطمون المكتب والكرسيين .. ويمزقون المرتبة الوحيدة التي ننام عليها وكتبنا وأوراقنا ويسبوننا بأفزع الشتائم .. بحجة أنهم يفتشون الشقة ثم خرجوا ورئيسهم يهددني : أنتم لسه شقتم حاجة .. عشان تبقى تتحدى الباشا ! يقصد أبي الذي كان ترفى وقتها إلى رتبة اللواء !

وخرج الرجال الأربعة .. وانحنينا نحن نللم الاسفنج الذي خرج من بطن المرتبة ونعيد حشوها ونحيطها .. ونجمع كتبنا الممزقة .. ونحاول إصلاح المكتب والكرسيين .. ثم غلبنا التعب فنمنا على المرتبة وقد أمسك كل منا بالآخر بقوة لأنه يحمي به مما تخفيه له الأيام .. وبالفعل فلقد انتابني الإحساس بأن أبي لن يدعنا في حالنا .. وتحققت مخاوفي حين أبلغني صديقي لي أن أبي يدبر أن يلفق لزوجتي قضية آداب ! هل تصدق ذلك .. هذا ما حدث والله العظيم ولم يرجع أبي عن نيته إلا بعد أن أقسم له صديقي أنه سيقنعني بتطبيقها .. لكيلا « أعاند » وأمسك بها أكثر لو حدث لها مكروه وأصبحت مهمة صديقي هي أن يزوره كل عدة أيام ليطلب منه الصبر .. حتى ينجح في اقناعي لاضاعة الوقت لعله يبدأ وينساني قليلا .. وخلال ذلك جاءت فترة التجنيد وأمضيت عاما لا أقتاضى فيه سوى ستة جنيهات كل شهر وكنت أعمل لهذه الفترة ألف حساب .. لكن الله لم ينسنا فوجدت زوجتي عملاً في مستوصف قريب من البيت وأصبحت هي التي تتولى الإنفاق على الأسرة . وانتهت فترة التجنيد وخرجت من الجيش لأجد زوجتي مصممة على تسجيل الماجستير لي ولها فظننت أن عقلها قد أصابه شيء ! لأني كنت انتظر

بفارغ الصبر إنتهاء فترة التجنيد لكي نبحث عن عمل في الخارج .. لنعيش حياتنا ولنهرب بعيداً عن قسوة الأهل وتربصهم بنا ، لكنها صممت وقالت لي إننا متفوقان وقد صمدنا للضيق والشدة والمضايقات فلماذا لا نكمل مشوارنا العلمى ثم نحقق بعد ذلك أحلامنا .

واستجبت لاقتراحها مرغماً ومعجباً بها وبقوة إرادتها في نفس الوقت وسجلت أنا وهى للماجستير.. وبدلاً من أن نستريح بعد ما لقيناه .. بدأنا نستعد لفترة أخرى أشد قسوة ومرارة .. لأن الماجستير يحتاج إلى تكاليف وإلى كتب وإلى عناء كثير .

وبدأنا نذاكر للماجستير .. وقاسينا من الضيق والحاجة أشد مما قاسيناه طوال زواجنا .. ويكفى أن أقول لك إن طعامنا خلال الشهرين الأخيرين من الدراسة كان لا يتجاوز الخبز والدقة والملح والماء تقريباً وأنا كثيراً ما قاسينا الجوع في ليالى المذاكرة الطويلة .. ولم نكن نجد ما نسكته به سوى الماء ، ومازلت أذكر حتى الآن أنى أسرفت ذات ليلة في شرب الماء لكي أتقى الجوع فانقلبت معدنى وتقيأت وشعرت بالجوع أكثر وأكثر ولم نجد بدا من التضحية ببضعة قروش فخرجت في الليل أبحث عن شىء يؤكل .

ورغم ذلك كنا سعداء .. ولم نشك يوماً .. ولم نندم .. ولم أر زوجتى مرة باكية .. حزينة .. أو غاضبة لأى سبب من الأسباب .. بل كلما رفعت رأسى عن الكتاب .. متمللاً وجدتها تنظر لي بعينها الجميلتين والابتسامة الحبيبة تغطى وجهها .. فأبتسم لها ثم أحنى رأسى مرة أخرى على الكتاب .. وقد زال ضيقى .

وكلل الله جهودنا بالنجاح فحصلنا على الماجستير في زمن قياسي خلال عامين فقط .. لكن أزمنا لم تنفرج بل عشنا عاماً آخر بعد الماجستير نعاني من

شظف العيش ونام فوق المرتبة وليس في حياتنا أية نسمة راحة حتى وفقني الله بعد جهد جهيد في الحصول على عقدي عمل لي ولزوجتي في إحدى الدول ولأول مرة بعد ٥ سنوات من العناء عرفت حياتنا أول لحظة راحة .. فحشنا في شقة جميلة وعرفنا النوم على الفراش .. وعرفنا التلفزيون بعد أن كنا قد نسيناه .. وعرفنا الطعام الجيد بعد أن كنا قد ودعناه منذ ٥ سنوات وخلال عامين كنا قد تمكنا من شراء شقة تملك في أحد أحياء القاهرة وأثنائها .. واشتأقت نفسي للعودة إلى بلدي بعد أن وجدنا لأنفسنا فيها مأوى كريماً ، لكن حبيبتي « المجنونة » خرجت على مرة أخرى بطموح جديد هو أن نحصل على زمالة كلية الجراحين الملكية بلندن .. وبفلس المنطق نحن متفوقان .. وقد مضيت أيام الشدة ولدينا الآن النقود التي تسمح لنا بالانفاق على الزمالة .. إلخ .. وباختصار حصلنا على الزمالة من لندن بتوفيق من الله .. ويجدنا واجتهادنا .. وبعد الحصول على الزمالة تعاقدنا للعمل في دولة أخرى بمرتبتين خياليين وتقدمنا في عملنا فأصبحت مديراً فنياً للمستشفى الذي أعمل به وأصبحت زوجتي مديرة للقطاع الطبي بالشركة التي تعمل بها .. ورزقنا الله بطفلة جميلة لم أتردد في أن أسميها باسم شريكة كفاحي وشقائي وسعادتي .. زوجتي .

وبعد ٣ سنوات من الغربة .. عدنا إلى القاهرة في أجازة .. وفي داخلي تصميم على شيء لم أصارح به زوجتي إلا بعد وصولنا لمصر بأسبوع .. ، هو أن نحفل بزفافنا الذي لم نحفل به يوم تزوجنا منذ ٨ سنوات لأن من حق حبيبتي أن ترتدي ثوب الزفاف الأبيض الذي لم ترتديه .. وأن أرتدى أيضاً بدلة الفرح التي لم يكن لي مثلها حين تزوجت .. وصممت ونفذت وتحديت الجميع وأقت حفل الزفاف في نادي الشرطة ! ودعوت كل أصدقائي الذين

وقفوا إلى جوارنا في وقت الشدة .. وتصدر الحفل جيرانى البسطاء في شقة الطوب الأحمر فرحين مندهشين ودخلت القاعة مع زوجتى بثوب الزفاف وأمامنا المشاعل .. والشموع .. وفرقة الزفة .. وطفلتى تجرى بين أقدام المدعوين وتضحك سعيدة وهى لا تدرى أنه حفل زفاف أبويها ! ونمت ليلتها قير العين شاكرأ لربى نعمته التى أنعمها على .

إنى أكتب إليك الآن لأنى سعيد وراض عن كفاحى لأقول لكل إنسان إن الصبر والكفاح يحققان للإنسان ما يريد لنفسه وأن على كل إنسان ألا يئأس من رحمة الله لأن لكل شدة نهاية ولكل ضيق آخر وعلينا فقط أن نودى واجبتنا تجاه أنفسنا ثم نسلم الأمر للخالق جل شأنه ليختار لنا ما يشاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : إنى منذ زمن طويل لم أتلق رسالة واحدة كرسالتك هذه لا يطلب فيها كاتبها شيئا سوى أن يضع تجربته السعيدة أمام الآخرين ليستفيدوا منها .. ولو بمعايشة سعادته للحظات خلال قراءة الرسالة . ولا عجب فى ذلك لأن من يكتب عن نفسه يميل به قلمه غالبا إلى النجوى وبث الموموم .. كأن آلام البشر لا تسمح لهم بأن يكتبوا عن شىء آخر .. أو كأننا نردد جميعاً مع المتنبي قوله :

ليت شعرى هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعتب ؟

لكنك قلت « قصيدتك » يا صديقى فلم تشك فيها ولم تعتب رغم ما لقيته من شقاء فى حياتك لذلك سعدت بها كثيراً ودهشت لحفل الزفاف الموجل منذ ٨ سنوات وسعدت به كثيراً لأن من حق من يشقى أعظم الشقاء أن يسعد أيضاً أعظم السعادة . كما لم يخف معنى « مغزى » اختيارك لنادى الشرطة بالذات لإقامة هذا الحفل الغريب كأنك تريد به أن تبث إلى أهلك رسالة

تقول له فيها إنك قد صمدت لعدوانه عليك وكافحت ونجحت وحققت
لنفسك السعادة التي أردتها باختيارك لشريكة عمرك .

والحق أن زوجتك تستحق هذا الحفل وأكثر.. لأنها من بانيات الرجال
يا صديقي وقد دفعتك خطوات واسعة إلى الأمام بإرادتها الصلبة وبصبرها
وكفاحها معك وإخلاصها لك ولأنك أيضاً وجدت معها جنتك الحقيقية وأنتما
ترقدان فوق حشية الاسفنج في شقة الطوب الأحمر.. وسوف تجدها معها دائماً
بإذن الله وسوف تحقق معها الكثير والكثير أيضاً .

وبالرغم من تقديسي دائماً لرمز الأب واعترافي له بحقه في أن يحجب
موافقته على زواج ابنه وفقاً لما يراه من اعتبارات ، إلا أنني فزعت من أن
تصل معارضته لزواجك إلى حد استخدام الأساليب البوليسية الكريمة معك
لإكراهك على الانفصال عنها .

فلقد كان يكفيه - وهذا تجاوز في حد ذاته - أنه طردك من بيته وحرملك
من معونته وقبض عنك يده وتركك تقاسى شظف العيش وتغالب الجوع
والحرمان مع زوجتك ، نعم كان يكفيه كل ذلك ليدعك تخوض تجربتك وفقاً
لاختيارك اما أن يطلق عليك وحوشه ليقضوا مضجعك ويهدد بتلفيق قضية
ماسة بالشرف لزوجتك فهذا هو الجرم الذي ما كان ينبغي له أن يرتكبه في
حق ابنه مهما صنع هذا الابن .. لأن الأب لا يملك لابنه الرشيد سوى النصيح
والارشاد ، فإن لم يمثّل فليدعه لحياته ولمصيره . وربما كان الأقرب إلى الرحمة
والعدل والمعنى الأبوة أن يمدّه من بعيد بمعونته حتى وإن تمسك بموقفه الراض
معه أما أن يطارده بهذا الشكل المفزع فهذا هو التجبر وغرور السلطة بعينه ،
إذ ماذا كان يملك أن يفعل لو لم يكن في موقع يسمح له بإرسال الوحوش إلى
بيت ابنه ؟ هل كان سيستأجر بعض البلطجية لأداء هذا الدور القدر؟ .

فلنترك على أية حال هذا الحديث المؤلم .. ودعنى أقل لك بعد كل ذلك أن الأيام يا صديقي تأسو الجراح ولقد مضت أيام الشقاء بنجبرها وشرها .. وأنتم الآن زوجان سعيدان وشريكان ناجحان متفوقان ولستما في حاجة إلى معونة أحد ولا إلى مساندة .. لكنكما في حاجة بالتأكيد إلى أن يكون لكما أهل وأقارب لأن الإنسان الوحيد الذى تشغله رحلة الكفاح عن نفسه .. يبحث حين تستقر سفينته عن أهله ، وقد يتلمس أقاربه البعيدين ليتسبب إليهم ويجدد صلاته بهم .

وأنتم لستما في حاجة إلى البحث عن الأهل والأقارب لأنهم موجودون والحمد لله لكن ظروف حياتكما قد باعدت بينكم فلماذا لا تستكمل سعادتك بأن تفتح صفحة جديدة حتى مع من أساءوا إليك وظلموك؟ ولم لا تستعيد صلاتك بأسرتك وتستعيد زوجتك صلاتها بأسرتها وأنتم الآن زوجان تفخر أية أسرة بها؟ ولماذا لا تتيح لأسرتك فرصة أن تعرف زوجتك على حقيقتها .. وطفلتك التي لم يروها حتى الآن . إنك إن فعلت يا صديقي فسوف يكون ذلك تأكيدا جديدا لاستقامة خلقك وعلى أنك من ذوى النفوس الكبيرة التي لا تؤثر فيها الصغائر ولا الأحقاد فلم لا تفعل .. لكى يعرف من أساءوا إليك أى جرم ارتكبهوه فى حقت حين باعدوك وطاردوك ، لا لشيء سوى لأنك قد وجدت نعيمك وسعادتك مع الشريكة الراضة !

التحدى

غالبت نفسى كثيرا حتى تنازلت عن كبريائها « اللعين » وقبلت أن تقف موقف الشاكى من أحد وهى التى اعتادت أن يشكو إليها الناس وأن ينتظروا منها المشورة والعدل وسوف تعرف بعد قليل لماذا أجهدتنى نفسى لكى تقبل ذلك فأنا ياسيدى سيدة مرموقة بكل معنى الكلمة .. بدأت حياتى العملية منذ ٢٥ سنة عقب تخرجى من الجامعة .. واختارت لى الأقدار طريقا مباشرا بالنجاح .. وأردت أن أساعد نفسى على ذلك فالتحقت بالدراسات العليا بكليتى لأحصل على الماجستير والدكتوراه ، وفى قسم الدراسات العليا التقيت بأستاذى المشرف على رسالتى للماجستير ، وتكرر اللقاء بيننا لأستشيريه فى أمر رسالتى من حين إلى آخر وكان وقتها يقترب من الأربعين وكنت فى الخامسة والعشرين تقريبا .. ونشأ بيننا اعجاب متبادل ولم نلبث أن أقتنع كل منا بشخص الآخر .. واتفقنا بعد قليل على الزواج وفى اللحظة التى تصارحنا فيها .. تنحى أستاذى عن الإشراف على رسالتى وكلف زميلا آخر بالإشراف عليها لأنى أصبحت خطيبته ، وساعدنى مساعدات كبيرة فى رسالتى حتى ناقشتها وحصلت على الماجستير وتزوجنا .

وفى بيتى الصغير عرفت الحب لأول مرة فى حياتى .. بالرغم من أننا لم نتبادل عبارات الحب المألوفة فى الخطوبة فلقد وجدت نفسى أحبه من أعماق

قلبي ووجدت نفسي أحترمه بقدر ما أحبه فلقد كان دائما رجلا على خلق وله مثالياته التي يحرص عليها في الحياة ، وكان كل يوم يمر على معه يكشف لي عن ميزة جديدة من مميزاتة .. فهو أمين .. لا يكذب .. لا يقبل الانحراف بكل أنواعه .. شجاع يقول كلمته في الكلية ولا يبالي إن كانت ستكسبه خصوما أم أنصارا . أما في بيته فقد كان بحق زوجا مثاليا هادئا .. لا يعرف كيف ينطق بكلمة جارحة لأحد منظم جدا يؤمن بتعاون الرجل مع المرأة في كل شئون الحياة وقد أكسبته سنوات دراسته في أوروبا نظرة عملية للحياة غير متوافرة لدى الكثيرين فكان مثلا يشاركني العمل يوم الغسيل ويقف على الغسالة إلى جوارى . ويشاركني في كى القمصان والفساتين . ويشترى لي الخضار والفاكهة من السوق وهو الأستاذ المرموق ويحرص على مشاركتي في تنظيف البيت في اليوم المخصص لذلك ، وكان يهتم جدا بنظافة أرضية الدور الذي نسكن فيه من العمارة .. ولولا أني أسسكت به ذات مرة في أول زواجي منه وأقسمت عليه ألا يفعل حرصا على مركزه .. لخرج من باب الشقة ليمنح أرضية الدور بالجردل وبالمسحة الطويلة التي جاء بها من أوروبا قبل أن توجد في مصر .. فعند هذا الحد قلت له أرجوك دع هذا الأمر للبواب لأن جيراننا سوف يستهجنون هذا التصرف ورضخ لمطلبي رغم عدم اقتناعه به لأنه يعيش في الواقع ويعرف الكثير عن الحياة وأصبح يدفع للبواب أجرا شهريا مقابل غسل أرضية الدور مرة كل أسبوع .

وقد تعلمت منه الكثير والكثير .. وتعودت على نظام حياته الذي يحرص عليه بدقة منذ تعلم في أوروبا فعلمني العمل لفترة يوم أوروبي - وليست فترة اليوم المصرى المعروف الذى ينتهى عادة في الثانية بعد الظهر .. وأن أنظم حياتي على ذلك .. وتعلمت هذا النظام وارتحت إليه فكنا نستيقظ في السادسة

صباحا .. ونجلس على مائدة الافطار معا لمدة ساعة نتناول الطعام ونقرأ الصحف وتبادل الأحاديث ثم نخرج إلى عملنا مبكرين هو إلى الجامعة وأنا إلى مكتبي بالهيئة التي أعمل بها وفي حقيبة كل منا سندوتشات للغداء نتناولها في الثانية عشرة والنصف بالضبط ثم نبقى في العمل حتى الرابعة والنصف ويمر بي بسيارته لنعود إلى البيت .. فنعد معا طعام العشاء وتناوله في السادسة مساء وبعدها يدخل إلى مكتبه وأنا معه فيقرأ وأدرس أنا للدكتوراه بجواره لمدة ساعتين ثم نشاهد التلفزيون لفترة وننام مبكرين .

أما يوم الخميس فإننا نخرج لتزور الأقارب والأصدقاء أو نسهر في مسرح أو سينا وفي يوم الجمعة لا بد من الخروج طول النهار إلى أى مكان ونعود متعشين وقد جددنا نشاطنا لنستعد لأسبوع من العمل الشاق ! .

هكذا كان نظامه .. ولا تتصوركم أفادنى ذلك فى عملى - فقد كنت الموظفة الوحيدة التى تبقى بالعمل كل يوم من ٨ صباحا إلى ٤,٣٠ مساء رغم انصراف كل الموظفين فى الثانية وكثيراً ما ضقت بالفراغ والوحدة فى ساعات بعد الظهر لكنه علمنى أن أستفيد منها فى دراسة عملى وإعداد التقارير واقتراح المشروعات وفعلت ذلك واكتسبت سمعة حسنة جدا لدى رؤسائى بسبب ذلك وأصبحوا يكلفونى بالأعمال التى تتطلب دراسة وتفكيراً وترقيت سريعا فى عملى فأصبحت رئيسة لقسم ثم مديرة ادارة وبعد أن كنت أجلس فى غرفة بها ٤ مكاتب أصبحت لى غرفة صغيرة خاصة بى وساع يرتب أوراقى وملفائى .

وكان زوجى يرقبى بإعجاب ويشجعنى على بذل المزيد من الجهد فى العمل لأتقدم أكثر.. ويساعدنى فى اختيار الملابس المحتشمة اللائقة بى .. بل أصبح يساعدنى فى عملى حين أعجز عن ابداء الرأى فى مشكلة فأستشيره

ويشير على بالرأى الصائب وبعد خمس سنوات من زواجنا رأى أن الوقت ملائم للإنجاب .. فأنجبنا أبننا الوحيد وبطريقته العملية طلب منى التفرغ من العمل لتربيته لمدة عامين بإجازة بدون مرتب ، وبعد عامين بالضبط طلب منى العودة للعمل وأحضرننا مربية للطفل اخترناها بعناية لكي تَمْضِي فترة الصباح معه في بيت أم زوجي المسنة حتى نمر بها عند العودة من العمل ونصطحب الطفل للبيت واكتسبت حياتنا طعما جديدا بعد مجيء الطفل .. لكن نظامها لم يتغير وبعد عامين آخرين ألحقناه بمحضانه أطفال راقية واستغنينا عن المربية ومضت حياتنا هادئة سعيدة ورغم أننا لم نكن من الأثرياء فلقد عشنا حياة مضيئة بكل معنى الكلمة في حدود إمكاناتنا .. فقد كانت لزوجي قطعة أرض صغيرة مزروعة حدائق في بلده يؤجرها منه بعض أقاربه فكان يرادها مع مرتبه ودخله من كتبه الجامعية التي كان يتنازل عن نصف مكافأة التأليف مقابل تخفيض أسعارها للطلبة توفر لنا حياة معقولة بلا اسراف .. أما مرتبي فلقد كان يصر على أن أحفظ به لنفسي ويقول لي ضاحكا أنا متحرر في تفكيري في كل شيء إلا في هذه النقطة فأنا شرقي جدا فيها . وهكذا كنت أنفق مرتبي على متطلبات الشخصية وعلى شراء الهدايا له في المناسبات .. وكان هو يبادلني الهدايا وواصلت نجاحي في عملي وترقيت مديرا عاما وزادت أعبائي ولم أستطع مواصلة الدراسة للدكتوراه فتوقفت عنها وأسف هو لذلك كثيرا لكنه لم يعترض وواصل هو نجاحه في عمله حتى أصبح رئيسا للقسم ثم وكيلا لكليته ورفض أكثر من مرة قبول العمل في الخارج رغم مغرباته وفي هذه الفترة توفيت والدته رحمها الله .. وأصبحت شقتها خالية فنقل إليها بعض كتبه وأرشيفه .. وأصبح يمضي فيها أحيانا بعض الوقت كلما احتاج إلى أرشيفه .

وفجأة قفزت أنا قفزة كبيرة في عملي حين أحيل رئيس مؤسستنا للمعاش ورقى وكيل الهيئة رئيسا لها فاخترانى وكيلا للهيئة بدلا منه وقوبل اختياري لهذا المنصب بمعارضة صامتة واحتجاج داخلى من كثير من المديرين بهيئتنا .. وتألمت لذلك وشكوت لزوجى فقال لى اجعلى من هذه الاحتجاج تحديا يدفعك للعمل والإجادة واقناع المعارضين بأنك الأقدر فعلا على شغل هذا المنصب وبالفعل تفانيت فى العمل وأصبحت أعمل صباحا ومساء ويوم الإجازة وأتنازل عن اجازتى السنوية التى كان زوجى يحرص حرصا شديدا على قضائها معى فى المصيف .. ولأول مرة فى حياتى افترقنا عدة أسابيع حين جاء الصيف فانتقل إلى المصيف فى أغسطس واستأجر الشقة المعتادة هناك .. واصطحب ابني وبقيت وحدى فى القاهرة أذهب إليه مساء كل أربعاء بسيارة الهيئة وأعود مساء الجمعة .

ولم يشك زوجى من شىء .. بل كان سعيدا ومنطقيا كعادته وقال لى ليست هناك مشكلة ما دمنا سعداء معا .

واستمررت فى عملى كوكيلة للمؤسسة وبذلت أقصى طاقتى فى العمل مع اقتراب خروج رئيس المؤسسة إلى المعاش بعد عامين وبعد أن أصبحت المرشحة الأولى لشغل منصبه .. بترشيحه وترشيح كفاءتى لذلك غرقت فى العمل فعلا خلال السنوات الأخيرة وأصبحت أيامى تنفضى فى اجتماعات ولجان وسفر لتفقد الفروع وحضور الاحتفالات المختلفة وكلما تصورت أنى أنجزت شيئا اكتشفت أن هناك جبالا من الأعمال تنتظرنى .. ولم ينفعنى اليوم الأوروبى فى ذلك .. فأصبحت أذهب للعمل فى الثامنة وأعود فى الثالثة أو الرابعة .. أتناول طعام الغداء واستريح ساعة ثم أعود للعمل فى السادسة والنصف أو السابعة وأبقى فيه حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة وأحيانا

للواحدة صباحا .. وهكذا كل الأيام بما فيها يوم الجمعة أحيانا .. وابتلعتني العمل بغير أن أحس واكتشفت فجأة أن أياما كثيرة تمر بدون أن أرى زوجي وأتحدث إليه فهو يكون خارج البيت حين أعود ظهرا .. ويكون نائما حين أعود ليلا وأيام الجمع التي يحرص على الخروج فيها أصبحت لا أرافقه معظم المرات لأني أصل إلى نهاية الأسبوع منهكة القوى فأجد نفسي نائمة معظم ساعات نهار الجمعة « كالفسيخة » من شدة التعب .. أفطر وأنام .. وأتغدى وأنام وكثيرا ما صحوت بعد العصر فأجده عائدا مع ابني من النادي أما أعمال البيت فلم أعد أضع يدي فيها بكل أسف لأني متعبة وقد خصصت نصف مرتبي كأجرة لمديرة بيت تأتي في الثامنة صباحا وتذهب في الخامسة لأعوض هذا الإهمال مني لكنني كنت سعيدة والمخ الرضا في زوجي عن نجاحي .. وكثيرا ما قال لي إنه لا بد أن تكوني رئيسة للمؤسسة وسوف تتجحين في ذلك إن شاء الله .

وذات يوم كنت في مكتبي فدخلت على مديرة مكتبي بلا أوراق أو ملفات في يدها فاستغربت ذلك وتوقعت أن تطلب مني اجازة واستعددت للرفض لكنها اقتربت وجلست ثم قالت لي إنها تريد أن تتحدث معي في أمر خاص ثم قالت لي خيرا نزل فوق رأسي كالمطرقة .. قالت لي إن زوجي قد تزوج من شهور من زميله له بالكلية مطلقة في الأربعين من عمرها وأنها عرفت ذلك منذ أسبوع من زوج شقيقتها الذي يعمل موظفا بنفس الكلية وأن الخبر معروف في الكلية منذ شهور لأنها لا يخفيانه وأن « الأستاذة » تقيم مع أمها لأنها لم تنجب وأن زوجي يعد شقة أمه الراحلة لتكون عش الزوجية ! .
أسرعت أضعت النظارة على عيني لأخفي انفعالاتي وسألتها هل أنت متأكدة من ذلك فقالت لي نعم ولأول مرة منذ سنوات طلبت سائق السيارة ونزلت من

مكتبي قبل مواعيد العمل وأسرعت عائدة إلى البيت .. ووجدت زوجي فيه
يجلس ساكنا على فوتيل يقرأ كتابا ويدخن البايب في هدوء ! .
ولم تبد عليه دهشة لعودتي المفاجئة .. وجلست بجواره وسألته عن
الموضوع فإذا به يقول لي بهدوء عجيب .. الخبر صحيح ! .

وصرخت فيه لأول مرة في حياتي تزوجت ؟ فنظر لي مندهشا من ارتفاع
صوتي وقال لي نعم ! قلت لماذا .. قال بنفس الهدوء لأنه لا بد لكل رجل من
زوجة ! فصرخت مرة أخرى وأنا ماذا أكون ؟ فقال أنت وكيلة هيئة مرموقة
مشغولة بعملها ولجانها واجتماعاتها وطموحاتها .. ولم تعودى زوجة منذ أكثر
من ٥ سنوات . لقد صبرت كثيرا وتحملت كثيرا وانتظرت أن تفيقي إلى نفسك
وأن تؤدي إلى حقوقي كزوج ولكنك لم تنتهي إلى ذلك هل تذكرين متى
كانت آخر مرة جلسنا فيها جلسة هادئة لمدة ساعتين معا ! ليس قبل عام على
الأقل .. هل تذكرين آخر مرة تناولنا فيها طعام العشاء أو الغداء معا ؟ ليس
قبل ١٠ شهور .. هل تذكرين آخر مرة أمضينا فيها أجازة لمدة ٣ أسابيع معا
في المصيف أو في القاهرة ليس قبل عامين ؟ .

ماذا كنت تنتظرين مني .. إنك تعرفين استقامتي وتعرفين أني لا أقبل أن
أفعل الخطأ .. لذلك كان لا بد لي أن أتزوج وقد تزوجت ! .

ووجدت نفسى عاجزة عن الرد لكنى قلت له وابنك ؟ قال ابني أصبح
شابا في السابعة عشرة يفهم الدنيا .. وسوف يعذرني إذا شرحت له الأمر لكنى
لن أفعل ذلك إلا إذا أخبرتيه أنت بذلك لكن الأفضل أن يعرف الأمر في
الوقت المناسب وتحمدي لساني في حلقى .. وبعد دقائق مرت كالشهور قلت له :
والعمل ؟ قال لي كما تشائين .. إذا أردت استمرار العلاقة الزوجية فأنا على
استعداد لذلك وإذا أردت الانفصال فأنا أيضا على استعداد لذلك ولن يتغير

أى شيء في حياتك لأنى سأترك لك الشقة بما فيها وسأخذ كتبى وأوراقى فقط لكنك إذا سألتينى عن رأى فسوف أنصحك بقبول الأمر الواقع وأن تستمر علاقتنا الزوجية حفاظا على مظهرنا الاجتماعى وعلى مركزك ولن تفتقدى شيئا منى .. لأنك فقدتيني بالفعل منذ سنوات ؟.

ونهدت من أمامه محطة ودخلت غرفة نومى وانهرت فى بكاء عنيف ولم أشعر إلا بزوجى يقول لى : السيارة حضرت ! فقلت له لن أذهب للعمل اليوم قل للسائق أن يعود غدا !.

وأضيت اليوم فى سريرى بلا طعام . وذهبت إلى العمل فى اليوم التالى وأنا شبه مريضة ، ومرت أيامى ثقيلة أفكر فى حالى وفى العرض الذى عرضه على زوجى .. وبعد أسبوعين من التفكير قررت ألا أطلب منه الطلاق وأن استمر معه حفاظا على كرامة الأسرة وحرصا على مشاعر ابنى وتظاهرت بالقوة والاستهانة بالأمر وازددت استغراقا فى العمل لأنسى مشكلتى لكنى كلما تذكرت الأيام السعيدة التى عشتها معه .. وتذكرته وهو يعلمنى حقائق الحياة ثم وهو يشجعنى على العمل والتقدم فيه ونزهاتنا البريئة فى الأيام الخالية .. ثم أتذكر حالى وما وصلت إليه من وحدة وافتقاد للزوج والحبيب والأستاذ فأنهار وأبكى وفى أحيان أخرى أتذكر أن لى « ضرة » تسعد بزوجى ويسعد بها فتشب النار فى جسمى .. وأفقد سيطرتى على نفسى وأشد شعرى من الغيظ فهل رأيت وكالة مؤسسة على سن ورمح ترأس أكثر من مائة موظف ولها ضرة ؟.

وهل أخطأت حين قبلت الاستمرار معه ولم أطلب الطلاق لقد مر على قرارى هذا ستة شهور إلى الآن لم أهنأ فيها بنوم ولا براحة ولولا مشاغلى وحياتى الاجتماعية فى العمل لجنتت وزوجى يحرص على عدم جرح مشاعرى

ولكني أحس أنه بعيد عني وبينه حواجز عالية فهل ترى أنني أخطأت في قبول هذا الوضع وكيف يشجعني على التفاني في العمل ثم يجاسبنى على العمل بنصيحته وعلى النجاح الذى حققته بفضلته ؟ وماذا يريد منى أكثر مما قدمت وسنواتنا معا مرت كلها بلا مشاكل ولا أزمات ؟.

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : يريد الرجل من زوجته يا سيدتى أن تكون « زوجته » أولا ثم أى شيء آخر بعد ذلك ! لقد علمك حقائق الحياة كما تقولين وشجعك على العمل والنجاح لكنك تجاوزت باعترافك الخيط الرفيع بين الطموح المشروع للزوجة فى عملها وبين دورها كزوجة تشارك زوجها حياته وأفكاره وأوقاته .. فاختلطت عليك الأوراق .. وانفصلت معنويا عن زوجك منذ فترة طويلة بغير أن تشعرى . وغابت عنك حقائق كثيرة .. فغاب عنك أن زوجك ينتظرك .. وأنه مل الانتظار وأنه قد تجاوز بعد صبر طويل الاحتجاج الصامت إلى الاحتجاج العلنى .. فتزوج !.

لقد بحث عنك زوجك يا سيدتى طويلا ولم يجدك .. ولأنه رجل جاد فلقد رأى أنه بلا زوجة ويحتاج إلى زوجة فتزوج .. فإن كنت ألومه على شيء فعلى أنه لم يكن كالعهد به صريحا معك فى هذا الأمر .. ولم ينبهك فى الوقت المناسب إلى أنه لم يعد يحتمل انشغالك عنه وعلى أنه لم يحاول جديا استعادتك إليه من عملك ومشاغلك .. ولم يندرك مرة ومرات إلى خطورة استمرار هذا الحال قبل أن يقدم على خطوته كما لم يبلغك بنواياه قبل أن يقدم على الزواج ويخبرك بين الاستمرار وبين الانفصال ولو فعل كل ذلك لما كان ملوما فيما فعل !.

فأنت فعلا قد انصرفت عنه إلى طموحك وإلى التحدى الذى قبلته فى عملك وأجهدت نفسك فى مواجهته وليس فى اهتمام الإنسان بعمله وفى تفانيه

فيه ما يعيبه .. بل هو من مزاياه بكل تأكيد ولكن بشرط ألا يكون ذلك على حساب واجباته الأساسية الأخرى .. وأى واجب أحق بالأداء من واجب الزوجة تجاه زوجها وابنها وأسرتها؟ وأى معنى للزواج حين يفترق الزوج وزوجته وهى معه تحت سقف واحد وحين تمر الشهور بل والأعوام وهما لا يلتقيان ولا يتناجيان ولا يتشاركان فى شئون الحياة ولا يبدد كل منها وحشة الآخر؟. إن التوفيق بين الطموح الشخصى والتفانى فى العمل وبين الحياة الخاصة أمر ليس مستحيلا لكن بعيدى النظر هم وحدهم الذين يحرصون عليه لأنهم يعرفون حقائق الحياة ويعرفون جيدا أنه لا قيمة للطموح ولا المناصب ولا المال .. ولا للوجاهة الاجتماعية ولا لأى شىء والإنسان تعيس فى حياته الخاصة ووحيد داخليا رغم زحام الآخرين حوله .

ولقد غاب عنك هذا الدرس يا سيدتى فى السنوات الأخيرة من حياتك فدفعت ثمنه غاليا من سعادتك الشخصية . لكنك لم تخسرى المعركة نهائيا على أية حال ... فأنت شخصية صلبة ذات إرادة قوية ولقد قبلت التحدى فى حياتك العملية وواجهته باقتدار فلما لا تقبلينه أيضا فى حياتك الخاصة ! وتواجهينه بنفس الاصرار؟ إنك تستطيعين إستعادة زوجك الذى تربطك به وتربطه بك علاقة العمر والروابط العديدة ... لو تذكرت فقط أنك فى بيتك زوجة وأما وامرأة أولا وقبل كل شىء ولست وكيلة مؤسسة ولا وكيلة وزارة . لأن الرجل يا سيدتى لا يرى فارقا بالمرءة بين وكيلة الوزارة وبين وكيلة المدرسة الابتدائية فى علاقته الخاصة بها ... وهو كزوج يرى فى شريكة حياته زوجة وامرأة وأما ورفيق حياة قبل أن تكون أى شىء آخر ، أما وظائفها وألقابها فلتكن ما تكون خارج حدود علاقته بها وخارج حدود بيته وعالمها الصغير . فلم لا تراجعين نفسك .. وتصلحين من شأنك .. وتقتربين من زوجك

ليستعيد فيك الزوجة الغائبة .. والحبيبة الأولى .. إننى أتصور أن علاقتكما أعمق من هذه الأزمة العابرة التى يمكن أن تنتهى بعودة زوجك كاملا إليك .. وأتصور أنكما سوف تعبران هذه المحنة الطارئة بقليل من الإنصاف منك لنفسك أولا قبل زوجك .. وبقليل من المهارة والإرادة القوية التى يستفزها التحدى فتنهض لمواجهة وتنجح دائما فى تحقيق ما تريد فلم لا تخوضين هذه المعركة الجديدة يا سيدتى متسلحة هذه المرة بدروس ثمينة من هذه التجربة الأليمة ؟.

صورة تذكارية

أكتب لك يا سيدى فى إحدى مناسباتى العائلية لأحكى لك قصتى لعل فيها ما يفيد الآخرين . فبذ سنوات طويلة كان أبى موظفا بسيطا بالحكومة تزوج من والدتى وأنجب منها ابنتين وولدا هو أنا ، وقبل أن أتم عامى الثانى رحلت أمى عن عالمنا فتزوج أبى بعد فترة من سيدة ريفية بسيطة أنجبت له ٥ بنات فى ٥ سنين وهكذا وجدت نفسى حين بلغت سن الصبا ولدا وحيدا على سبع فتيات ووجدت أسرتى المكونة من عشرة أفراد تعيش فى شقة صغيرة من حجرتين وصالة تغالب قسوة الظروف وقلة الدخل وحين تزوجت أختى الكبرى كادت الأسرة تتوقف عن الحياة من التقشف ووطأة التكاليف ، ثم أحيل أبى إلى المعاش بعدها بعام واحد فأنخفض الدخل إلى حوالى النصف وأصبحت الحياة أشد مرارة .

وزعم قلة الدخل وكثرة الأعباء فلقد كان أبى مصمما على تعليم أبنائه ليجدوا لأنفسهم موطئ قدم فى زحام الحياة . ولم تكن ظروفنا تسمح لنا بترف الرسوب فى المدرسة لهذا واصلنا تعليمنا تحت ضغط ظروف لا ترحم حتى حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير رشحنى للالتحاق بكلية الطب -وهنا توقفت قليلا لأفكر.. كلية الطب .. ومن أين لى بنفقات الكتب والدروس الخصوصية فيها . وهل أستطيع أن أعتمد فيها على نفسى وحدها كما

اعتمدت عليها في المراحل السابقة ، وأقنعت نفسي بعد جهد بأنى أستطيع ذلك فعلا فالتحقت بكلية الطب في مدينتى الساحلية ، لكنى أكتشفت بعد قليل كذب أوهامى ، فلم أستطع الحصول على بعض الكتب حتى نهاية السنة .. وتعذر على متابعة بعض العلوم بدون مساعدة خارجية ولم أجد طبعاً ملماً واحداً لأدفعه ثمناً لدرس خصوصى فضلاً عما وجدت نفسى فيه من غربة داخل مجتمع الكلية بمظهرى البائس وبملابسى التى يرجع تاريخ بعضها إلى المرحلة الإعدادية ، وهكذا رسبت فى أول سنة لى فيها رسوباً فاحشاً ، وانطويت على نفسى حزينا لمدة ثلاثة أيام أشفق على خلالها أبى وإخوتى وهم يعرفون مرارة الظروف فلم يلمنى أحد ، وبعد تفكير طويل وجدت أننى أحتاج لكى أنجح إلى العمل لكى أوفر لنفسى أثمان الكتب وإلى تقسيم وقتى بحيث لا يؤثر عملى على دراستى فبدأت من شهور الصيف أعمل واستذكر دروسى معاً ، وكان العمل الذى اخترته بسيطاً للغاية وقد بدأ بثلاثة جنيهات اقترضتها من أبى ، فصحوت فى الفجر وذهبت إلى منطقة الملاحات واشترت من الصيادين « شروة » سمك يسارياً وضعتها فى كيس كبير ثم رحت أطوف على بيوت الأحياء القريبة لأبيعها بالقطاعى للأسر لتستخدمها كطعام للبط والدجاج . ولم يسفر اليوم الأول عن ربح يذكر ، وفى اليوم الثانى شكوت للصيد الذى اشتريته منه بالأمس ذلك وشرحت له ظروفى فقال لى متألماً إنه ظن أنى اشتريته لأسرقى فأعطانى السمك بسعر المستهلك ، لكن ما دمت اشتريته كوسيلة للرزق فسوف يخفض لى السعر ويوصى زملاءه أيضاً بذلك ، وأعطانى فى هذا اليوم السمك بنصف سعر الأمس تقريباً ، وهكذا بدأت رحلتى « كتاجر » سمك صغير على باب الله وبعد أسبوع رددت لأبى القرض الذى اقترضته منه وبعد شهرين بدأت أمد أسرقى ببعض القروش الصغيرة ،

وجاء العام الدراسي وانتظمت في الدراسة ولم يتغير في نظامي شيء سوى أن أعود للبيت في الصباح لأبدل ملابس بائع السمك بملابس طالب الطب وإن كانت لا تكاد تفرق كثيرا عنها ! ونجحت في السنة الاعدادية بصعوبة ، وفشلت في السنة الأولى ثم نجحت في العام التالي ولحقت بي إحدى شقيقتي في نفس الكلية وأنا مازلت في السنة الثانية ، ووجدت عائد المهنة لا يسعفني فضلا عن طول المشوار إلى الملاحات في الفجر وقررت أن أبحث عن عمل آخر أكثر إيرادا وذات يوم كنت عائدا من مشوارى الصباحي فوجدت أمامي مخزنا لأناييب البوتاجاز والعمال يضعون الأناييب على عربات تروللي صغيرة وينصرفون بها . وبلا تفكير وجدت نفسي أتقدم إلى صاحب المخزن وأسأله عما إذا كان يريد عاملا جديدا فتفحصني برهة ثم قال لي : من أنت يا ابني ؟ فعرفته بنفسى وأخرجت له بطاقتي الشخصية وبطاقة الكلية فتفحصها باستغراب ثم قال لي ، إنه لا يستخدم إلا من يعرفه شخصيا من العمال لأنه يسلم كلا منهم عربية تروللي ويضع أناييب لذلك فهو يخاطر إذا فعل ذلك معى ، لكنه مع ذلك يتوسم في الأمانة لذلك فسوف يستخدمنى ابتداء من الغد « ورزقى ورزقه على الله » !.. فاندفعت أصافحه بشدة وأهزئده وأشكره من كل قلبي وهو يضحك ويستغفر الله وفي صباح اليوم التالي كنت أقف أمام باب المخزن أنتظره حتى جاء ، وجاءت عربية البوتاجاز ووزع على كل منا نصيبه ورحت أدفع الترولي أمامى وأطوف على البيوت وقد ربطت الأناييب بسلاسل حديدية في العربة ، وبعد أن حددت لي المنطقة التي أعمل بها فأدخل أول عمارة وأطرق بالملك على الأناييب ، فتفتح أبواب الشقق ويتعالى النداء على فأحمل الأنوية على كتفى وأصعد وأتولى فك الأنوية الفارغة وتركيب الجديدة وأقبض الثمن وأنزل وتفرغ حمولة الترولي فأعود مسرعا إلى المخزن

لأحضر حمولة جديدة وهكذا واستمرت في هذا العمل أربع سنوات تحسنت خلالها ظروفى وظروف الأسرة قليلا فاشترت الكتب لكن مظهرى لم يتحسن وربما ساء رغم أنى كنت أحرص على ارتداء الأوفورل فوق ملابسى فى المخزن ثم أخلعه بعد انتهاء العمل وأحمل كتبى وأذهب إلى الكلية .

ولأن للجسم طاقة لا يستطيع تجاوزها ، فكثيرا ما كنت أبدو خلال الدروس العملية بالكلية التى تمتد أحيانا إلى ما بعد الظهر منهكا فاقد الحيوية واستلقت ذلك نظر زميلة لى بالكلية كانت رقيقة وجميلة ومهذبة دائما فوجدتها ذات يوم تقول لى : « أنت مالك مهبدل وناييم على نفسك دائما كده ؟ » ثم أحست بالخجل بعدها وحاولت الاعتذار فهونت عليها الأمر فلقد وجدت فى سؤالها رغم قسوته نوعا من الاهتمام لى سعدت به على عكس ما توقعت هى ، ولست فى حاجة لأن أقول لك إننى حتى هذه اللحظة وكنت فى السنة الرابعة من الكلية لم أكن قد تنهيت بعد إلى أن فى الكلية زميلات .. أو أن فى الحياة فتيات عدا أخواتى ، فأنا مشغول بعملى الشاق وبدراسى وبظروف حياتى عن مثل هذا الترف لذلك فقد سعدت جدا باهتمام هذه الزميلة واطمأنتت إليه وأصبحت كلما لقبها أحييها وأتبادل معها الحديث وواصلت العمل والدراسة .. وازدادت ثقة صاحب المخزن فى فأصبح يعطينى عربة بأربع عجلات تتسع لحوالى عشرين أنبوبة وخصص لى صبيا صغيرا يخرج معى ليحرس العربة حين أحمل الأنابيب إلى الأدوار العليا ، ولم يعد يضايقنى شىء فى هذا العمل سوى تحكم بعض بوابى العمارات وإصرارهم على عدم السماح لى بحمل الأنابيب بالمصعد وتمسكهم بأن يكون التسليم ولو للدور العاشر عن طريق السلم المرهق .

وذات صباح حملت أنبوية بوتاجاز إلى شقة فى الدور الخامس من عمارة

فاخرة جديدة أضافها صاحب الخزن إلى منطقتي بعد أن تركه أحد العمال وسافر للعراق فدخلت إلى المطبخ وفككت الأنبوبة الفارغة وركبت الجديدة وأجريت لها الاختبار التقليدي وغادرت الشقة بسلام وحملت الأنبوبة الفارغة على ظهري ومددت يدي إلى ربة البيت لأتسلم الأجرة فوجدت إلى جوارها فجأة زميلتي بالكلية إياها والتقت عيناي بعينها ، في لحظة خاطفة .. فتأكدت من أنها عرفتني رغم الأوفول المشحم والمنديل الذي أربط به رأسي ، لكنها لم تبد أى انفعال وأسرت أنا أهول على السلام .. وأنا لا أكاد أرى طريق من الضيق والهجم ووقفت على باب العمارة لحظات حتى تهدأ أنفاسي ، ثم ساعدت الصبي في دفع العربة وأنا شبه غائب عن الوعي .. والخواطر تتدافع داخل ماذا ستفعل؟ .. هل ستدعي سري في الكلية ويتغامز الطلبة عليّ ويهزثون بي .. وهل سترحب بصدائقي بعد ذلك أم ستأني غير جدير بها؟.

وعند العمارة التالية حاولت أن أرفع أنبوبة مملوءة لأدخل بها العمارة فوجدت ذراعي تحوناني فعدلت عن ذلك ، وأدركت العربة إلى طريق الخزن وأعتذرت لصاحبه بأني مريض وحاسبته وأنصرفت إلى بيتي .

وأضيت في البيت ثلاثة أيام لأذهب خلالها إلى الكلية ولا أكاد أنام .. وبعد يومين ساءلت نفسي لماذا كل هذا الضيق وأنا لا أتحمل من ظروف أمامي أى أحد .. ووجدت الإجابة واضحة كالشمس أمامي .. لأنني غارق بغير أن أدري في حب هذه الزميلة الفاضلة حبا صامتا يملك على عقلي وكياني وأتطلع إلى مستقبل أفضل أنقلب فيه على صعوباتي وأصبح فيه جديرا بها .. لكن ما حدث قد هدم هذه الأحلام .

وبقوة الألم وحدها شققت طريقى إلى الكلية في اليوم الرابع وأنا أتحسب

لكل نظرة من زميل أو زميلة فوجدت العيون خالية من أى تعبير ثم جاءت هى بنفس النظرة الهادئة المهذبة التى عهدتها فيها من أول يوم وقالت لى بلهفة : أيت أنت أريد أن أتحدث معك وانتحت بى جانبنا من الكلية وسألتنى بجنان عن قصتى فوجدت نفسى أحكى لها كل شىء ، وعندما انتهيت كانت نظرة الاحترام تطل من عينيها وهى تؤكد لى أننى شاب مكافح شريف وأنها تسمى لنفسها انسانا مكافحا أميناً مثلى ، وأنها لا تعترض على عمل البوتاجاز فى شىء إلا فى أنه مرهق ويسلبنى معظم طاقتى على الدراسة والاستذكار لذلك فهى تفضل أن أبحث لنفسى عن عمل أقل مشقة .. واختتمت حديثها قائلة : وسوف نبحث عن هذا العمل معا ! .

يا إلهى لماذا لا تأتى السعادة غالبا إلا بعد مكابدة العذاب !!! لقد عشت ثلاثة أيام فى الجحيم .. فإذا بكل آلامى تذوب فجأة وأنا أسمع هذه الكلمات السحرية .. وأقبلت على الحياة من جديد وواصلت العمل فى البوتاجاز لمدة شهرين فقط بدأت بعدها أعمل كمدرس خصوصى لطلبة الاعدادى فى المنازل والمساجد ، ورغم انخفاض الدخل فلقد كان ما يأتى به هذا العمل خير معين لأسرتى ولى ، وساعدنى بالفعل على اعطاء جهد أكبر لدراسى ، وتخرجت فتانى من الكلية قبل بعام ولم تنقطع عنها ولا عنى وتقدم لها خطاب كثيرون رفضتهم جميعا وشجعتنى على إنهاء دراسى وتخرجت بالفعل وعادت فشجعتنى على التقدم لأسرتها وأنا مشفق من ظروفى ومن الرفض لكنى استجبت لها وتقدمت وليتنى ما فعلت ، فقد سمعت كلاما كورى جسدى وقلبى بالنار ، وخرجت مهزوما مدحورا ولم أشأ أن أحملها ما لا طاقة لها به ، فانسحبت من حياتها ومن المدينة كلها وطلبت نقل سنة الامتياز الخاصة بى إلى إحدى المستشفيات فى أقصى الصعيد ، وحملت ملابسى القليلة وسافرت إلى

هناك ومضت الشهور ثقيلة مريرة وأنا أتابع أخبارها عن طريق شقيقتي طالبة الطب ، وانتهت سنة الامتياز وبدأت سنة التكليف فى الصعيد وأفرغت كل طاقى فى العمل وفى رعاية أسرى على البعد فكنت أرسل إليها معظم ما أتقاضاه .

ووجدت فى هذه المدينة الصغيرة البعيدة سلواى عن فتاى التى لم أحب سواها وافتتحت عيادة صغيرة بعد عامين جعلت منها مسكنى وعملى ، وعرفت وأنا هناك أن فتاى قد أرغمت على الزواج من رجل أعمال « من بتوع اليومين دول » وأنها غير موفقة معه وأن حياتها جحيم لا يختلف عن جحيم حياتى .. ومضى عام آخر ونفسى لا تسلوها ولا تغيب عنى صورتها وفى الساعة الرابعة من مساء ذات يوم كنت جالسا فى غرفة الكشف بالعيادة استعد لاستقبال المرضى حين فتح الباب ودخلت سيدة رفعت رأسى إليها فإذا بها فتاى بلحمها وشحمها .. وقفزت أرحب بها وجلست تروى لى بدموعها قصتها ، فقالت لى أنها حصلت على الطلاق بعد حياة مريرة وزواج غصبت عليه تحت ضغط الأهل ، وأنها بحثت عنى بعد الطلاق فى كل مكان من المدينة فلم تجدى حتى عرفت أخيرا مقرى ، وأقنعت أهلها بأن يعطوها حريتها فى اختيار شريك حياتها بعد أن أثبتت التجربة المريرة حقها فى ذلك ، فركبت القطار فى الفجر لترانى .. وتسألنى هل مازلت راغبا فيها وأنها ستعود بنفس القطار بعد ساعة ، فوجدت نفسى أقول لها على الفور : لن تعودى إلى مدينتك إلا وأنت زوجة لى على سنة الله ورسوله وتركتها فى العيادة وخرجت وعدت بعد نصف ساعة ومعى مأذون البلدة وصاحب البيت الذى أقيم فيه وطبيب بالمستشفى الحكومى .. وعقد القران ، وشهد صاحب البيت والصدىق الطبيب على العقد وطلبت منها أن تنهض لتلحق بالقطار ، فقال لى الحاج

صاحب البيت ولماذا تعود كل هذا الطريق في الليل وهي زوجتك أمام الله والناس .. تعاليا معي إلى شقتي لنخاطب أسرتها في التليفون ونبلغها بالخبر السعيد ونستأذننا في بقائها معك إلى أن تنزلا معا بعد أيام في اجازة ، وسأعد لكما الشربات وعشاء الزفاف على بركة الله .. وفي مسكنه تم الاتصال التليفوني ووزع الشربات ، وأطلقت إحدى السيدات زغرودة فتساقطت معها دموعي ودموع زوجتي وأحتفت بنا أسرته إلى أن نزلنا إلى مسكننا لنرشف السعادة التي حرمتنا منها بلا ذنب ونهجم إلى السكنية بعد طول عذاب .

وبالفعل سافرنا بعد يومين واسترضينا الأهل وباركوا زواجنا وسعدت به أسرتي وعدنا إلى البلدة الطيبة التي وجدت فيها مستقبلي ونقلت زوجتي إليها ، ووجدنا بعد شهر شقة أخرى لسكننا ، وابتسمت لنا الدنيا ، أخيرا وتخففت من كثير من الأعباء فتخرجت أخواتي وأصبح لكن منهن حياتها . وكانت المناسبة العائلية التي أوحى إليّ بالكتابة إليك هو عيد الميلاد الثالث الذي احتفلنا به أمس لطفلتنا الوحيدة ثمرة الحب والعذاب « وفاء » .. فلقد وقفت مع زوجتي وبيننا طفلتنا لنلتقط صورة تذكارية لنا ، فوجدتني فجأة غارقاً في الذكريات أستعرض شريط حياتي من « شروة السمك في الفجر إلى سنوات البوتاجاز إلى سنوات الحب اليائس إلى الهزيمة والاندحار إلى اجترار الآلام في بلدة بعيدة .. إلى عودة الحب الذي توجناه بالارتباط وبالطفلة التي اخترنا لها إسم وفاء !! » .

وقررنا أن نكتب إليك هذه الرسالة ، لعل البعض يجدون فيها ما يساعدهم على تحمل ظروفهم وما يحفزهم على ألا يفقدوا الأمل دائماً في غد أفضل يتحقق بالكفاح والإرادة والحب فنحن مازلنا نكافح لتحسين ظروفنا ، لكن الكفاح في ظلال الحب أهون كثيراً منه في ظل الشقاء

والتعاسة .. وهذا ما أردت أن أقوله لقرائك والسلام ..

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لقد سعدت بنشر رسالتك هذه رغم أنها لا تحمل مشكلة ولا تطلب رأياً .. لأن فيها فعلاً ما يفيد الآخرين ويهدئ المشاعر ويبعث الأمل في النفوس ، فليس برسائل المعذبين وحدها نتعلم الحكمة وإنما برسائل السعداء أيضاً نثرى تجاربنا الإنسانية ونفهم أسرار الحياة ، ولو سطر كل إنسان تجربته في الحياة على الورق سعيدة كانت أم شقية لأضافت بكل تأكيد إلى معرفة الآخرين بالنفس البشرية الكثير .. وفي الحق أنه ليست هناك دائماً تجارب شقية أو تجارب سعيدة من البداية إلى النهاية ، لأن الحياة مزيج عجيب من الاثنتين ولا بأس بذلك لأنها سنة الحياة ، ولأن المهم هو أن يسقط المطر وينبت الخير في النهاية لمن بذر الحب والوفاء والعطاء للآخرين كما فعلت . بل ولا عجب أيضاً في أن يعود إليك نصفك الغائب حتى ولو ضل الطريق إليك ثلاث سنوات ، لأن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان ولأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون !! .

إن أجمل ما في رسالتك يا صديقي هي أنها تخلو من نغمة الرثاء للنفس التي تسود رسائل كثيرين من القراء ربما لم يكابدوا بعض ما كابدته في حياتك من كفاح ومعاناة . وأروع ما فيها هي أنها تقول للآخرين بالتجربة الصادقة أن الإنسان قادر دائماً على أن يحقق لنفسه بعض ما تصبو إليه بالكفاح وبالإرادة والصبر ، فلقد استطاع الإنسان أن يتغلب على كوارث الطبيعة ويروض الوحوش ويستأنس الجوارح بقدرته على الكفاح والتكيف وتلمس أسباب السعادة في أبسط الأشياء ، في حين عجز الديناصور الذي تفوق قوته قوة الإنسان عشرات المرات ، عن أن يغالب ظروفه ويتكيف معها فانقرض وانذر وبقى الإنسان ينسج كل يوم قصص حبه وكفاحه ويبني أعشاشه كل يوم وإلى

أبد الآبدين إن شاء الله .

لقد كانت رسالتك هذه يا صديق نسمة رقيقة تنسمتها وسط الأنين الذى ينبعث من مئات الرسائل الأخرى .. لكن لماذا ياربى لا تخلو حتى رسائل السعداء مما يثير الشجن ؟ .. ولماذا تخفق قلوبنا معهم وهم يتحدثون عن معاناتهم حتى إذا ما وصلوا إلى لحظة السعادة والتنوير التى يتبدد فيها الظلام ويجمع الشمل .. وجدنا العين تندى معهم فى أفراحهم .. كأنه لا بد دائماً مما يثير الأحزان ولو فى لحظات السعادة !!! .

المتفوق!

أنا سيدة في الثانية والثلاثين من عمري تخرجت منذ ٨ سنوات في إحدى الكليات العلمية وأعمل بوظيفة محترمة وبمرتب لا بأس به . وقد بدأت رحلتي في الحياة في ظل أبوين عطوفين لم ينجبا غيري . وكان أبي مهندسا أمضى حياته في خدمة الحكومة قنوعا شريفا فعشنا حياة هادئة لا ترف فيها ولا ضيق ، وقد جعل أبي هدف حياته أن يحسن تعليمي وتربيتي فأدخلني المدرسة الفرنسية منذ صغري ، ولم يبخل على بشيء في سبيل تهذيبي وتقويمي ، وكان يقول لي أنت ثروتي الوحيدة التي خرجت بها من الحياة ، ولقد أحببته وأحببت أُمي كثيرا ونشأت في جو أسرى صالح . ومصت بنا الحياة هادئة إلى أن التحقت بالجامعة وتقدمت فيها حتى السنة الثالثة وفي هذه المرحلة من العمر تعرفت بزميل لي في الجامعة كان ينافسني في التفوق بالكلية ، فكان ترتيبني الأولى على دفعتي في السنة الأولى وكان ترتيبه هو الثاني وفي السنة الثانية جاء هو الأول وكنت الثانية ، فلما جاءت السنة الثالثة تقدم مني ذات صباح في الكلية ، وقال لي بدون مقدمات أنه آن الأوان لكي تتعرف جيدا ، لأن خط كل منا في الحياة متشابك مع خط الآخر !! .

ورحبت بالتعارف به ، فلقد كنت أشعر بأننا سوف نلتقي ذات يوم رغم أننا لم نتبادل سوى كلمات التحية في مناسبات متفرقة وسألني عن الطريقة التي

نتعرف بها فقلت له إن الطريقة الوحيدة التي أعرفها هي أن يقوم بزيارتي في البيت لأقدمه لأبي وأمي كزميل لي لأني تعودت على أن أفعل كل شيء في النور .. وألا أخفي شيئا عن أبي وأمي ، فتردد قليلا ثم قبل دعوتي له لتناول الشاي عصر اليوم التالي وأعطيته العنوان ، وعدت للبيت فرويت لأمي وأبي كل شيء وفي الموعد جاء زميلي واستقبله أبي بلا تكليف ورحب به وتحدث معه عن الدراسة والكلية ورحبت به أمي بطبيعية وقالت له إنها تعرف أنه ينافسني في التفوق وأنها سعيدة بذلك لكي يحفزني على التفوق دائما . وأمضينا ساعة في جلسة عائلية هادئة وانصرف زميلي سعيدا ، وفي اليوم التالي سألتني عن رأي أبي وأمي فيه فقلت له ما قالاه وهو أنه شاب ذكي مجتهد ، فسألتني عن رأيها في « هندامه » لأن ملبسه ليست غالية في رأيه ، فقلت له إنها لا يقيان الناس بملابسهم وإنما بأخلاقهم واستقامتهم ، فسعدت جدا بهذا الكلام وبدأ يزورني كل أسبوع أو أسبوعين .. ويزور أبي في مكتبه وأحب أبي كثيرا وأحبه أبي الذي لم ينجب ولدا ولم تمض أسابيع حتى فاتحني بحبه ورغبته في خطبتي وخوفه من أن يرفضه أبي لأنه من أسرة صغيرة وأمامه سنوات طويلة لكي يستطيع أن يبني حياته ، فشجعتني على مفاخرة أبي وطلبت منه أن يشرح له كل ظروفه بلا مداراة ، وجاءنا عصر ذلك اليوم واتحى بأبي جانبا في الصالون وتحدثت معه طويلا وأبي يسمع له بعطف .. ثم انتظر كلمته فنادى أبي أمي وناداني .. وجلسنا فقال موجها الحديث لأمي : اشرحي « لفلان » كيف كان حالي حين تعرفت بك وتقدمت لخطبتك وكيف ساعدني أبوك رحمه الله في بداية حياتي ، فانطلقت أمي تحكي قصة زواجها وكفاحها وتنقلها بين مدن الأقاليم إلى أن استقرا في القاهرة وأثنا هذه الشقة .. إلخ . وأنها حديثها بأن الحب يصنع المعجزات وأن سنة الحياة أن يبدأ الإنسان

صغيراً ثم يكبر وأن يساعد الكبير الصغير في بداية مشواره .
ولم يتردد أبى في الموافقة لأنه قد سألنى حين أبلغته بالأمر عن مشاعرى
تجاهه ومدى رغبتى فيه فأجبتته بالصراحة التى تعودتها معه وشرحت له كل
ظروفه العائلية .. فلم يتوقف عندها لأنه يحترم كل إنسان مهما صغر شأنه ..
وهكذا جاءت أسرة خطيبى لتخطبنى ورحبت بها أسرتى ولم تشعر بأى
غربة رغم انكماشها وتبهاها ، وكان الأمر الذى أثار تردد خطيبى هو أن أباه
موظف صغير بالابتدائية القديمة ، وأن أمه شبه أمية ، لكن ذلك لم يغير من
الأمر شيئاً وسعدت بخطيبى ولم أخف فرحتى عن زميلاتى وصديقاتى ورحنا
نذاكر معاً ونحضر المحاضرات معاً وظهرت نتيجة السنة الثالثة فكانت الأولى مرة
أخرى وكان هو الثانى ، وقال لى خطيبى ضاحكاً بعدها أنه تعمد ألا يجيب
على إحدى فقرات سؤال فى إحدى المواد لكى يعطينى الفرصة «كجتلمان»
على حد تعبيره لأن أتقدم عليه فى الترتيب ، فثرت عليه وطالبته بالأى يفعل
ذلك فى السنة النهائية لكى لا يضيع فرصته فى التعيين كمعيد فى الكلية وأن
يترك الأمر للحظ والنصيب وحدهما .

وأبدنى أبى فى ذلك وضحك طويلاً لهذه الحكاية .. واعتبرتها أسمى دليلاً
قاطعاً على حبه لى .. ثم جاءت السنة النهائية وبدل كل منا جهداً خارقاً فى
المذاكرة .. وظهرت النتيجة فجاء هو الأول وجئت أنا الثانية .. ولم أحزن
لذلك بل سعدت به لأنها كانت فرصته الوحيدة للتعين فى وظيفة معيد أما أنا
فقد كنت لا أجد نفسى فى التدريس وأتمنى أن أعمل عملاً آخر .. ومع ذلك
فلم يعين لاهو ولا أنا بالكلية ، وإنما عينوا الثالث والخامس !! وثار خطيبى
ثورة عارمة وسب ولعن ونوى أن يرفع قضية على الكلية ، فحاول أبى تهدئته
والتخفيف عنه بأنه سيسعى لتعيينه فى هيئة علمية لها نفس مكانة الجامعة

وبنفس الكادر الجامعي ، وفعلا تمكن من تعييننا معا في هذه الهيئة ، وبدأنا حياتنا العملية وانتويننا معا أن نستكمل دراساتنا العليا .. وبعد شهور من التعيين رحل أبي عن عالمنا في هدوء .. لفظ أنفاسه فجأة وهو جالس إلى مكتبه قبل أن يصل إلى سن المعاش بعامين كأنه أراد أن يطمئن على أنه قد وضعنا على بداية الطريق ثم يتركنا لنستكمله معا ، وعرفت الحزن لأول مرة في حياتي .. وخلت حياتنا من أبي الباسم العطوف ، ووقف خطيبي إلى جوارى في هذه المحنة وخفف عنا الكثير منها .. وبعد أن انتهت أيام الحداد فاتح أمي في أن نعجل بالزواج .. فعرضت عليه أن نتزوج معها في شقتها لأنها أصبحت خالية عليها بعد رحيل أبي ، وأيدت اقتراح أمي بشدة وتم الزواج بعد احتفال بسيط ، وأحسست أن الله قد عوضني عن فقد أبي بأب وزوج لا يختلف عنه .. وابتسمت أمي لأول مرة بعد أن وجدت في زوجي الابن ورجل الأسرة بعد غياب أبي .

وأنجبت طفلة جميلة حولت هدوء بيتنا إلى ضجيج لذيذ وتقدم زوجي في عمله بخطوات سريعة ، وتقدمت معه ، وعدنا إلى مشروعنا القديم للدراسات العليا ورجعنا للمذاكرة سويا والسهر معا ، وحصلنا معا على الماجستير في فترة متقاربة وسجلنا للدكتوراه ، وفي هذه الفترة بدأ حاسي للدراسة يقلل لأنني شغلت بعملى وبيتي وابنتى وأمى وبزوجي قبل كل شيء ، وقلت له إنني سأتفرغ لرعايته خلال فترة إعداد الدكتوراه على أن أستكملها أنا فيما بعد ، لأنه كان شديد الإصرار على الحصول عليها في فترة قياسية ليعمل بالتدريس الجامعي حلمه القديم . وفي أقل من ٣ سنوات ناقش رسالته وحصل على الدكتوراه ولم أكن أنا قد أنهيت نصف رسالتي بعد ..

ولم يتنازل زوجي عن رغبته في التدريس فسعى إلى الانتداب لإحدى

كليات الأقاليم ليدرس بها وأصبح يغيب عنى ثلاثة أيام كل أسبوع ، ولم اعترض على ذلك بل سعدت له ، لكنى وجمت حين جاءنى ذات يوم ليقول لى إنه سعى للعمل فى إحدى الجامعات العربية وأنه سيسافر إليها وحده لكى لا أقطع دراستى للدكتوراه وحاولت اقناعه باستطاعتى تأجيلها لعامين لكى أسافر معه .. فرفض بحجة أنى لو سافرت معه سأنصرف نهائيا عنها وهذا ما لا يرضاه ..

وهكذا افترقنا لأول مرة منذ ٨ سنوات .. وغاب شهور العام الدراسى كلها وجاء الصيف فعاد معه وقابلته بكل شوق الزوجة المحبة لزوجها وأصبحت فترة إقامته معنا عيدا ، ومضى عام دراسى آخر ثم عاد محملا بالهدايا .. وأشرفت حياتى من جديد وفى هذه الإجازة طالبته بالعودة لكليته بالجامعة الاقليمية ، خاصة وأن حياتنا معقولة وليس لدينا سوى ابنة واحدة نستطيع تربيتها أفضل تربية ، لكنه قال لى إنه شقى فى حياته كثيرا ويريد أن يوفر لابنته كل ما يكفل لها الحياة الراقية المريحة ، وسافر مرة أخرى ثم عاد فى اجازة العام الثالث ومن اللحظة الأولى التى رأته فيها أحسست بأن شيئا ما فيه قد تغير ، ففرحته بلقائنا يشوبها نوع من الوجوم ويكاد يشعر بالخجل تجاهى وسألته عما به وألححت عليه فانهار وبكى ثم فاجأنى بآخر ما كنت أتوقع أن أسمع منه فقد قال لى زوجى الحبيب أنه دعى وهو هناك لمساعدة طالبة « وطنية » أى من أهالى البلد الذى يعمل فيه فى رسالتها للماستر فى بيتها ، وأنه استجاب للدعوة أملا فى أن يساعده أبوها فى « تثبيت أقدامه » بهذا البلد على حد تعبيره ، لأن الجامعة تتجه للاستغناء عن « غير الوطنيين » وأنهت بالفعل خدمة عدد من زملائه ، وأن هذه الطالبة مطلقة فى السادسة والعشرين من عمرها ولا تنجب وأنه .. وأنه .. تزوجها !!

هل يتخيل ذلك ؟.. وهل تتخيل حالى حين سمعت هذا الكلام وأنا التى كانت تعد الأيام على وصوله وتشطب على أوراق النتيجة كل يوم وتفرح باقتراب موعد عودته ؟! ! .

هذا ما حدث ياسيدى .. والعجيب أنه بطالبنى بأن أسامحه لأن ضميره يعذبه .. وأنه لن يفرط فى ولا فى إبتته وأن هذا «المشروع» مؤقت وسينتهى فى اللحظة التى تنتهى فيها إعارته ! .

كانت اجازة سوداء .. أمضى كل لياليها ينام فى الصالون ولا يجسر على أن يرفع عينيه فى عيني وكلما نظرت إليه طفرت الدموع من عيني .. وتعجبت كيف هان الحب عليه وأنا التى لم أغاضبه يوما .. ولم يرمنى شرا ، واقتربت عودته .. وجاء يودعنى ويطلب الصفح عنه !! فقلت له كلمة واحدة : الطلاق ! فارتاع كأنه يسمع شيئا غير متوقع وقال لى إنه لا يستغنى عنى فقلت له إذن طلاق الأخرى وعودتك لجامعتك .. أو سفرى معك ، فطالبنى بمهلة ليدير أموره .. وطالبنى أيضا بالأأساق وراء عواطفى ! .

ويبدو ياسيدى أن المصائب لا تأتى فرادى كما يقولون ، فعقب سفره بشهرين رحلت أمى عن الحياة وأصبحت وحيدة تماما بلا أهل ولا زوج وعاد زوجى فى اجازة لمدة أسبوعين ليقف إلى جوارى فى هذه المحنة لكنه رفض العودة النهائية إلى عمله فى مصر وطالبنى مرة أخرى بتحكيم العقل ! .

ومضت الشهور ثقيلة حزينة .. وأنا وحدى فليس لى إخوة ولا أقارب قريون منى سوى خال وحيد يقيم فى مدينة بعيدة وقد جاء عند الوفاة ثم عاد لمدينته .. أما أهل زوجى فكانوا يزوروننى من حين لآخر .. وحين جاء أبوه بعد الوفاة قال لى وهو صادق إنه غاضب مما فعل ابنه لا يقره عليه لأنى طيبة وجميلة وقد وقفت بجواره منذ عرفته ، لكنه لا يملك أن يرغمه على شىء ..

ومضت الأيام ثقيلة حتى فوجئت بزوجي يدخل على ذات يوم بغير أن
يخطرني من قبل بعودته .. وبلا حقيبة سفر كالعادة .. لأكتشف من حديثه أنه
جاء منذ أيام مع زوجته الجديدة ويقمان في فندق ه نجوم يليق بمكانتها ! وأنه
جاء ليراني ويرى الطفلة ويستأذني في أن تزورني « زوجته » لتعرف على وترى
الطفلة التي تحبها كثيرا لأنها تحب الأطفال ومحرومة منهم ، ثم ليشكروني من
أبيه وأمه اللذين رفضا أن يزورا الزوجة الجديدة في الفندق وقالوا له لا تزورها
ولا تزورنا لأننا لا نعرف لك زوجة سوى « فلانة » التي قبلتك وأنت لا تملك
شيئا وحفظتك في غيابك ولم نرمها ولا من أبويها إلا كل خير خلال السنين
الطويلة ! وهذه كلماته هو بنفس الحروف والله ياسيدي .. فرفضت أن تزورني
أو أن ترى الطفلة بالطبع .. وانصرف آسفا .. وظننت أن الأمر قد انتهى عند
هذا الحد .. لكنه عاد من جديد يقدم لي عرضا أغرب وأعجب .. فهل
تعرف ماذا يريد ياسيدي ؟ .. يريد مني ألا أكون « أنانية » وأن أضحي من
أجل سعادة ابنتي .. وأن يأخذ ابنتي معه ليلحقها بالمدرسة الابتدائية لأن
التعليم هناك ممتاز .. لكي تتمتع « بالعز » الذي ترفل فيه « ضرتي » وتتوافر لها
ظروف التربية الراقية على يد مربية سيرلانكية وتتمتع باللعب الأليكترونية
والملابس الفاخرة .. إلخ ! ! وسوف يعيدها إلي في اجازة الصيف لتمضي معي
٣ شهور كل سنة !

ولم أشعر بنفسى وأنا أسمع الكلام .. وصرخت من أعماقي .. يا ظالم حتى
ابنتي تريد أن تحرمني منها بعد أن حرمتني منك ، وبكيت وولولت وطالبته
بالطلاق .. فخرج آسفا وسافر بغير أن يودعني ، وراح يلاحقني بالرسائل من
هناك .. يحاول اقناعي باستمرار علاقتنا « الزوجية » ! وبقبول سفر ابنتي إليه
ويحاول اغرائي أحيانا .. وتهديدي أحيانا أخرى بأنها ابنته ومن حقه أن يضمها

إليه ليوفر لها حياة أفضل ، رغم أن عمرها ٦ سنوات فقط .
وقد احترت في أمرى .. ولم أعد أنام الليل من همومى .. فهل يستطيع
يا سيدى أن يضمها إليه فعلا بحجة الحياة الأفضل قبل السن الشرعية ؟ وماذا
أفعل لو جاء وطلب سفرها معه بقوة القانون وهو أبوها إننى وحيدة وليس
يجوارى أحد أسأله وأستشيريه وأبوه وأمه وإخوته متعاطفون معى لكنهم
لا يملكون له شيئا فإذا أفعل .. هل أستمر فى هذه الحياة .. أم أطلب الطلاق
وأتمسك به .. وكيف أحمى ابنتى من الابتعاد عنى .. وهل أنا أنانية حقا لأنى
أتمسك ببقائها معى وأحرمها بذلك من التربية الراقية كما يقول ؟.

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : عفواً يا سيدتى إذا قلت لك إننى لم أشعر منذ
فترة طويلة بالضيق وبالتقزز من تصرف إنسان كما شعرت بهما تجاه زوجك وأنا
أقرأ السطور الأخيرة من رسالتك الدامية هذه !

إن هذا الرجل يا سيدتى لم يجبك يوما واحدا ولم يستحق أبدا حبك
ولا تضحياتك من أجله بكل أسف . إنه إنسان أنانى شديد الطموح يجيد
الوصول إلى الأهداف بغض النظر عن الوسائل التى يستخدمها وما أنت سوى
« درجة » من درجات الحياة ارتقاها حين كنت أملا بالنسبة له ، وعندما
لاحت له « درجة أعلى لم يتردد فى التضحية بك وارتقاها ولو لاحت له
فرصة أخرى أعلى لقفز إليها لتحقيق تطلعاته .

لقد بلغ به التضليل لتحقيق هدفه أن يحاول انتزاع طفلتك منك واقناعك
بالمناطق المزيّف بأنها تضحية من أجل سعادتها ومن أجل الحياة الأفضل
والتربية الراقية لها حتى أرتج عليك الأمر وساءلت نفسك أهى أنانية حقا أن
ترفضى ذلك ؟.

لا يا سيدتى لست أنانية .. وإنما الأنانى فعلا وحقا هو من يريد أن يحرم

أمّا من طفلتها وطفلة في السادسة من أمها لكي يقدمها هدية لامرأة ثرية لا تقل عنه أنانية « لتلهو » بها في أوقات فراغها ثم تنصرف عنها تاركة إياها معظم الوقت لمربية سيرلانكية أو هندية شبه أمية لكي تسقيها قيمها وسلوكياتها ، فأية تربية راقية هذه ؟ وكيف تفضّل مربية أجنبية مها كانت مؤهلاتها أمّا طبيعية مثقفة مثلك ؟.

إذا كانت زوجته ترغب في تبنى طفلة فلم لم تبحث عنها في الملاجئ وهي كثيرة وموجودة في بلادها وفي كل مكان ؟.

إن كل ما في الأمر هو أن زوجك « الانتهازي » الذي قبل أن يتزوج من أخرى لمجرد أن يثبت أقدامه في الوظيفة مهدرا كل قصة حبكما الطويلة وكل سنوات العمر الجميلة هذه ، يريد أن يطيل من عمر هذا « المشروع » لأطول فترة ممكنة ، وقد استشعر بقرون استشعاره أن زوجته الجديدة راغبة في الطفلة لتعويض حرمانها من الإنجاب ، فسارع لتنفيذ رغباتها ، بغير أن يتوقف لحظة واحدة أمام حقوقك أنت فيها لأن الأثاني لا يتوقف طويلا أمام حقوق الآخرين ولا يعرف سوى تحقيق رغباته هو .. ولولم يكن الأمر كذلك لما جرؤ على أن يقترح مجرد اقتراح هذه الرغبة خوفا من أن يفشل « المشروع » ويطرد من اللجنة التي يتمسك بترابها ! وهو في رأي قصير النظر على عكس ما يتصور في نفسه لأن هذا « المشروع » سوف يطرده إن عاجلا وإن آجلا لأن من طباعه التقليدية القلب وسرعة الملل وكثرة التغيير وعندها سوف يكتشف أنه قد أضاع الحب الحقيقي من يده وأفسد حياته واختار أسوأ نهاية لأجمل بداية بدأها معك .

وما أعجب ما أقرأ أحيانا في رسائل البريد ؟.

أليست هذه هي تقريبا قصة أوبرا مدام بترفلاي ؟ لو لم استشعر الصدق

في كلماتك وأطلع على البيانات والأسماء التي حذفها من رسالتك لانسقت وراء خيالي وتصورت أنك تروين لي مأساة بترفلاي ! ولا عجب في ذلك ؟.. ليس هذا المشهد الغريب الذي عاد فيه زوجك يطالبك بالابنة ليضمها للزوجة الجديدة بحجة توفير الحياة الأفضل لها هو نفس مشهد الزوج الأمريكي الضابط بنكرتون الذي عاد مع زوجته الأمريكية ليطالب زوجته اليابانية بترفلاي بالطفل الوليد ليتربى في حضانة زوجته بنفس حجة الحياة الأفضل في أمريكا ؟.

لقد سلمته بترفلاي الطفل وانتحرت ووجدوا بجوارها خنجرًا منقوشًا عليه هذه العبارة : إذا لم تستطع أن تعيش كريما فمت كريما !.

لكن ذلك قد حدث في الخيال ولأننا نتعامل مع الواقع رغم غرابته فإني أقول لك إن ابنتك من حقلك شرعا وقانونا إلى أن تبلغ السن الشرعية ، وهي كل من بقى لك في الحياة الآن بعد أن خلت دنياك من الاعزاء وآخرهم هذا الغادر فلا تفرطى فيها استجابة لأى ضغط أو انخداعا بأى تضليل ، ولا يستطيع أحد أن يحرملك منها فإن شئت أية مساعدة قانونية فإن لبريد الأهرام من كبار المحامين أصدقاء عديدين سوف يسعدهم بكل تأكيد أن يقفوا إلى جوارك وأن يدافعوا عن حقوقك .

فإذا أردت نصيحتي فإني أنصحك بالألا توقفي حياتك على هذا الزوج الذى يريد أن يجمع كل شيء بين يديه ، ويحفظ بك كرصيد استراتيجي تحسبا لتقلبات الزوجة الجديدة ، وأطالبك بأن تخيره نهائيا بين عودته وتخلصه منها وبين طلاقك منه . فإن أبى ففى المحاكم متسع للجميع والقانون معك ، كما أطالبك بأن تستكلمي رسالتك للدكتوراه وأن تنسى هذه التجربة الأليمة وتواصلى مشوار تفوقك الذى تنازلت عنه من أجل هذا الزوج وسوف تجدين

دائماً من يقف إلى جوارك ومن ينصرك .. وأولهم أسرة زوجك التي تعرف لك
فضلك ومكانتك وتأبى لك الظلم والخداع لأن الدنيا بخير ولأن الفضلاء أكثر
كثيراً من المخدوعين بالدنيا .. حتى ولو بدا لنا ذلك غير صحيح من شدة
الظلام في بعض الأحيان !.

الصّوت الحزين!

أنا سيدة في السادسة والثلاثين من عمري - تقدم لخطبتي منذ ١٧ سنة بالطريقة التقليدية رجل فاضل رأى أهلى فيه أنه ملائم لى فوافقت عليه .. وبدأنا معا مشوار الحياة ، وكان مشوارا جميلا رغم متاعبه فلقد كان موظفا بمرتب صغير وكنت موظفة بمرتب أصغر .. فتشاركنا فى كل شىء . وبعد حصولنا على الشقة بدأ كل منا فى إعداد جزء من الأثاث من مرتبه .. فاشتري هو غرفة النوم والمطبخ واشترت أنا غرفة السفرة والأنتريه .. وتعاوننا فى كل شىء .. وتشاركنا فى كل شىء .. واخترنا كل قطعة فى بيتنا بعد التشاور والمفاضلة بينها وبين غيرها .. وكانت أياماً جميلة أحببته خلالها وأحببني كأننا عاشقان ربطت بينها قصة حب طويلة قبل الزواج .

وعشنا فترة عامين ندفع أقساط الأثاث وحين أوشكت على الانتهاء زففت إليه فى احتفال بسيط .. وبدأت رحلة حياتى الزوجية معه . وبالمعاشرة اكتملت معرفتى لزوجى .. وتعمق حبه فى قلبى .. فلقد وجدته إنسانا مهذباً مسلماً يريد أن « يعيش » .. ويحبنى ويحترمنى .. وتوافقت طباعنا لأنى أنا أيضاً إنسانة مسالمة أريد أن أعيش وقد نشأت فى أسرة ترى أن هدف الحياة هو تربية البنات وإعدادها لتكون زوجة صالحة والحق أنى زوجة شاطرة فى بيتى .. وفى عملى .. وليست لى مطالب خاصة فكل حياتى مكرسة لبيتى وزوجى ..

وأقصى سعادتي حين أصنع لزوجي طعاما ينال إعجاباه رغم بساطته ..، وحين أصل بميزانية البيت إلى نهاية الشهر.. أما زوجي فأقصى سعادته أن يؤدي عمله بما يرضى ضميره وأن يعود إلى عشنا لكي يتفرغ لي بقية اليوم .. فنمضي المساء معاً .. أو نخرج في زيارات عائلية أو نزوات بريئة .

ومر العام الأول من الزواج في سعادة تامة ..، وبدأت أحس بشيء يتحرك في أحشائي وعرفت أنها البشرية بالمولود الذي سيضيء حياتنا ويوثق علاقتنا .. وانتظرت زوجي عند عودته وأبلغته بالخبر السعيد ، وطار فرحاً بالبشرى .. ونهض يؤدي لله صلاة شكر .. ومرت شهور الحمل الأولى بمناجيات المعروفة .. وكانت متاعب لذيدة .. للأم التي تنتظر مولودها الأول .. ، وحدد الطبيب لنا موعد الولادة بعد شهرين .. ونصحني بالمشي وممارسة حياتي بطبيعية .. وبعد يومين من زيارة الطبيب كنت في شقي فأحسست بالآلم شديدة في بطني .. الآلم لم أجربها من قبل تبدأ من ظهري وتصب في بطني .. كان زوجي ساعتها يتفرج على التلفزيون .. فرآني أتألم .. وانزعج وسألني ما بك .. فهونت عليه الأمر وقلت له إنه يبدو أن الطفل يتقلب في بطني .. وأنه لا داعي للارتعاج فاطمأن قليلا وتحاملت على نفسي لكيلا أزعجه .. لكن الآلم تزايد حتى لم أعد أستطيع تحمله فانهرت وانطلقت صرخاتي إلى السماء ولم أشعر بنفسى بعدها إلا وأنا في المستشفى وقد جاء المولود إلى الحياة قبل موعده بشهرين ووضعوه في الحضانه لرعايته .. لكنه لم يصمد طويلا وانتهت حياته القصيرة بعد يومين فقط ..

وخرجت من المستشفى صفر اليدين .. وخيمت سحابة خفيفة من الحزن على حياتنا حاول زوجي أن يخفف منها على .. بالاهتمام بي .. والخروج معي بعد فترة النقاهة كل مساء لتمشي على النيل أو الذهاب إلى السينما ..،

وتراجعت ذكرى المولود الذى لم أراه بعد فترة .. وعدنا لحياتنا العادية وقد ربط الألم الجديد بيننا بروابط جديدة .. وبعد عدة شهور أخرى أحسست بنفس الأعراض الأولى واهتم زوجى هذه المرة بتوفير الرعاية لى من البداية .. وذهبنا إلى الطبيب وطماننى على حالتى .. والتزمت بتعليماته التزاماً حرفياً .. وبدأت أتردد عليه كل شهر ثم كل أسبوعين .. ثم فجأة أحسست بأعراض الولادة قبل موعدها بشهر .. وكنت قد اكتسبت خبرة ثمينة من تجربتى الأولى فنهت زوجى إلى حالتى وأسرعنا إلى المستشفى وتمت الولادة بمعاونة أقل هذه المرة .. لكن المولود كان يحتاج إلى رعايته فى الحضانه أيضاً .. فنقل إليها .. وفى هذه المرة سمحوا لى برؤيته مرة ثم أعادوه إليها .. ثم بعد يومين أيضاً فوجئت بنظرة حزينة فى عيني زوجى .. فنظرت إليه مرتعبة وهممت بأن أتكلم فلم أستطع فأمسك ييدى . وقال لى بصوت حزين .. كل شىء انتهى .. والمهم سلامتكم فتفجرت دموعى كالنهر .. وزوجى يطالبنى بالتجملد لكى أسترد صحتى وأغادر المستشفى .. وغادرتها مرة أخرى وذراعى خالية إلا من السراب ..

وتكررت التجربة الأليمة فى حياتنا .. وبدأت أرى فى وجه زوجى مسحة خفيفة من الحزن تستقر فيه .. رغم محاولاته المستمرة للتظاهر بالمرح .. وعدم المبالاة ..

ولن أطيل عليك يا سيدى فى وصف حياتنا .. لكننى سأقول لك فقط إن هذا المشهد الحزين قد تكرر فى حياتى بعدها ٤ مرات أخرى فى كل مرة يصل المولود فيها إلى الحياة قبل موعده .. ثم يغادرها مسرعاً خلال يوم أو يومين . ولن أحكى لك كل ما عانيته فى كل مرة يخفق قلبى فيها بالأمل حتى اللحظة الأخيرة ثم يتلقى نفس الطعنة بكل آلامها .. ولا كل ما حاولته وجربته

من الوسائل .. حتى لقد أمضيت في الحمل الخامس والسادس ستة شهور مستلقية على ظهري لكي يثبت الحمل ويستقر الجنين . ورغم ذلك جاء قبل موعده .. ورحل أيضا في موعده ! وفي كل مرة يعطيني الطبيب الأمل في طفل أفرح به من المستشفى مثل كل الأمهات فأغادرها وليس معي سوى الفراغ . وفي المرة الأخيرة بذل الطبيب كل جهده طوال شهور الحمل وفي الولادة .. ومع ذلك فلقد كان ما كان ..

إن كل أم تدخل المستشفى لتلد وتستخرج شهادة بميلاد ابنها .. وأنا أدخل المستشفى لألد واستخرج تصريحاً بموارة مولودي التراب ! .
وكل أم ترى مولودها .. وأنا أسمع صرخاته وأنا في غيبوبة البنج كصوت حزين يأتي من بعيد وعندما أفيق لا أراه ، لكنها إرادة الله - ولا معقب عليها .. وبعد المرة الأخيرة قررت أنا وزوجي عدم التفكير في الإنجاب . لكنني كنت أهدأ فترة ثم أجد نفسي تهفو من جديد إلى طفل يعوض تعبي ويخفف دموعي ، وانتظرت حدوث الحمل مرة أخرى فلم يحدث وتوجهت للطبيب فطلب فحوصا وتحاليل عديدة وبدأت رحلة أخرى طويلة .. انتهت بكلمات صارمة من الأطباء أنني لن أحمل مرة أخرى .. وأنه لا أمل لي إلا في علاج حديث في الخارج نظرا لصعوبة الحالة ..

وخرجت من المستشفى وقد تعلق أملى بحلم مستحيل .. وبعد تفكير طويل قررت أن أعنى زوجي من مسئوليتي وأن أعطيه حقه في أن يكون له طفل يسعد به فطلبت منه الطلاق ، فرفض بشدة وغضب مني لهذا التفكير .. وطلبت منه أن يتزوج من أخرى وأن أبقى زوجة له على أن أعود لأعيش في بيت أبي كما كنت قبل الزواج .. وعلى أن أعطيه تنازلا عن كل شيء في الشقة لكي يستطيع أن يبدأ حياة جديدة فيها تعوضه عما عاناه معي من آلام ومن

إحباط وكتبت له هذا التنازل فعلا فرفضه ورفض هذا العرض لشدة إيمانه بالله ولحبه لى ، وقال لى بصدق اسمعى يا فلانة أنت زوجة طيبة ومخلصة .. ولقد بذلت كل ما فى وسعك لكى تحققى أمل الإيجاب .. وأرهقت نفسك بأكثر من اللازم . وعرضت حياتك للخطر ست مرات .. لإسعادى .. فكيف تنتظرين منى أن أكافئك على ذلك بالانفصال أو بالابتعاد عنك والزواج من أخرى .

ورغم أحزاني فلقد أسعدتني كلماته وزادتني حبا واحتراما له .. لكن النفس لا تهدأ يا سيدى فن حين إلى آخر استرجع ذكريات التجارب الأليمة .. وأنظر إلى بيتي الهادئ وأقول آه لو اكتملت السعادة بطفل محبوب بين جدرانها ، ويبدد وحشته .. ويمسح أحزاني وأحزان زوجي التي يخفيها عنى لكنى أحس بها وتمزق لها وأنا أرى تطلعه الصامت إلى أطفال الآخرين .
سيدى ألا من أمل ؟.

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : لا ينقطع الأمل فى الله أبداً يا سيدتى .. لكن السؤال هو لماذا نعذب أنفسنا دائماً بالآمال البعيدة .. ونغمض عيوننا غالباً عما يمكن أن نلتصق فيه العزاء عما ينقصنا ؟.

إن العقلاء هم من يوازنون بين ما أعطته لهم الدنيا وما حرمتهم منه .. ليعرفوا فى النهاية أن لكل إنسان كأسه التي يتجرعها وأن الكئوس دائماً متساوية فى النهاية . أو لسنا نرى فى الحياة زوجات وأزواجاً حرموا من الإيجاب .. وتمتعوا رغم ذلك بالسعادة والحب والطمأنينة !
⁴ أو لسنا نرى فيها أيضاً أزواجاً رزقوا بالبنين .. لكنهم حرموا من السعادة والسلام وراحة البال .

بل ألسنا نرى في الحياة أمهات وآباء شقوا بأبنائهم بأكثر مما شقوا بأى شيء آخر في حياتهم ؟.

لقد كان المليونير اليونانى أوناسيس أغنى رجل فى العالم حتى قيل إن مجرد ثروته يحتاج إلى عامين وأنه لا يعرف حجمها بالضبط وكان له ابن وحيد يعده ليرث امبراطوريته المالية العريضة فلقى مصرعه فى حادث طائرة فانكسر قلب أوناسيس وارتخت عضلات عينه اليمنى وتدلج جفنه عليها بصفة دائمة ولم ينجح أساطين الطب فى العالم فى علاجها وقيل وقتها إنه بعد مصرع ابنه تمتع بكل شيء فى حياته من الثروة والنفوذ والشهرة ما عدا شيئاً واحداً فقط هو السعادة !.

أليس هذا أيضاً هو ما عناه الراوى الأعمى عند سوفوكليس حين أشار إلى الملك الذى يحمل جثمان ابنه فى « أنتيجون » وقال : كليون يحمل مصيبته ! يا سيدتى .. إن كل إنسان يحمل مصيبته ويمضى بها فى الحياة مع اختلاف الآلام ودرجاتها فلا تعذبى نفسك بالجرى وراء الآمال المستحيلة وكفأك ما عانيت وما عرضت نفسك له من مخاطر ست مرات قاسيات ، وحاولى أن تروضى نفسك على قبول الأمر الواقع . وأن تعيدى إكتشاف حياتك وسوف تجدين فيها الكثير مما قد تغبطك عليه أخريات لم يحرمن من الانجاب لكنهن حرمن من الشريك العطوف المتفهم كزوجك الذى يجبك ويحترمك ويتمسك بك ولا يرى لنفسه حياة بعيداً عنك فإن مسك قرح فقد مس القوم قرح مثله وهذه هى الحياة يا سيدتى التى لا تروى أبداً عطش الظمأى !.

الضوء الأخير

أكتب إليك بعد صراع مرير مع نفسي وأرجو أن تسمعني وأن تتوكل
حكلك على إلى النهاية . أنا سيدة متوسطة العمر نشأت في أسرة فقيرة ..
وقاسيت مرارة الحاجة وحين بلغت سن الزواج لم أفكر في الزواج من شاب
مثلي لأنى كنت في حاجة إلى زوج جاهز يوفر لى المسكن والملبس والمأكل ولا
يكلفنى شيئا . وقد وجدت هذا الزوج في شخص مطلق له أولاد وعنده شقته
ولديه إمكانات الحياة ، بل ولا أكذبك إذا قلت لك إنى فرحت به بالنسبة
لظروفي التي شرحتها لك وهكذا تزوجته واعتزمت أن أحافظ عليه وعلى حياتى
الجديدة .. وكان هو أيضا سعيدا بى .. لكن شيئا ما فى داخلى كان يدفعنى
دفعاً لإساءة معاملة أطفاله - رغم أنهم أبرياء - ولتعذيبهم .. تسألنى لماذا أقول
لك لا أعرف .. هل أساءوا إليك أقول لك إنهم أطفال صغار حرموا من
أمهم وفرحوا حين وجدوا أمّا ترعاهم لكن النفس الأمانة بالسوء كانت
تدفعنى دفعاً لتعذيبهم .. ولم يخف الأمر طويلا على زوجى .. فلقد أحس
- بقلب الأب - بعذاب أطفاله .. ولم يكن هناك ما يربطنى به سوى حسن
العشرة فلم أنجب منه أطفالا .. لذلك لم يجد صعوبة فى التخلص منى
وطلاقى ، فعدت إلى الوحدة وإلى معاناة ظروفي الاجتماعية بعد فترة قصيرة من
الاستقرار معه ..

وحاولت أن أجد مخرجاً من ظروفى فعملت فى إحدى الشركات ومن خلال عملى التقيت بتاجر كبير يتعامل مع الشركة له بنات وأبناء متزوجون كان أرمل توفيت زوجته .. ولفت نظرى إليه بمحدثه الدائم عن زوجته الراحلة وأبنائه الذين يتحدث عنهم بحب شديد .. ووجدت نفسى أميل إليه رغم كبر سنه وأتمنى أن أتزوجه .. وشاءت الأقدار أن تتحقق أمنيتى بعد فترة قصيرة إذ فاتحنى برغبته فى الزواج منى وسعدت بطلبه جداً وسارعت بالموافقة .. وبارك أبناؤه زواجى من أبيهم لكى يجد من ترعاه فى وحدته .. وشهدوا جميعاً مراسم الزواج وأحاطوا بأبيهم سعداء بسعادته وقال قائلهم إن الحياة لا بد أن تستمر وأن من حق أئبنا أن نجد من يؤنس حياتنا بعد زواجنا جميعاً وانشغالنا بأسرنا ، وزففت إليه فى حفل عائلى صغير وخرج الأبناء وهم يودعون أباهم بالقبلات ويودعونى بحرارة والبنات يقبلننى ويشنن على جالى الهادئ .

وأحسست أن هذه الأسرة يجمعها الحب الصادق بين أفرادها .. وحمدت الظروف التى جعلت منى واحدة منهم . وانتويت أن أستمتع بحياتى .. وأن أكسب حب زوجى وأولاده . ومضت الأسابيع والشهور سعيدة والجميع يعاملونى بحب واحترام .. وكنت قد تركت عملى وتفرغت لأسرتى الجديدة ووجدت فيها كل ما أحتاج إليه . لكنى يا سيدى بدأت أغار شيئاً فشيئاً من حب زوجى لأولاده وأحفاده .. وبدأ الشىء يتحرك من جديد .. وبدأت أضحيق بمحدث زوجى عن ذكرى زوجته الراحلة وباهتمامه بأمره أبنائه وبناته ، فإذا أردت أن اشترى فستاناً قالى لى زوجى اشترى لأولادى معك .. وإذا فكرت فى شراء شىء جديد للبيت قال لى اشترى معه لأولادى .. حتى وجدت نفسى فجأة أكره أولاده وبناته بلا سبب .. وأريد أن أبعد هذا الزحام عن زوجى لكى أنفرد به وباهتمامه .. وبدأت أشكو لزواجى من

أبنائه .. وفي البداية لم يكن يسمع لى .. ثم بدأ يسمع ولا يعلق .. ثم بدأ يسمع ويتعاطف معى ببعض الكلمات .. بغير أن يخطئ أبناءه أو يلومهم .. ثم بدأ يسمع ويعبر عن سخطه ببعض الكلمات القاسية .. ثم بدأ يتغير تجاههم تدريجيا .. وأنا لا أدع له فرصة للتراجع ولم يمض سوى عامين حتى كان يكره أبنائه وأحفاده وأنا « أتلذذ » « لذة » الانتصار عليهم !.

تسألنى مرة أخرى لماذا .. وسأقول لك لا تسألنى لأنى لا أعرف سوى أنى أردت أن أبعاد كل هذا الحشد عن زوجى وأن يخلولى وحدى .. وأن طبيعى غلبتني كأنى نسيت كل ماجرى فى زواجى الأول ونسيت طلاقى وعودتى للعمل ومعاناتى للحرمان مرة أخرى ..

وبعد أن انفردت بزوجى انقطع الأبناء والأحفاد عن زيارتنا ولم يعد يدخل بيتنا أحد .. وفى هذه الأيام بدأ زوجى بإيحاء وضغط منى يبيع أملاكه لكيلا تكون هناك أشياء واضحة يمكن أن ينازعى فيها أحد والحق أن أبنائه لم يهتموا بذلك بقدر ما حزنوا لمقاطعة أبيهم لهم وحرمانهم منه .. وفى احدى المناسبات انفجرت ابنته الكبرى فى باكية ودعت الله أن يجرمنى من « نظرى » كما حرمتها وأخوتها من أبيهم وبدلا من أن أغضب أو أجزع وجدت نفسى أضحك سعيدة بالانتصار عليهم ..

وتفرق الأبناء .. وبدأوا يهاجرون كل إلى بلد مختلف .. فهاجر بعضهم إلى البلاد العربية وهاجر البعض الآخر إلى أوروبا ، حتى البنات هاجرن وراء أزواجهن بعد أن سلمن أمرهن لله فى أيهن .

وخلت الدنيا تماما من حولنا .. وبدأت أستمتع بالهدوء مع زوجى .. لكنه لم يظل كثيرا .. فلقد توفى زوجى بعدها بعام وفوجئت به وهو فى لحظاته الأخيرة يهتف بأسماء أبنائه وبناته وقد كنت ظننت أنه قد نسيتهم .. فاندفعت

أقول له أنا بتك وزوجتك وأملك وكل شيء لك في الدنيا ، لكنه لم يحفل بي وفارق الحياة ولسانه يهتف بأسماء أبنائه وعيناه تبحثان عنهم في ضيق ويأس . وانتقل زوجي إلى العالم الآخر .. وحزنت عليه لأنني وجدت معه الحياة التي أردتها .. لكنني تماسكت ودبرت كل أموري بحكمة وكانت كل ثروته تحت يدي أموالا سائلة فانفردت بها وحرمت كل أبنائه وتجاوزت الأزمة بسرعة .. وعشت حياتي مطمئنة للمستقبل فعندى الشقة التي نقل زوجي عقدها باسمي وعندى أموال في البنك لكن الأبناء لم ينازعوني في الشقة ولا في غيرها وعشت عامين هادئين .. أحيا حياة أرملة ثرية احتاطت للمستقبل باحتياطات عديدة .. عندى سيدة تعرى شئون بيتي وأشغل وقتي بزيارة الصديقات اللاتي تعرفت بهن في السنين الأخيرة أو استقبل بعضهن في الصباح ونروح نتحدث في أمور الدنيا .. وأتفرج على التلفزيون ، وأفلام الفيديو كل يوم ، وبدأت أفكر في استئجار شقة للمصيف أمضى بها الصيف في الإسكندرية .. وأسرفت في التفرج على أفلام الفيديو حتى بدأت أحس بزغلة بسيطة في عيني ونصحتني صديقة بأن أعمل نظارة تحفظ نظري .. فذهبت إلى أكبر طبيب عيون لعمل النظارة ، واخترت نظارة أنيقة زادت وجهي شيئا وأنا أرتديها .. واستعدت راحتي في التفرج على الفيديو لكن النظارة الجديدة لم تلبث شهرين حتى بدأت تزغلل عيني من جديد فعدت إلى طبيب العيون الذي استبدلها لي بأخرى جديدة ، واستعدت اطمئناني سريعا .. لكن النظارة لم تلبث أن ضايقتني فاستشرت صديقتي فنصحتني بالذهاب إلى طبيب آخر وذهبت إليه ففحصني بدقة ثم نظر لي طويلا وقال : يا مدام أن القرنية عندك تضمير منذ زمن .. وقد تأخرت كثيرا في بدء العلاج ! .

فصرخت فيه : ماذا تعني ؟ فقال : كل شيء بأمر الله ! فقامت الدنيا

أمام عيني .. وتركت العيادة وأنا لا أرى الطريق وفي طريق عودتي إلى البيت مر شريط حياتي أمام عيني .. من الفقر والحرمات إلى الزواج الأول .. إلى الطلاق والحرمات .. إلى الزواج الثاني إلى الراحة والاطمئنان والمال .. ثم فجأة قفزت إلى مخيلتي صورة ابنة زوجي الكبرى وهي تدعو الله أن يحرمني من بصرى كما حرمتها من أبيها وتسمرت في مكاني ..

وسألت نفسي بفرع هل يكون هذا هو النذير؟
لا .. لن يكون إن معي مالا .. وهناك أطباء .. وسأصرف آخر قرش معي في علاجي ..

وبدأت الرحلة المريرة .. وطففت على الأطباء ومراكز العلاج .. وبت ليالي تعسة أنتظر نتائج الفحوص .. وكل يوم يمضي تظلم عيناى فيه قليلا عن اليوم الذى سبقه .. وتوقفت عن مشاهدة التلفزيون والفيديو وقراءة المجلات ..

وأضيت أياما قاسية معصوبة العينين ..، ثم انسحب آخر ضوء من عيني منذ أسابيع وتحولت الحياة إلى ظلام قائم أكون هذا هو العقاب الذى توعدتني به ابنة زوجي ياسيدى؟

إننى لا أسالك لكى تحيينى لأنى عرفت فعلا أنه كذلك منذ أن أظلمت عيناى لأول مرة ونفض الأطباء أيديهم منى يائسين ..
لكنى أملى هذه الرسالة على أعز صديقاتى التى وقفت معى فى محنتى لكى أطلب منك شيئا آخر.

لقد كنت من قراء هذا الباب قبل أن أفقد القدرة على القراءة وأصبحت الآن أستمع إليه .. وبعد صراع مرير مع نفسى قررت أن أكتب إليك لأطلب منك أن تنشر قصتى لكى تدعو أبناء زوجي للحضور إلى لكى أعطيهم نصيهم

بما ترك أبوه رحمة الله من مال . فصورته وهو ينادى أبناءه لا تفارقني منذ كف بصرى .. ووجود ما لهم الذى حرمتهم منه معى يلسعنى بالنار ويذكرنى بما فعلت وبما جنيت وأدعوك لأن تكون شاهدا على أنى سوف أبرىء ذمى أمام الله مما دخلها من مال حرام حين يحضر أبناء زوجى وأعيد إليهم حقوقهم . ولتسأل الله لى الرحمة .. ولتسأل أبناء زوجى لى السماح والمغفرة وكفانى ما ألاقيه من عذاب . والسلام عليكم ورحمة الله .

□ □ ولكاتبه هذه الرسالة أقول : إن رسالتك هذه يا سيدتى من الرسائل القليلة التى لا أجد فى نفسى أى ميل للتعليق عليها لأن ما تقوله كلماتهم لا يدع زيادة لمستزيد . إذ ماذا يمكن أن أقول أنا أكثر مما قلت أنت فى هذا الاعتراف ؟ وأى كلمات يمكن أن تحذر من ظلم الأبرياء وأنانية الإنسان ووساوس النفس الأمارة بالسوء « أردع » من هذه الخاتمة المفزعة لرسالتك ؟.

إن كارثة البعض هى أنهم يتصورون أنهم لن يسعدوا أبدا إلا بهدم الآخرين ولن يرتفعوا إلا فوق جث الضحايا .. ولن يرتوتوا إلا بحرمان الظمأى من ماء الحياة مع أن الكرة الأرضية تتسع للجميع ويستطيع كل إنسان لو أراد أن يحقق لنفسه السعادة بغير إيذاء الآخرين وأن يجد الأمان بغير أن يشرذم غيره وأن يعيش فى سلام ويدع الآخرين يعيشون حياتهم فى هدوء .. لكن ذلك يبدو صعبا إلا على من يتقون الله فيجعل لهم مخرجا .. ويفرس القناعة والطمأنينة فى نفوسهم .

إنك تتساءلين أهو العقاب ! نعم ياسيدتى هو العقاب بل هو العدل الإلهى الذى يغيب عن أنظار البعض فى قمة اندفاعهم لاشباع أهوائهم .. حين يتصورون أن الدنيا بين أيديهم وأنه لا عقاب ولا حساب .. كما ضحككت أنت مثلا بشماتة وابنة زوجك لا تملك إلا دعاء العاجزين ! .

الآن انتهى وقت الضحك ياسيدتى .. وجاء وقت الحساب .. ووقت
الضعف البشرى ، والتماس العفو ممن قسوننا عليهم وظلمناهم .. والظلم شر
القبايح كما كان يقول أبو العلاء المعرى .. وما أعجب الإنسان في جبروته ..
وما أضالته في ضعفه ! لكنى لن أطيل عليك في ذلك لأنك قد عرفت الآن
كل ذلك وبشمن غال تهون معه كل أموال الدنيا وأعانك الله عليه وشفاك
منه . فأما أبناء زوجك فإني أدعوهم للعودة إليك واستعادة حقوقهم التي
طابت نفسك لأن تؤديها لهم الآن وأما دعوتى لأن أكون شاهدا وشهيدا على
ذلك فإني أليها مرجحا بأن أسهم في مثل هذا العمل الخير لعله يكون طريقك
إلى العفو ممن يملك العفو والمغفرة . أما عفو أبناء زوجك عنك فأمره مردود
إليهم إن شاءوا فعلوا وهو أكرم وأكثر قربى إلى الله وإن شاءوا أبوا حتى بعد
استرداد حقوقهم ، فلا جناح عليك في ذلك ولا جناح عليهم لأنك لا تطلين
« جائزتك » منهم وإنما تطليبيها ممن يملك منح الجوائز .. وأكبرها شأن أن يقبل
توبتك ويغفر لك ويفرج كربتك ويغرس الطمأنينة في قلبك .. سبحانه
وسعت رحمته كل شيء ..

الخبير للسموم

منذ ٤ سنوات كنت طالبا بالسنة النهائية بإحدى كليات الهندسة .. وذات يوم التقيت بطالبة تخطو خطواتها الأولى في الكلية .. فلفت نظري فيها خجلها وحيائها ، وشاءت الظروف بعد ذلك أن أراها واقفة مع زميلة قديمة أعرفها فتم التعارف بيننا ، وعرفت أنها من أصل ريفي .. وتشعر بالغربة في الكلية بين الشباب المتحرر ولا تعرف كيف تتعامل معهم . وشدتني إليها براءتها فاقتربت منها .. ورحبت هي في حذر باقتراي ثم لم يلبث تعارفنا أن تحول إلى علاقة عاطفية قوية ، وتعاهدنا على الزواج عقب تخرجي ، وبدأت فتاتي تشد أزرى وتدفعني للاستذكار ، ونحو على بقدرتها العجيبة على العطاء العاطفي لأول شاب أحبته في حياتها .. فكانت تتطوع بنسخ بعض المحاضرات لي رغم انشغالها بمذاكرتها .. وتحفظ لي بما تحمله من طعام أو شيكولاته وتقتسمها معي وتتظرفني بالساعات حتى أنهى محاضراتي وتركزت حياتها كلها في دفعي للنجاح والتفوق حتى خشيت عليها من الرسوب لانشغالها الزائد بي ، وطالبتها بأن تهتم بنفسها فلم تبد أى استجابة ، وتقدمت للامتحان ونجحت ، ونجحت هي أيضا ، والتحقت بالخدمة العسكرية .. وبعد فترة التجنيد الأولى خرجت للقائها وشوق العالم كله في قلبي إليها وانفقنا على أن أتقدم لأسرتها بعد أيام وتقدمت لها بالفعل وحددنا يوم الخطبة ، وجاء اليوم السعيد ، وكان أجمل

أيام حياتي وتألقت فتاتي جمالا وفتنة في الخطبة رغم أنها لا تضع أية مساحيق وترتدى الملابس المحتشمة دائما وأنهت فترة التجنيد ووجدت عملا بعد جهد وبدأت أكرس كل طاقتي لبناء عش الزوجية .. وأصبحت أعمل ليلاً ونهاراً لأوفر طلبات الزواج ، وتم عقد القران بعد عام من الخطبة ، وكانت فرحة فتاتي بالقران كبيرة .. وكذلك فرحت أنا وتخرجت فتاتي بعدى بـ ٣ سنوات واستطاعت أن تجد عملا في شركة خاصة ، وبدأت حياتها العملية وبعد شهرين فقط تم زفافنا في حفل صغير وجمعنا أخيرا عش الزوجية بعد ٤ سنوات من الحب والعطاء لم ينقص صفوها أى شيء .. وكانت الأيام الأولى سعيدة جداً وإن شهدت بعض المتاعب الصغيرة نتيجة لعدم التأقلم في بداية الحياة الزوجية .. وبسبب بعض المحاولات الصغيرة من جانبها للسيطرة على البيت ، لكن كل ذلك توقف بعد شهرين فهدأت فتاتي تماما وتفرغت للعطاء العاطفي بسخاء وأصبحت مثالية في كل شيء وبعد أسابيع بدأت زوجتي تشعر بالآم الحمل .. وكانت معاناتها منها عادية فكانت تفقد الوعي أحيانا في البيت وتسقط في الطريق مغمى عليها في أحيان أخرى وتراودها فكرة أنها ستموت . فزاد حناني لها وعطفي عليها وسألت بعض أهلي فقالوا إن بعض الفتيات الصغيرات تكون معاناتهن من الحمل الأول غير طبيعية فطالبته بإصرار بأن تتوقف عن العمل ما دامت غير قادرة على تحمله مع متاعب الحمل ورفضت في البداية ثم بعد جدل ومناقشة وافقت على أن تحصل على أجازة طويلة من العمل مع نهاية شهرها الرابع في الحمل وعندما اقترب الشهر الرابع من الانتهاء ولم تبق سوى أيام على انقطاعها عن العمل عدت ذات يوم إلى البيت فوجدت الشقة نظيفة ومرتبّة والملابس مغمسولة ومنشورة فوق حبال الغسيل بالشرفة وكل شيء في الشقة تمام وفي أحسن حال لكن زوجتي غير موجودة ، فاعتقدت أنها

خرجت إلى السوق لشراء بعض الأشياء ولمتها في داخلي لاجتهاد نفسها بهذا الشكل وهي تعاني من الحمل .. وجلست في انتظارها فمضت الساعات ولم تعد ، فارتديت ملابسى وذهبت إلى بيت أسرتها فلم أجدها فيه ، فتولاني الرعب وخشيت أن تكون قد أغمى عليها في الطريق أو حدث لها مكروه ، فخرجنا جميعا نبحث عنها في المستشفيات وفي كل مكان بلا جدوى .
وتوجهت إلى عملها في اليوم التالى فعرفت أنها لم تذهب إليه في اليوم السابق .. ولا أطيل عليك فبعد يوم واحد اتضح الحقيقة مرة .. لقد فرت زوجتى الساذجة التى لا تعرف كيف تتعامل مع الآخرين ولا تضع المساحيق وترتدى الملابس المحتشمة مع زميل لها بالشركة عاقد قرانه هو أيضا على أخرى .. إلى بلد أجنبي ويجواز سفر سجلت فيه أنها آتسة لم تتزوج ، وطعنتى بمنجبر مسموم فى قلبى وعرضى ، وطعنت أسرتها وكل من يعرفها بنفس الخنجر ..

وتبين لى بعد ذهول الصدمة أنها ليست حاملا وأنها ارتبطت بأول رجل قابلها فى حياتها العملية وضحت بحج عمرها كما كانت تقول وسافرت معه فى مقعدين مجاورين على نفس الطائرة .

ومازلت حتى هذه اللحظة مذهولا .. وقد فقدت ثقى فى كل شىء .. فى نفسى وفى الحب .. وفى النساء وفى البشر وفى الحياة . لقد قرأت فى بعض رسائل الزوجات إليك أنهن يعنين على أنفسهن أنهن لم يرتبطن بأزواجهن عاطفيا قبل الزواج وسرن نياما إلى الزواج بلا حب ويفكرون فى هدم عش الزوجية لأنهن لم يشعرن بالحب بعد الزواج وأريد أن أسألن ماذا يقلن فىمن أحببت قبل الزواج « حب العمر » ثم هدمت العش بعد شهر فقط منه .. وأين هو الإخلاص الذى نسمع عنه .. وماذا يفعل شاب مثلى أحب بصدق

وكان أمينا مع نفسه ومع من أحب ثم يجد نفسه بعد ٤ شهور فقط من الزواج مطبونا في قلبه ورجولته وكرامته .. ونظرة الرثاء تحيط به من كل جانب .. فأين الخطأ .. وأين الصواب وأين الخير .. وأين الشر وكيف يستطيع الإنسان أن يميز بينهما ، وكيف أتعامل مع الناس بعد ذلك ؟.

□ □ ولكتاب هذه الرسالة أقول : إن الغدر هو أحقر الجرائم الإنسانية وأكثرها خسة ، لأن الإنسان يستطيع دائما أن يفعل ما يريد في مواجهة الآخرين وليس من خلفهم .. ولقد كانت فتاتك تستطيع إذا اقتنعت باستحالة الحياة معك أن تتوقف وأن تطلب الانفصال وتصبر عليه حتى تناله ثم تفعل بجياتها بعد ذلك ما تشاء غير ملومة من أحد .. فهكذا يفعل الأتماء مع الحياة ومع الآخرين .. أما التعمية والمسايرة وادعاء البراءة والسذاجة والاحتشام في المظهر والسلوك في نفس الوقت الذي تدبر فيه بليل جريمة كاملة الأركان كجرائم الدهاة من المتآمرين ثم تنقض عليك في اللحظة المناسبة بنجسها المسموم لتطعنك به في لحظة خاطفة ، فهذا هو ما يفعله القتل المحترفون وليس الأسوياء من البشر ..

ومن حقت أن تحزن لنفسك أن تلقيت هذه الطعنة القاسية ممن قدمت لها الحب والوفاء والإخلاص .. لكنك لا تستطيع أبدا أن تحزن على فقد مثل هذه الفتاة المزيفة في كل شيء ولربما كنت جديرا بأن تشكر الأقدار على أنها قد هتكت الأستار عن حقيقتها وأنت لم تنجب منها بعد وإلا لكان لجريمتها أكثر من ضحية سواك . ومثلها لم تكن لتتردد في أي مرحلة من العمر عن الاستجابة لتزوة ماثلة مها كان ضحاياها من الزوج والأبناء .

أما « حب العمر » الذي كانت تتحدث عنه فهو كالحمل المزيف وكالاحتشام الكاذب وكالسذاجة إياها ، كان ادعاء كاذبا .. لأن حب العمر

لا يتهاوى أمام أول طارق .. ولا يستجيب لأول نزوة .. وإنما يصمد كالحصن المنيع أمام المغريات والعواصف والمحن والأنواء ، ويعبر الأزمات بسلام والقصة كلها لا علاقة لها بالحب الحقيقي الصادق .. وإنما هي قصة الجنون وضعف المقاومة والتزوية .. والميل للمغامرة ، لأن تجربتها في العمل التي انتهت بهذه المغامرة الفاضحة لم تتجاوز بضعة شهور ، ولا عجب في ذلك لأن بعض الناس يا صديقي كالذباب لا يسقط إلا على كل شيء قدر ، لهذا سقط كل منها على الآخر .. ووجد معه نفسه ! لكن سعادتها لن تكون حقيقية أبدا ولن تطول مهما طال لأنها قامت على ججاجم الآخرين ، ولأن لكل جريمة عقابا ولو بعد حين في الدنيا وفي الآخرة على السواء ، والحكمة الصينية القديمة تقول لا تقتل خصمك .. وإنما اجلس على حافة النهر وانتظر وسوف ترى بعد حين جثته طافية فوق الماء ! .

وهذا طبيعي لأنه لو كان شريرا فلسوف تقتص منه الحياة نيابة عنك .. وبغير أن تلوث يديك بدمائه ، وأنت سوف ترى بكل تأكيد جثة سعادتها طافية فوق نهر الحياة بعد حين لأن كلا الطرفين قد طعن قلبا بمنجرحه قبل الرحيل ويحسة ونذالة ولن يفرا أبدا من قصاص الحياة خاصة فتاتك بالذات ، ليس فقط لأنها قد أدمت رجولتك ومشاعرك ، وإنما أيضا لأنها أدمت قلوب أبيها وأهلها بلا رحمة .

فاطو هذه الصفحة الكريمة بكل آلامها .. وأسقطها تماما من حياتك .. وانظر إلى الأمام بقلب يتطلع إلى نصيبه العادل من السعادة والوفاء والاخلاص ولسوف تعوضك الحياة بمن تأسو آلامك وتكون بلسا للجراحك ، واسترد ثقتك بنفسك ولا تتحسس من نظرة الرثاء لأنها نظرة تعاطف معك ومشاركة لمشاعرك وليس يعيب الإنسان أن يعقره كلب مسعور في الطريق ،

لكنه يعييه بالتأكيد ألا يسارع بتضميد جراحه ، أو أن يتصور أن الجميع سوف يعقرونه لأن كلبا ضالا قد عقره من قبل ، فليس الأمر كذلك يا صديقي .. وأنت لست في النهاية سوى إنسان سيئ الحظ ، خدعت في فتاة ظننت فيها البراءة والسذاجة .. لكنها ليست كل الفتيات .. ولا هي كل الحياة فإذا كان جرحك غائرا الآن فإن جرح الشباب سريع الالتئام ! فلا تفقد ثقتك بالبشر فالأصل في الحياة هو الخير والاستثناء هو الشر .. والفضليات المخلصات هن الأكثرية الصامتة ، ومثيلات فتاتك هن الأقلية الضئيلة المحترمة مهما بدا لنا غير ذلك .. ومهما رأينا من تناقضات عجيبة في الحياة .

الفراشة!

أنا شاب في السادسة والثلاثين من عمري ، تخرجت في إحدى الكليات النظرية منذ ١٥ عاما ، وكان أبي مفتشا بالتربية والتعليم ويقم مع أسرتي في إحدى مدن الأقاليم ، وحين التحقت بجامعة عين شمس جاء بي إلى القاهرة وطاف شوارعها حتى نجح في العثور لي على شقة صغيرة من غرفتين وصالة بإيجار شهري ٤ جنيهات وبخروجي بسيط لم يزد أيامها عن مائة جنيه .. وقال لي عليك الآن أنت أن تعتمد على نفسك وأن تواجه الحياة ، وعملت بإرشاداته وتحملت اغترابي عن أمي وأبي وأشقائي في هذه السن الصغيرة ونظمت حياتي على أن أعيش بمبلغ عشرين جنيها يرسلها لي كل شهر أدفع منها الإيجار الشهري وتكاليف الطعام والمواصلات إلى الجامعة أما الكتب والملابس فكان يشتريها لي في بداية كل سنة .

ومضت حياتي رغم صعوبتها التي لم يكن يخفف منها سوى زيارتي الشهرية لبيت الأسرة لأنعم بدفء مشاعر أمي وأشقائي وبالطعام الساخن ، الذي كنت لا أذوقه تقريبا إلا في هذه الزيارة لأني أعيش معظم أيام الشهر على الأطعمة الجافة والجبن ، وفي السنة الثالثة لي بالكلية نجحت في الحصول على عمل في مجال دراستي بإحدى الهيئات بمكافأة شهرية قدرها ١٥ جنيها وواصلت دراستي بلا صعوبات وفي العام الأخير من دراستي توفي أبي الحبيب

وتركني في سن العشرين مسئولاً عن أشقائي الثلاثة ، ولم أكن في وضع يسمح لي سوى بتحمل المسئولية الأدبية والنفسية عن إخوتي .. فأعلنت لأمي تنازلي عن نصيبي من المعاش وأصبحت أزور أسرتي كل أسبوعين بدلا من كل شهر .

وواجهت قسوة الحياة بصبر خلال هذه الفترة إذ لم يعد لي في الدنيا راع يهتم بأمرى أو يشتري لي الكتب والملابس .

وأذكر أني جلست في شقتي بعد وفاة أبي بشهرين أحاول أن أدبر أمرى وأقسم المبلغ الذي يتبقى لي بعد الإيجار على نفقات المعيشة والمواصلات وأعيد الحسابات فلا أجد وسيلة لكي أكفل لنفسي الوجبات الثلاث كل يوم أبدا حتى ولو اقتصررت على الخبز والخبز . ولأن الحاجة هي أم الاختراع كما يقولون فلقد علمتني الأيام وسيلة جديدة لمقاومة الجوع فكانت أشتري البطاطا بكميات كبيرة وكان ثمنها في ذلك الوقت لا يزيد على ٥ قروش للكيلو وأخزنها في البيت فتكون طعامي الوحيد حين تنضب النقود من يدي فأطهوها في الماء حتى تنضج ثم آكلها بالملح فتسد حاجتي من الطعام وكم من أيام يا صديقي عشتها لا يسد رمق فيها سوى البطاطا وكم من ليال سهرتها لأذاكر وليس في بيتي مما يؤكل سواها بل كم من مرة أكلتها نيئة .. وأجبرت نفسي على ذلك حين اكتشفت في الليل وأنا أذاكر أن وابور الجاز خال من الوقود والوقت متأخر ولا أستطيع اقتراض بعض الجاز من جيراني الطيبين ومع ذلك فلقد مضت الحياة بغيرها وشرها فكانت أذهب للكلية صباحا وللعمل ظهرا ونجحت في الليسانس وعينت في نفس الهيئة التي عملت بها وأنا طالب بعد عام من تخرجي وزاد مرتبي عشرين جنيها وأصبحت ظروفى تسمح لي بأن أقتطع مبلغا بسيطا أرسله لأسرتي كل شهر وواصل إخوتي التعليم وافتتحت في عاصمة

المحافظة جامعة اقليمية فالتحقوا بها تباعا فلم نواجه صعوبة كبيرة في مواجهة نفقاتهم ، خاصة أنى تقدمت في عملي واستعنت بقدرتى على الترجمة في زيادة دخلى وزيادة المبلغ الشهرى الذى أساهم به في ميزانية الأسرة ، وكان لأمى نصف فدان يدر علينا خمسين جنيها كل سنة فأراد المزارع الذى يستأجره أن يشتريه ليبنى فوقه بيتا فاشتراه بسعر معقول قسمته بين أمى وشقيقى وشقيقى ووضع لى لكل منهم نصيبه في البنك ليستعين به على مستقبله .. ورفضت أن أحصل على مليم منه أديت واجبي تجاه أسرتى ورددت لأبى بعض أفضاله على ، وركزت جهدى في عملى وفي هذه الفترة كنت أذهب إلى احدى الهيئات لأقوم بعمل إضافى بها وقد بلغت من العمر التاسعة والعشرين بغير أن أرتبط عاطفيا بأحد لظروفى العائلية وفي هذه الهيئة ألتقيت بفتاة تعمل بها لفت نظرى إليها شىء ما فى جمالها .. فهى فتاة من هذا النوع الملون الذى يجذب الأنظار . رغم أنها ليست صارخة الجمال .. ووجدت نفسى منجذبا إليها ووجدتها تبدى اهتماما بى ورغم تحذير زميلاقى لى منها بأنها فتاة متقلبة ولا تعرف ماذا تريد إذ خطبت قبل ذلك مرتين وفسخت فى كل مرة الخطبة من جانبها ، فلقد وجدت نفسى غارقا فى حبها وراغبا فى الارتباط بها .. أما هى فلقد تقبلت مشاعرى بترحيب وطلبت منى أن أترك لها فرصة لى تكتمل معرفتها بى ، وخلال هذه الفترة طلبت زيارتها فى البيت وقابلتنى أسرتها بالترحيب وكانت أسرة متوسطة فى مثل ظروفى لكن فتاتى كانت طموحة وتحلم بحياة أفضل ، وصارحتها بظروفى وقلت لها إبنى من أسرة كريمة لكنى مكافح ولا سند لى فى الحياة سوى عملى ، وأن لى شقة من غرفتين ويمكن أن نبدأ بها ويمكن أيضا أن أبيعها وأدفع ثمنها كمقدم لشقة أوسع كما أنى سأحصل على شقة عن طريق نقابى المهنية التى تشترك هى نفسها فيها خلال عامين . فرحبت

بكل ذلك وأعلنت الخطوبة فعلا وقدمت لها شبكة لائقة .. وواصلت الليل بالنهار في العمل لأوفر متطلبات الزواج وأصبحت أعمل في ٣ جهات في وقت واحد بل وقبلت العمل في وردية الليل بإحدى الهيئات فكنت أخرج منها يومين كل أسبوع إلى عملي الأساسي بلا نوم تقريبا لأواصل العمل حتى المساء ومع ذلك فلقد كنت سعيدا .. ويزداد حبي لها كل يوم ، لكن فتاتي بدأت بعد فترة تعاملني بفتور ، ثم تتشاغل عني وصارحتها بذلك فبدأت تحدثني عن صعوبات الحياة ، وأني لن أستطيع بعد الزواج أن أعمل في ٣ جهات .. لكي أواصل الحصول على هذا الدخل العالي .. و .. وبدت لي الحقيقة قاسية .. فقد وقع ما حذرني منه زميلاتي .. وحاولت مناقشتها فلم أتوصل معها إلى شيء .. وسألتها عن اعتراضاتها على شخصيتي فقالت لي ساهمة إنها لا تجد في ما تشكو منه فأنا كما قالت شاب وسيم وجاد ومخلص ومستقبلي طيب وتتمناني أى فتاة ولكنها لا تشعر بالاطمئنان للمستقبل معي ! . وأحسست بكلماتها كطعنات تنغرس في قلبي .. وتركتها طالبا منها أن تعطيني نفسها فرصة أخرى للتفكير ..

ولاحظت زميلة متزوجة لي بالهيئة ما جرى وكانت تتعاطف معي وتحترمني فطلبت مني أن تحدّثها لتقنعها واختلت بها في أحد المكاتب لمدة ساعتين ثم خرجت فتعلقت عيناى بها ووجف قلبي .. انتظارا لكلماتها .. فانفجرت ساخطة : إنس هذه الفتاة نهائيا .. إن ظفرك برقبته .. وأنا على استعداد لأن أزوجك أجمل وأحسن منها بعد أن تنساها .

وسمعت كلماتها صامتا .. وأحسست بألم شديد وشكرتها وانصرفت ولم أذهب ليلتها إلى العمل الليلي وفضلت أن أختلي بنفسى في شقتى .. وفي الليل طافت بى صور حياتى الماضية وعرفت أن فى الدنيا آلاما أقسى من الوحدة

واقتراد النصارى ، وأكثر مرارة من ازدراد البطاطا النيئة . وبعد يومين خرجت من الشقة ، وقد استجمعت ارادتي على أن أنساها ولم أفكر فى الاساءة لها أو الانتقام منها لكنى حاولت بقدر الإمكان ألا أوجد فى الهيئة فى ساعات عملها ومضت الأحداث سريعة .. فسمعت بعد فسح خطبتي بشهرين أنها قد خطبت إلى زميل فى نفس الهيئة عائد حديثا من الإغارة لدولة عربية بعد ٥ سنوات ويملك شقة تمليك وسيارة إلخ ..

ثم سمعت بعد ستة شهور أخرى أنها قد فسخت خطبتها منه وارتبطت بزميل ثالث فى نفس الهيئة جاء دوره للخروج إلى إحدى الدولة الأوربية للعمل فى وظيفة شبه دبلوماسية تابعة للهيئة لمدة ٤ سنوات وعرفت أنها تخلصت من الخطيب العائد بنفس البساطة ونفس القسوة الباردة التى أنهت بها خطبتي لأن حلم السفر إلى أوربا كان أكثر اغراء لها من الشقة التمليك ومدخرات الإغارة !

وفى هذه الفترة كنت أقضى بعض أوقاتي فى مبنى النقابة المهنية التى ننتمى إليها ألعب الشطرنج فى الصالة العلوية التى تطل على حديقة النقابة وهى لا تخلو كل يوم تقريبا من فرح أحد الأعضاء فلاحظت على نفسى شيئا غربيا فى هذه الفترة هو أنى أحس بأسى شديد داخلى كلما ترامت إلى أذنى نغمات زفة العروسة فى أى فرح يقام بالنقابة ونغمات الزفة بالذات ولا شىء آخر .. حتى لقد ذرفت الدموع من عيني ذات مرة وأنا أقف فى ظلام الصالة وحدى أطل على فرح فى الحديقة وفرقة العوالم ترف عروسين إلى الكوشة .. ليس حسدا والله العظيم .. فأنا أحب كل الناس وأتمنى لهم السعادة .. ولكن حزنا على نفسى لأنى أحببت بكل قوتي من لم يحببى ولم يحفظ عهدى .. وكنت أتمنى أن أقف معه نفس هذا الموقف .

وذات مساء كنت ألعب الشطرنج فترامت نفس النغبات إلى أذنى ووجدت فى نفسى رغبة مفاجئة لأن أطل من النافذة على الحديقة لأرى الفرح فاعتذرت لصديقى وأطلت من النافذة ففوجئت بها تجلس فى الكوشة إلى جوار من اختارته وهى فى غاية الابتهاج والسعادة فلم أحتمل المشهد وأسرت أعادر مبنى النقابة إلى مسكنى .

ولعلك تسألنى هل كنت لا أزال أحبها ؟! وأجيبك بكل الصدق نعم كنت أحبها حتى وهى فى الكوشة مع من فضلته على ! لكن ماذا أفعل لقد عشت أياما بعدها حزينا أودى عملى بلا حماس .. ثم بدأت أستعيد نشاطى وحبوبتى وعدت إلى الانتظام فى الذهاب للهيئة التى تعمل بها « معذبتي » بعد أن رحلت مع زوجها إلى أوروبا .. وبدأت أعود على الواقع .. ومر عامان على هذه الذكرى الحزينة .. ووجدت نفسى فى الواحدة والثلاثين والعمر يجرى لى والواحدة أصبحت ثقيلة على فبثت همى للزميلة المتروجة التى بذلت مساعيا مع خطيبتى السابقة فنصحتنى بالزواج وأبدت استعدادها لتعريفى بجارة لها ترى فيها الصفات التى أطلبها . وطلبت منى بعد أيام زيارتها فى بيتها .

وفى الموعد ذهبت إليها فاستقبلتنى مع زوجها بالترحيب ، ووجدت معها فتاة توحى ملاحظتها بالطيبة والألفة والبساطة فاستراح لها قلبى من الوهلة الأولى .. وتبادلنا الأحاديث العادية لمدة ١٥ دقيقة انصرفت بعدها الفتاة ، وانتظرت أن تسألنى زميلتى عن رأيى فيها .. فلم تفعل وإنما استمرت فى الأحاديث العادية فسألتها مداعبا : لماذا لم تسألينى عن رأيى فى « العروسة » فقالت لى بدهشة : أية عروسة ؟ إن الفتاة التى حدثتك عنها لم تأت بعد لأنها ستأخر ساعة لأمر طارئ .. أما الفتاة التى كانت هنا فهى ابنة أختى وقد جاءت على غير موعد فى أمر عائلى ، ولم يخطر فى بالى أن أرشحها لك لأنها

ما زالت طالبة في الليسانس ، والأخرى خريجة وتعمل في وظيفة محترمة ! .
فطلبت منها رؤيتها مرة أخرى ورفضت الانتظار إلى أن تصل الجارة
الموعدة وانصرفت ، وسئلت الفتاة عن رأيها في فأبدت ارتياحها لى فرأيتها ثم
خطبتها وبعد عدة شهور تم الزواج واحتفلت به في نفس حديقة النقابة التي
شهدت من قبل آلامى وعذابي ، وجرى كل شيء بسهولة ويسر لا تفسير لها
إلا أنها إرادة الله سبحانه وتعالى فلقد قبلت خطيبي الزواج في الشقة الصغيرة
إلى أن تأتي شقة النقابة ، وقبل أن ينتهى العام الأول من الزواج جاءت الشقة
الواسعة فانتقلنا إليها ، وبعث شقتى الصغيرة ، وحجزت لزوجتى في مستشفى
لائق للولادة لكي تضع مولودها الأول ، وجاءت طفلاتى الحبيبة نهي لتقلاً
الدنيا حبا وسعادة ، ومعها جاء الخير كله ، فترقيت في عملي الأساسى
وأصبحت قادرا على الاستغناء عن العمل الليلي ، ثم رشحتنى الهيئة فجأة
وبدون أى سعى منى ، للسفر إلى الخارج في بعثة تدريبية لمدة عامين ..
وأين ؟ في نفس الدولة الأوربية التي تقيم فيها خطيبي الأولى والتي من أجلها
تركت العائد من الدول العربية وكلما عدت إلى زوجتى حاملا لها خبرا جديدا
من هذه الأخبار أحسست بفرحتها الطاغية تعيد إلى ثقى في نفسى وأحسست
أيضا أن كل ما أصابنى من خير يرجع الفضل فيه بعد الله إليها لأنها لا تطلب
شيئا .. وترضى بالقليل .. وتفرح بالشيء الصغير كأنه معجزة لا يستطيع أحد
أن يحققها سوى ! .

وفي غمار كل ذلك كان حبا يتسلل إلى قلبي رويدا رويدا من الأيام الأولى
للزواج فيزحف كل يوم إلى موقع جديد تنسحب منه الأخرى الملونة حتى
احتل كل قلبي وطرده شبحها من قلبي تماما بعد شهور قليلة . وسافرنا إلى
أوربا .. وأكملت الغربة اكتشافى لكل الجوانب الخيرة في زوجتى .. ووجدت

نفسى فى لىالى الشتاء هناك أحكى لها كل شىء عنى وعن كفاحى وعن أيام
الحرمان التى عشتها فستسبل دموعها إشفافا ويزداد إعجابها بى .. وحبها لى ..
وقد مست قلبى حين قالت لى أنها يتيمة مثلى منذ صغرها ولم تستشعر الأمان
والحنان إلا معى ، وأنها تحس بأن الدنيا قد عوضتها بى عن كل آلامها ..
وهكذا أصبح بيتنا عشا هادئا يظله الحب والعطف والحنان .. وواحة يقصدها
الأصدقاء الذين تعرفنا بهم فى الغربية ومن هؤلاء الأصدقاء تطايرت إلى سمعى
أخبار الأخرى الملوثة التى تعيش فى نفس المدينة .. ويحكى المصريون عن
خلافاتها مع زوجها ومشاجراتها التى وصلت إلى حد إبلاغ الشرطة ضده فى
إحدى المرات بتهمة أنه ضربها بالقلم .. وهى مصيبة كبيرة فى الدولة الأوربية
وكيف تدخل السفير شخصيا لكى يحول دون حبسه لأن القانون هناك صارما
ولا يرحم فى هذه المسألة .. وكيف تطلب السفارة من الهيئة إعادتها إلى مصر
بعد أن كثرت فضحاحمها .. إلخ ..

ووجدت نفسى أسمع هذه الأخبار بلا أى تأثير كأنها شخص لا أعرفه ولم
أسمع به من قبل .. فلا شامة .. ولا انفعال .. ولا اهتمام بل شكر الله سبحانه
وتعالى أن أزال الغشاوة عن عيني واختار لى شريكة حياتى هذه التى لم أسمع
صوتها عاليا مرة واحدة خلال أربع سنوات .. ولم نتغاضب على شىء يوما ..
ولا تحتمل أن يقع بيننا أى خلاف صغير مما لا تخلو منه الحياة .. فلا تمضى
دقائق حتى تجيئنى لتقول لى آسفة فأسارع لأسبقها قبل أن تنطق بها وأقولها أنا
لها ، أنى أقرأ فى غربتى رسائل بريد الجمعة التى تروى آلام الناس ومشاكلهم ..
ونجارهم وقد اقترب موعد عودتى فخطر لى أن أكتب لك عن تجربتى لعلها تفيد
بعض من يواجهون الموقف الذى واجهته فلا يحزنون على ما فاتهم .. وليعرفوا أن
الله سوف يبدلهم بمن خذلوهم من هن أفضل منهم لأن الله لا يضيع أجر

المخلصين والسلام عليكم ورحمة الله .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا عجب في أن يبذلك الله بمن هي أفضل
من خانت عهدك ولم تعرف لك قدرك ، بل لعل العجب هو ألا يحدث لك
ذلك ، فأنت شاب مخلص أمين مكافح تحملت مسئولية نفسك في سن الصبا
ومسئولية أسرتك في سن الشباب .. وكنت نعم الابن والأخ لأسرتك ..
فكيف يضيعك الله يا صديقي ؟.

لقد كان حقا على الحياة أن تعوضك عن صبرك وكفاحك ومعاناتك بمن
تجد في صحبتها الدفاء والحب والأمان ، وكان حقا على الدنيا أن تجزيك
خيرا عميا عن ترفلك عن الإساءة لمن أذتك والانتقام ممن أدمت مشاعرك في
جريها وراء طموحها .

إن الحكماء من أمثالك هم من يترفعون عن الإساءة لغيرهم والانتقام منهم
لأنهم يعرفون جيدا أن الدنيا سوف تنوب عنهم في الانتقام لهم ممن أذوهم لأن
المكر السيئ لا يبيح دائما إلا بأهله ، ولأن الله جل شأنه لا يتسامح مع من
يرتكبون جريمة الإضرار بالآخرين بغير أن تطرف عيونهم .. فلماذا نتقم نحن
ممن ظلمونا .. ولو صبرنا قليلا لرأينا بأعيننا إنتقام العزيز الجبار منهم .. بلا أي
جهد من جانبنا !.

وبعيدو النظر يا صديقي هم من لا يحزنون طويلا على شيء فاتهم .. ومن
يتذكرون دائما كلمة الإمام أحمد بن حنبل لمن سأله النصيحة : إذا كان كل
شيء بقضائه وقدره فالحزن لماذا .

نعم فالحزن لماذا واليأس لماذا يا صديقي والحياة تتجدد كل يوم وما فات قد
فات والمؤمل غيب كما يقولون ؟.

إننا نتصور أحيانا بقولنا القاصرة أننا نختار لأنفسنا حياتنا وفقا لحساباتنا

وتدبيرنا فقط فيجهد البعض منا نفسه في التحسب .. والتفكير .. لكيلا نشقى
بمن اخترناه في المستقبل وننسى أن المستقبل في النهاية بيد الله وحده وأن
مبالغتنا في ذلك لن تغير مما كتب لنا اللوح المحفوظ شيئاً .

نحن مطالبون بالتدبر ، هذا صحيح لكننا مطالبون أيضاً بالتسليم بإرادة
الله .. وبقبول ما تأتينا به الحياة بصدر رحب وتجربتك الفريدة « خير » مثال
على ذلك فأنت قد اخترت في البداية من لم تخترها الأقدار لك .. وزميلتك
العطوفة قد اختارت لك أيضاً ، فكان الاختيار الحقيقي في النهاية هو ما لم تدبر
له أنت وما لم تفكر فيه فكان نعم الاختيار .. ونعم الجزاء .

أما فتاتك الملونة .. فهي فراشة فعلاً في ألوانها الزاهية وفي تغزلها بين الزهور
ترشف رحيقها .. وتطير من زهرة إلى زهرة بحثاً عن الأفضل والأنفع .
لكن مصير الفراشات دائماً هو أن يصيدها في آخر الأمر صائد مها طارت
وتنقلت فيصنع بها ما قالته مدام بترفلاي في الأوبرا التي تحمل اسمها لزوجها
متخوفة مما يحمله لها المستقبل : يقولون إن الرجل في بلادكم إذا صاد فراشة
فإنه يقتلها بإبرة ؟ لكي يحفظها ! .

والقتل بالإبرة قد يكون أحياناً أهون من العذاب والمعاناة والتعاسة
المستمرة فلا تشمت بها يا صديقي .. فهي دروس الحياة التي تعلمنا كل يوم أنه
لا يفلح الظالمون ، وأنه عسى أن نكره شيئاً وهو خير لنا .. وعسى أن نحب
شيئاً وهو شر لنا . الله يعلم وأنتم لا تعلمون ! مع أجمل تمنياتي لك ولزوجتك
الوفية .

فن الحياه

أنا سيدة في التاسعة والعشرين من عمري ، بدأت قصتي مع الحياة حين بلغت سن الرابعة عشرة من عمري وشيبت عن الطوق قبل الأوان كما يقولون فجاء من يقطف زهرة صباى قبل أن أتسم عبيرها ، ويطلب يدى من أبى فى هذه السن الصغيرة لسبيين هما جالى الملحوظ .. وفقرى الشديد وقلة حيلتى .. فأبى موظف بسيط ينوء كاهله بأسرة من ٥ بنات .. ومرتبته لا يكاد يكفي لإطعامها خبزاً فقط والأسرة تدخر بالسنوات لكى تشتري أسماًلا تستر أجسامنا الضئيلة لهذا بدا هذا الزواج وكأنه ليلة القدر لأبى وتم الزواج سريعاً وقطعت دراستى وكنت وقتها طالبة بالمدرسة الإعدادية وتنفست أسرتى الصعداء لكن فرحتها لم تظل فقد أغلق زوجى ساعده الله الأبواب فى وجه أسرتى ملتمساً فى البداية الأعدار .. ثم ناهراً وآمراً بقطع كل الصلات مع أسرتى الفقيرة ، فوجدت نفسى فجأة وأنا فى سن الخامسة عشرة أو تزيد وحيدة فى بيت زوجى ومغتربة عن أهلى وليس بينى وبينهم سوى بضعة كيلو مترات تفصل ما بين الفقر الشديد فى بيت أسرتى وفى الحى الشعبى الذى تعيش فيه ، وبين البيوت العامرة بالغنى والثراء فى الحى الذى أقيم فيه مع زوجى .. ووجدت نفسى مغلوبة على أمرى فاستسلمت لمصيرى وتعلمت فى وحدتى « وغربتى » فى هذا العالم الغريب الصبر فكان أول دروس الحياة التى تعلمتها

الصمت فكان سلاحى فى دفع الأذى عنى .. وتعلمت ما هو أهم من ذلك الصلاة والابتهاال إلى الله ليل نهار أن يمدنى بالعون والمساعدة والقدرة على تحمل الألم . وكان على أن أقوم بخدمة زوجى صباحا ومساء وفى الأسحار وأحيانا حتى صباح اليوم التالى صابرة محتسبة آملة فى الله أن يعوضنى عن صبرى خيراً ، واستمرت حياتى على هذا المنوال ٤ سنوات طويلة وأنا شبه محرومة من أهلى ومن أنس صحبة شقيقائى وصديقائى ، حتى أننى كنت أفتقد أحيانا ملاعب صباى وذكريات طفولتى فلا أجد سوى الدمع أروح به عما فى صدرى بينى وبين نفسى بعيداً عن أنظار زوجى الذى يجب أن أبدو أمامه دائماً باسمه سعيدة حتى ولو كانت ابتسامتى حزينة .

وبعد ٤ سنوات بدأ زوجى يتعلم من عدم الإيجاب وعقم حياتنا الزوجية .. فذهب بى إلى الطبيب ليجرى لى الفحوص والاشعات ويكتشف أننى أحمل رحم طفلة لا يزيد عمرها ٣ سنوات ولا يقوى على الامتلاء والحمل فكانت صدمة شديدة بالنسبة له لأنه كما قال لى لم يحصل بذلك على حقه كاملا من الزواج وهو الإيجاب ، أما بالنسبة لى فلم أستوعب الأمر ولم أهم له فقد كنت فتاة فى الثامنة عشرة وليس إلى جانبى أم استشيرها ولا صديقات يشرحن لى الأمر ، وهكذا لم يجد جديد فى حياتى .. فالحياة ماضية كما هى وحدة .. واغتراب .. وطاعة عمياء لزوجى وصبر وصمت واستعداد لقبول كل شىء لكنه يبدو أننى لم أكن أشعر بما حولى ، لأنى فوجئت ذات يوم بزوجى بلا مقدمات ولا سابق إنذار يسحبنى من يدى أى والله هكذا إلى مكتب المأذون ويطلب منى أمامه أن أتنازل عن كل شىء لى عنده حتى عن ملابسى ، ووجدت نفسى أوافق على كل ما طلب منى بلا معارضة وماذا كنت أستطيع أن أفعل يا سيدى وأنا ضعيفة وحيدة بلا أب أو أم يقفان إلى

جوارى فى هذه اللحظة الصعبة ، فووقت على ما طلب منى التوقيع عليه ، ووقفت فى انتظار الخروج لأعرف كيف أعود إلى بيت أبى حتى تفضل الرجل الذى قطف زهرة صباى بإعادنى إلى بيت أبى .. فعدت إليه كما خرجت منه بلا حقيبة ملابس وأصدقك القول ياسيدى أننى رغم عودنى إلى الحرمان والحياة المتقشفة الصعبة إلا أننى أحسست بالألفة التى افتقدتها فى ذلك البيت الموحش الصامت طوال ٤ سنوات ، وإن كنت لا أنكر أنى تأملت لحالى وسنوات عمرى التى ضاعت هباء فأصبح الحزن يكسو ملاعنى وعدت إلى دراسى التى قطعها ، وبعد بضعة شهور دعينا إلى حضور زفاف إحدى فتيات الأسرة فقابلت فى الفرح شاباً تنبئ ملاعنى لأول وهلة بالطيبة والخلق فصافحته بين من صافحت من المدعوين وصافحنى ، ولم تبادل أكثر من كلمات التحية العابرة ثم انتهى الفرح وعدت إلى بيتى ، فإذا بهذا الشاب يجئنى فى اليوم التالى للمقابلة أبى ويطلب منه يدى وبعد أن سأل عنى طوال الليلة السابقة كل من يعرفنا أثناء الفرح وقابله أبى بترحاب لكنه كان قد تعلم الدرس فتردد فى الموافقة على استعجال الزواج وصارح هذا الشاب بحقيقة مشكلتى فى الإنجاب . وطلب منه عدم التسرع وعدم الإقدام على الزواج إلا بعد أن يتأكد تماماً من حقيقة مشاعره ومن استعداده لتقبل هذا العجز ، وقبل الشاب رغبة أبى فى تأجيل الزفاف وبدأ يتردد علينا .. وبدأت أحس تجاهه بمشاعر فياضة ، وكعادة الخطيبين سألته ذات يوم ماذا شد انتباهه إلى فأجابنى على الفور بأنها مسحة الحزن والاستكانة التى استقرت فوق ملاعنى ! فقلت لنفسى .. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. فلقد ربطت بيننا هذه المسحة التى كرهتها من قبل وكانت السرفى لقائنا وتمسك خطيبى بإتمام الزفاف فتزوجنا بعد عام من الخطبة وهاجرت معه إلى البلد العربى الذى يعمل فيه ،

وشتان ما بين المهجرتين ، ففي الأولى كنت في نفس المدينة على بعد خطوات من أسرتي وبينهم سدود وجبال من تكبر زوجي واستعلائه عليهم ونفوره منهم وفي الثانية كنت على بعد آلاف الأميال منهم لكنهم أقرب إلى من أرى وقت مضى فزوجي رجل فاضل يعرف ربه حق المعرفة فلم يقطع ما بيني وبين أسرتي ولم يحاول أن يضع سداً بين فقرهم ويسر حياته وإنما تواضع لله وشكره فأعطاه من فضله الكثير وكان دخولي إلى بيته فاتحة خير له فاستعت أعماله بدرجة مذهلة ، وخلال سنوات قليلة أصبح في مصاف كبار رجال الأعمال بل ومن أصحاب الملايين وكلما زاده الله من فضله ازداد شكراً لله وتواضعاً له ورقة معي والتصاقاً بي واهتماماً ورعاية لي ، فأعانني على تزويج شقيقاتي كلهن وأكرم أبي وأمي أكرمه الله وقنا بحج بيت الله جميعاً أكثر من سبع مرات . ولم يفقد الأمل يوماً في علاجي فطاف بي أنحاء العالم طلباً للشفاء .. وبدأ العلاج يؤتي ثماره بعد تلك السنوات الطويلة فأصبح لي رحم أنثى كاملة لكنني لم أستطع الإنجاب لأنني أحمل أنبوتين مسدودتين ، فجاءنا الأمل بعد ٥ سنوات في عملية الإنجاب عن طريق طفل الأنابيب ، فقامت بإجرائها لأول مرة في لندن وفشلت وعدنا إلى البلد الذي نقيم فيه ففوجئنا بافتتاح قسم فيه لأطفال الأنابيب فكنا أول من ذهب إليه ، وخلال ٥ سنوات قمت بإجراء هذه العملية إحدى عشرة مرة كانت أكثرها نجاحاً هي المرة التي عاش فيها الجنين داخل رحمي ٥ أسابيع فقط .. وفشلت جميعها لكننا لم نفقد الأمل في الله أبداً وسوف أقوم بالعملية رقم ١٢ في أواخر أبريل القادم رغم ما أعانيه من آلام لا تعرفها سوى من قامت بإجراء هذه العملية من تناول جرعات الهرمون المتزايد ، ومن آلام العمليات الجراحية التي يحصلون بها على البويضات ، وأعدك ياسيدي إذا نجحت هذه العملية أن أبلغك بذلك وإن

لم تنجح فأنا وزوجي من الصابرين الشاكرين .. وقد أكرمني الله بزوجي ..
وعرضني عما لقيت في زواجي الأول من آلام .. وفي حياتي السابقة من عناء
فلنشكر الله دائماً .. ولنطلب منه دائماً أن يشملنا بعطفه ورعايته والسلام
عليكم ورحمة الله .

□ □ تلقيت هذه الرسالة ضمن رسائل أخرى تعلق على رسالة سابقة نشرتها منذ
فترة بعنوان « زائر الصباح » للمهندس الذي فقد وليده بعد رحلة عناء طويلة
مع الأمل في الإنجاب ولأني كنت قد نشرت رسالة منذ أسبوعين تعليقا عليها
فلقد اعترمت، ألا أنشر رسائل أخرى حول نفس القصة لنتقل معاً إلى هوموم
الحياة الأخرى وما أكثرها لكني بعد قراءة هذه الرسالة لم أستطع مقاومة
نشرها ليس فقط تلبية لرغبة كاتبها في نقل تجربتها للمهندس ومواساته ، وإنما
أيضا لما ترويه من تجربة إنسانية تضيف إلى خبرتنا بالحياة الجديد ، فلقد شد
انتباهي إليها ما تنبض به من صدق إنساني فريد يجعل منها قطعة أخرى من
أدب الحياة الذي يطلعنا فيه أصحابه على قصصهم مع الحياة لتتعلم منهم
دروس التجربة وعبرتها .

أما أنت ياسيدتي فلقد زادتنى رسالتك اقتناعاً بما أوّمن به دائماً من أن
أصحاب النفوس الراضية لاخوف عليهم مها قست عليهم بعض ظروف
الحياة ، لأنهم يواجهون شدائدتها بهذه النظرة المتسامحة التي تغفر للحياة كل
ما يلاقونه فيها من آلام ويتظنون بصبر لا يكل حظهم العادل من السعادة
وهو ما عبرت عنه أنت في رسالتك بالاستسلام لما لا حيلة لك فيه وقبوله برضا
واستكانة فأنت رغم جفاف حياتك قبل الزواج الأول والثاني لم تكوني
ساخطة على ظروف أسرتك بل مشفقة عليها منها ، وفي سنوات زواجك الأول
الموحشة الكثيرة لم تكوني ساخطة عليها حتى وأنت تعانين مرارة الوحدة

والصمت والاعتزاب النفسى والحرمان الظالم من الأهل .

وإنما كنت مشفقة على نفسك .. وصابرة على البلاء ولا تفكرين فى هدم
عشك طلباً لحقك العادل فى حياة سعيدة وأنت ياسيدتى رغم ما تعانين منه
الآن بسبب مشاكل عدم الإنجاب لست ساخطة على حرمانك منه ولا على
ما تلاقين من عناء شديد فى سبيل تحقيقه وإنما تتقبلين أقدارك برضا ولا
تقصرين فى حق نفسك ، فتجربين وراء الأمل مرة ومرات حتى بلغت ١١
مرة عدا ما تحملت فى كل منها أشد الآلام وأشد العناء بصبر ورضا وسوف
تقدمين على المحاولة الثانية عشرة وسوف تشكرين إن نجحت وتصبرين إن
فشلت وأصحاب النفوس الراضية من أمثالك يدافع الله عنهم حين لا يحسنون
هم الدفاع عن أنفسهم ، لذلك فقد أقدم زوجك الأول على هدم عشك
وقسا عليك واستلبك حقوقك .

ولولا أنه قد تسرع فهدم خلية النحل لربما ظل يرشف رحيق العسل حتى
الآن ، ولما هيا الله لك هذا الزوج الفاضل الذى يعرف حقوق ربه فيرعاك ولا
يقطع رحمك ويكون لك ولأسرتك عوناً وسنداً فى الحياة ولا عجب فى ذلك
فمن تركز فى رسالتها وهى الآن زوجة لأحد أصحاب الملايين على وصف فقر
أسرتها وقلة حيلتها ، وفضل زوجها فى مساعدتها ، لا بد أن تكون من هذا
النوع من النساء اللاتي قال عنهن سليمان الحكيم فى أمثاله : « امرأة فاضلة من
يجدها فإن ثمنها يفوق اللآلى » ولا بد أن تكون إنسانة أصيلة حسنة الطوية ، لم
يغير منها الثراء المفاجئ .. ولم يدر رأسها كما يفعل ببعض الحمقى الذين يفقدهم
فئات الدنيا أترانهم ويفسد صلاتهم بالآخرين اتدريين ياسيدتى أين هو السر
فى كل ذلك .. إن السر هو أنك حققت لنفسك ما يجهد الكثيرون أنفسهم
للوصول إليه بلا فائدة وهو طمأنينة القلب والرضا دائماً بالواقع وطمأنينة

النفس لا تتأني إلا بتقبل الحقيقة مهما كانت مؤلمة ، لأن تقبل الواقع هو الخطوة الأولى دائماً للتغلب على الصعاب ومواجهتها فعسى أن يمن عليك ربك بما يحقق لك آمالك في الحياة وعسى أن تسعدني الظروف بأن أتلقى منك البشرى بنجاح العملية الجديدة بأمر ربك إن شاء الله وفي كل الأحوال فإن قيمة الحياة هي في أن نحياها وأن نحيا كل ساعة منها وتقبل منها كل شيء ، إذا كنا لا نملك تغييره ولست في حاجة لأن أذكرك بذلك لأنك « أستاذة » بحق في فن الحياة والرضا بالواقع ، والشكر لله على ما أعطى .. وما سوف يعطى بفضل منه ورضوان إن شاء الله .

الضوء الخافت

أنا سيدة في السادسة والثلاثين من عمري .. نشأت في أسرة متوسطة بين عدد من الأخوة تزوجوا جميعا وعاشوا حياة هادئة .. أما أنا فقد تقدم لي كثيرون من محيط الأسرة والأصدقاء .. لكنني صممت بيني وبين نفسي ألا أتزوج إلا ممن أحس حين أراه أني سأحبه واستشعر الدفء العاطفي معه .. وهكذا انتظرت وكلما تقدم لي خاطب جالسته في الصالون لأبحث فيه عن فارس أحلامي .. وحين لا أجد قلبي يخفق له اعتذر عن عدم قبول الخطبة . إلى أن جاء يوم وتقدم لي أحد معارف زوج شقيقتي وكنت قد رأيته قبلها مرة أو مرتين في الزيارات العائلية لكنني لم أفكر فيه كخطيب .. فاستعددت كالعادة للقاء الصالون التقليدي مع أبي وأمي وجاء هو مرتديا بدلة بيضاء وما أن دخلت إلى الصالون ونهض مبتسما ليصافحني وهو ينظر في عيني بثقة وثبات حتى وجدت قلبي يخفق له بشدة وأسرت بالجلوس ، ودار حديث المحاملات ، فاكشفت أني استمتع به وأريد أن يطول الحديث وتطول الجلسة ولم أشعر بالرغبة السابقة في الانسحاب بحجة الصداع وعقب انصرافه سألتني أبي عن رأيي فيه فقلت له بجرأة إنني أريده وأوافق عليه ، وتعجبت أمي لأنه لم يكن أفضل ممن تقدموا من ناحية ظروفه .. كما لم يكن أيضا أكثرهم وسامة بل لم يكن وسيما بالمقاييس العادية .. لكن ماذا تقول ياسيدي في عين

الحب .. وتمت الخطبة بعد أسابيع وتم الزفاف بعد عام . وسافرنا معا إلى إحدى دول الخليج حيث كونت هناك أول عرس أحلامي معه . وبدأت أيامي معه كما تصورتها وكما أردتها لنفسى ومضت الأيام سعيدة وهو يعمل يجد في عمله ، وأنا أعمل بنشاط في عرس أحلامي .. وأنتظره إلى أن يعود بعد الظهر لكي نتناول معا طعام الغداء مها تأخر عن العودة .. ثم نمضى الوقت معا نزور الأصدقاء .. أو نستقبل زياراتهم أما حين لا تكون لنا زيارات ولا عندنا زوار ، فقد كنت أحرص على أن نتناول العشاء معا في بيتنا الصغير على ضوء الشموع ! نعم الشموع ما الغرابة في ذلك ولماذا لا نتمتع أنفسنا بالحب واللمسات الشاعرية الجميلة ، أليس الزواج مودة ورحمة ...؟ أوليس من المودة أن أوفر لزوجى الجو الجميل الراقى في بيته ؟ لقد عشت معه هكذا في الخارج ٤ سنوات حملت خلالها وأنجبت بنتا ، ولم أتوقف أبدا عن اهتمامى بزوجى وبتى وبهذه اللمسات الصغيرة ولم أغضب منه يوما واحدا .

وانتهت سنوات الإعارة وعدنا إلى بلادنا وأثنا مسكنا جميلا . وأنجبت طفلى الثانى .. واستشارنى زوجى الحبيب فى أن يستقيل من عمله الحكومى ويعمل بالأعمال الحرة فشجعتة على ذلك .. واستقال وافتتح لنفسه مكتبا للتجارة وبدأ يمارس عمله الجديد بنجاح .. ولم يتغير شىء فى حياتنا سوى أنه أصبح يغيب فى الخارج ساعات أطول فيخرج فى الصباح ويمضى اليوم كله فى المكتب ثم يعود فى المساء وأنجبت طفتى الثالثة .. مع بداية توسع زوجى فى أعماله وكثرة أرباحه منه . واحتفل زوجى بولادة هذه الابنة احتفالا كبيرا واعتبرها بشير السعد له لأنها ولدت مع توسع عمله . ومضى على زواجنا ٩ سنوات ودخلت ابنتى وابنى المدرسة وشغلت بعض الوقت معها فى مراجعة الدروس لكن لم يتغير شىء فى نظام حياتنا .. حتى بعد أن أصبح زوجى يتندر

أحيانا على حكاية الشموع والضوء الخافت كنت اتقبل دعابته بصدر رحب ، وأتمسك بها رغم ذلك وبين حين وآخر كان زوجي يصير على أن نترك الأبناء في بيت أمي ونخرج للسهر في المحلات العامة مع بعض الأقارب .. وكنت ألاحظ أنه في بعض هذه الحفلات التي حضرناها أنه يحب الرقص الشرقي ويفرج عليه بشغف شديد إلى درجة أني أحس بالغيرة طول لحظات انشغاله الشديد بالرقص والراقصة ! وبعد ذلك رفضت أن نخرج إلى مثل هذه الحفلات لكنه كان يصير في بعض الأحيان فهداني تفكيري . تفكير المرأة عندما تغار إلى شيء لا يخطر على بال أحد ونفذته بكل جرأة ، فنزلت ذات صباح ومعى إحدى صديقتي وركبنا سيارة أجرة إلى شارع محمد على وسألت عن المحلات التي تبيع بدل الرقص حتى اهدتني إليها واشترت منها بدلة كان ثمنها أيامها ثلاثين جنيهاً ، وتحملت أسئلة البائع ونصائح وطريقة كلامه معى ، باعتباري من « المهنة » وعدت إلى بيتي سعيدة وأنا أقول لنفسى ما العيب في ذلك ، إن للزوجة في بيتها أن تفعل ما تشاء مادام لا يراها سوى زوجها .. وحين عاد زوجي وأعلنت له مفاجأتي السارة ضحك طويلا وتعجب كثيرا .. واقتنع بعدم الذهاب إلى هذه الحفلات مؤكدا أنه يفعل ذلك تقديرا لمشاعري كزوجة محبة وليس تقديرا لمواهي الفنية !

ومرت أيامنا بعد ذلك سعيدة ! .. إلى أن بدأ زوجي يتأخر في الخارج عن مواعيد المعتاد ويعود مرهقا في الليل ، ويضيق بلمساتي الشعرية القديمة وسألته عما به فشكا لي أحوال العمل والكساد وضعف الإيراد إلخ .. فهونت عليه المشكلة وطلبته بالصبر .. وبدأت لا أطالبه بأى مصاريف إضافية للملابس أو للأولاد .. لكي أخفف عنه .. وبدأت أنفق بعض إيرادى من ميراثى عن أبوى على البيت لكيلا أرهقه .. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا

الحد فقد زارتني زوجة أحد أصدقائنا وصارحتني بأن متاعب زوجي المالية لا علاقة لها بالكساد والأحوال الاقتصادية ، وإنما بتزوة وقع فيها منذ حوالى سنة مع سيدة تعاملت معه في المكتب ووقع في هواها وانفق عليها الكثير وأهداها سيارة حتى اختل ميزان تجارته وبدأت الديون تتراكم عليه فتوقف التجار عن البيع له بالأجل فتعثر تجارته ، ووقفت مذهولة مما سمعت .. وراجعتها فيما تقول فأكدته مرة ومرات وقالت لى إن زوجها وجميع أصدقائنا وأقاربنا يعرفون ذلك وأنها ترددت فى إبلاغى لعلها بحى لزوجى لكنها قررت فى النهاية أن تبغنى لأتصرف .

وانصرفت صديقتى وظللت جالسة فى نفس مكانى لا أقدر على الحركة أكثر من ساعة وأنا لا أصدق أن زوجى يفعل هذا . ويحمر على نفسه وأولاده الخراب وأسأل نفسى ماذا أفعل هل أواجهه هل أصرخ فى وجهه .. هل أطلبه بالطلاق .. هل أطلبه بنصيبى فى المكتب وقد ساهمت فيه ببعض مدخراتى .. هل .. هل .. ودارت برأسى كل هذه الخواطر وأبناى يلعبون حولى لاهين عما أعانيه وانتهيت بعد أن تعبت من التفكير إلى قرار .. لا أعرف كيف توصلت إليه .

فرفعت سماعة التليفون واتصلت بصديقتى وطلبت منها أن تكلف زوجها إبلاغ زوجى أنى قد عرفت الأمر كله ، عن طريق أشخاص آخرين وأنى أطلب منه عدم مفاتحتى فى هذا الموضوع .. وبقطع كل علاقة له مع هذه السيدة وانقاذ عمله وسمعته وأسرته .. وأننى سأساعده بما أملك على الخروج من أزمته .

وجاء زوجى يومها فى المساء مصفر الوجه خائفاً ففوجئ بى أستقبله بهدوء .. وبابتسامة حتى ولو كانت حزينة لكنها ابتسامة .. ثم وجد البيت

هادئا والعشاء جاهزا وعلى المائدة نفس الشموع التي كنت أحب أن أشعلها في أوقات الصفاء .. وحاول أن يتكلم فأنجس صوته فتكلمت أنا عن أشياء عادية وأدرت الموسيقى وتصرفت بطبيعية ولم أنس أن أتبادل معه تحية المساء قبل أن أنام وفي الصباح وجد في حقيبته « السمسونايت » التي يحملها معه بعض مجوهراتي وبعض المال المدخر من ميراثي ، فنظر إليها مستفها فأشرت إليه برأسي أن تصرف فيها لإنقاذ تجارتك فحنى رأسه شاكرا ثم دعوته للإفطار . ومضت حياتنا على هذا المنوال .. اهتم بأمره كأن لم يحدث شيء ارتب أشيائه أقف بين يديه وهو يرتدى ملابسه . استقبله على مائدة العشاء بالزهور والشموع وأنا أعلم أنه قادم من عند الأخرى لا أعاقبه ولا ألومه .. ولا يرى مني سوى الابتسامة الجريحة صحيح أنني كنت أختلس إليه النظر أحيانا لفترات طويلة لأنظر كيف استطاع أن يجد في قلبه مكانا لامرأة أخرى أو كيف غدر بي وأنا لا أرى في الدنيا سواه .. لكنه ما أن يرفع عينيه لينظر إلى حتى أهرب بعيني عنه .

والحق أنني لم أكن أتجاهل ما حدث وإنما كنت أريد أن أسلط عليه عذاب تأنيب ضميره ليفيق إلى نفسه ويرجع إلى عشه وساعتها كنت سأصفح عنه لأن في قلبي دائما مكانا للصفح عنه .

وبدأت طريقي توثق ثمارها .. وبدأ ضميره يعذبه كلما وجدني أتفاني في خدمته .. وحاول ذات مرة أن يعترف لي فوضعت أصبعي فوق فمه وقلت له أنني أرفض أن أسمع ما يسيء إلى زوجي وحببي وأب أولادي حتى ولو كان من شفتيه هو .. فظفرت الدموع من عينيه وشاركتها دموعي .. وبدأ عليه أنه عرف خطأه وتعلم منه لكن بعد فوات الأوان كالعادة فبعد هذه المحادثة بيني وبينه بعدة أيام .. صحوت في الصباح الباكر لأعد طفلي وابني للخروج

للمدرسة فوجدته مستيقظا جالسا في الصالة يدخن السجائر بشراهة ويشرب القهوة . فداعبته قليلا وانشغلت عنه بالولد والبنت حتى خرجا ثم عدت لأستكمل نومي ولا أدري كم نمت ولا لماذا صحوت بعد حوالى ساعة ضيقة الصدر فذهبت إلى الحمام وفتحت بابيه لكى أفاجا بأبشع منظر يمكن أن تراه زوجة وأم لثلاثة أطفال أبرياء لزوجها وهو غارق في دمه في بانيو الحمام وشرايين يده مقطوعة ومدلاة من البانيو ولم أدر ماذا فعلت عندها ولا ماذا حدث بعدها حتى وجدت نفسى وأولادى الثلاثة في بيت إحدى قريباتى بالاسكندرية .. بناء على نصيحة الطبيب بعد أن انتابتنى نوبة هستيرية استمرت ٤ أيام .. فطلب إبعادى عن جو الحادث كله .. لكى يتوقف انهيار أعصابى .

وفي الاسكندرية عرفت بعد قليل باقى التفاصيل .. فعرفت أن زوجى الحبيب سامحه الله قد عجز عن مواجهة الموقف بعد تراكم الديون ولم يتحمل إشهار إفلاسه .. ولم يجرؤ على أن يطلب من أقاربنا إقراضه فقرر الهروب من كل ذلك بالانتحار تاركا زوجته وأطفاله الثلاثة للأقدار ، وبعد أسابيع قليلة تم الحجز على مكتبه وسيارته وتجارته وفاء للديون وساعدتني أسرتى فى عمل بدل لشقتى بشقة أخرى لأنى لم أكن قادرة على دخولها مرة أخرى وعدت إلى القاهرة إلى شقة جديدة لأعيش حياتى مع أبنائى الثلاثة معتمدة على إيراد خاص من ميراثى عن أبوى اللذين رحلا عن الدنيا قبل سنوات وكرست حياتى لرعاية أطفالى ومحاولة نسيان هذه التجربة المؤلمة .

والآن ياسيدى مرت على هذا الحادث البشع ثلاثة أعوام وأصبح خللا مجرد ذكرى بالنسبة للأصدقاء والأسرة .. أما أنا فمازال حيا فى خيالى وظل مشهد البانيو يطاردنى فى أحلامى أكثر من عامين وقد أصبحت الآن الأم

والأب والعم لأبنائى الصغار .. لا يخفف من وحدتى سوى زيارات أشقائى
وزياراتى لهم أمضى أيامى معهم وقد بدأت شقيقتائى يشفقن علىّ من الوحدة
والمعاناة ويقترحن على قبول فكرة الزواج خاصة وأن هناك من يرغب فى
التقدم لى أنسى التجربة المؤلمة .. فأسمع حديثهن أحيانا ولا أعلق .. وأسمعه
أحيانا أخرى وأتساءل الزواج ! مرة أخرى ؟ ماذا أستطيع أن أعطى لرجل
أكثر مما أعطيت لزوجى .. وماذا فعل عطائى له ؟ هل ضمن لى إخلاصه
ووفاءه .. وهل حافى من غدر الأيام .. ولماذا أكرر التجربة .. وأكرر المعاناة
والعذاب ؟.

وهل صحيح أن جراح الخيانة تندمل بعد حين وأنى أستطيع أن أحيى حياة
طبيعية لا أحس فيها بالمرارة تجاه كل رجل ولا يساورنى فيه الشك كما أتوقع أن
يكون حالى مع أى رجل إذا تزوجته ؟.

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : من حقت فعلاً يا سيدتى أن تثور داخلك كل
هذه التساؤلات وهذه الظنون ، فن أعطت لزوجها مثل ما أعطيت أنت ثم
فوجئت بغدره بها ، لا بد أن تساورها الشكوك فى قيم الوفاء والإخلاص
والأمانة وكل القيم الإنسانية . لكن هل تكفى تجاربنا المؤلمة وحدها للحكم على
الطبيعة البشرية كلها ؟.

إننا نولد صفحات بيضاء ظاهرة لا تعرف غدرا ولا تضمر لأحد شرا ثم
تشكل وتتكون شخصياتنا وأخلاقياتنا بتأثير عوامل عديدة تحيط بنا ... وكل
ما يتسلل إلى هذه الصفحات البيضاء من بقع سوداء إنما نكتسبه بكل أسف
من معركة الحياة ومن الصراع المستمر بين ما نريد وما ينبغى أن يكون لهذا فإننا
لا نستطيع أن نحكم على « الأنواع » وإنما نستطيع أن نحكم فقط على
الأشخاص .. ولا نستطيع أن نقول إن الرجل بصفة عامة غادر أو أن المرأة

بصفة عامة مارقة وإنما نستطيع فقط أن نحكم على كل شخص بتاريخه وأخلاقياته ما إذا كان أميناً أم خائناً؟ وفيما أم جاحداً؟ وهكذا أما ما يقال في هذا المجال من أحكام عامة عن المرأة والرجل فليس سوى آراء تتلون بنظرة قائلها وبتجاربه مع الجنس الآخر ولا سند علمي لها ولو كان كل ما يقال صحيحاً لصدقنا المتنبي مثلاً الذي قال في أحد أبياته :

إذا غدرت حسناء وقت بمهودها فن عهدها ألا يدوم لها عهد!

أى أن المرأة إذا وقت بعهدها فن باب الخطأ أو من باب الغدر! فهل يمكن اعتبار ذلك صحيحاً!.. وهل يمكن الحكم على كل الرجال بأنهم مارقون متبطرون لأن بعضاً منهم خان العهد أو تبطر على النعمة؟ أو تصرف تصرف بعض أجلاف الطبقة الجديدة الذين ما أن تجرى النقود في أيديهم حتى ينجرفوا إلى اللهو والانحراف.. فلا يستفيد بثمار ما لهم سوى حثالة المجتمع.. ولا يسهم ما لهم في ترقية الحياة أبداً. ليس كل الناس أشباهاً ياسيدتى.. وليس الغدر هو قانون الحياة وإنما قانون الحياة الطبيعية هو الوفاء وتحمل المسؤولية واتقاء حدود الله واحترام حقوق الآخرين ولولا ذلك لانفرط عقدها منذ زمن بعيد وتحول البشر إلى خنازير هائمة لا تعرف حرمة ولا تعفف عن شيء!.

لقد مررت بتجربة بشعة.. ومن الطبيعي أن تؤثر على نظرتك للحياة وللرجال وللأشياء لكنه من الطبيعي أيضاً أن تراجع نفسك بعد حين لتعرف أن الحياة بريئة من أمثال هذا الشذوذ عن طبيعتها السوية.. وإنما إذا كنا سيئى الحظ فليس معنى هذا أننا لن نجد حظنا العادل من السعادة والوفاء مع آخرين، وإن علينا فقط ان نتعلم من تجاربنا وألا يفقدنا ما لقيناه فيها ثقتنا

بالحياة ولا براءة المشاعر فنعجز عن تلمس الخير في الآخرين أو اكتشافه
والتعامل معه .

لقد اخترت زوجك الأول بمقياس العاطفة وحدها ، ، أو بمقياس القبول
النفسي وخففة القلب الأولى ولا شك أن عامل القبول النفسي هو الأساس في
أية علاقة زواج لأنه يفتح الباب لتسلل المشاعر ونمو العاطفة لكنه وحده لا
يكفي لضمان السعادة وحماية البناء من الانهيار ولا بد من استشارة العقل بعد
ذلك لكي نتجنب المزالق والعثرات بقدر الإمكان .

أنت تسأليني هل تستطيعين تكرار التجربة مرة أخرى ؟.

وأنا أقول لك : إنك في مثل ظروفك أمام خيارين هما أن تعيشي لأبنائك
وعلى ذكريات الأيام الجميلة التي سبقت النهاية البشعة وإما أن تفتحي للحياة
من جديد وتنسي التجربة المؤلمة .. وتلمسي السلوى في تجربة جديدة يتعاون
فيها القلب والعقل على اختيار الآخر خاصة في ظروفك الحالية ومسئولتك عن
ثلاثة أطفال أربياء لا ذنب لهم فيما جرى ولا بد من توفير أفضل الظروف
لرعايتهم وتنشئهم وهذه أمور لا يمكن فيها الاعتماد على العاطفة وحدها وفي
أغلب ظني أنك لن تستطيعي مع الوحدة صبرا إذ ليست كل النساء قادرات
عليها ولا كل الرجال لأنها بلاء لا يقدر عليه إلا أولو العزم ممن امتحنهم الحياة
بشدائد فرضوا بها ورضيت بهم وأنت فيما أتصور شخصية حاملة .. نحلم
لنفسها بحياة سعيدة وبأشياء كثيرة ومثيلاتك يصعب عليهن تحمل الوحدة أو
تكريس العمر لرعاية الأطفال فاقدمي على التجربة ياسيدتي فهي حقك
المشروع .. وعزاؤك عما لقيت من غدر الأيام فإذا كانت الدنيا قد اهدرت
الحلم في تجربتك الأولى . فلعل الله يحققه في ظروف أكثر أمانا ودواما
واستقرارا إن شاء الله .

فوق السطح

أنا يا سيدى رجل فى منتصف العمر بدأت رحلتى فى الحياة فى أسرة صغيرة يراها أب موظف بالحكومة لا يملك سوى مرتبه وخلقه ودينه .. فربانا أنا وإخوتى على الاستقامة وحب الناس والخير والأمانة ، وأثمرت تربيته الجادة لنا فتخرجنا جميعا من الجامعات وشق كل إنسان منا طريقه فى الحياة ، وتخرجت أنا وتوظفت فى القاهرة وابتعدت عن أسرتى لأول مرة فى حياتى وفى هذه الفترة توفى أبى رحمه الله وتركنا وقد أدى واجبه نحونا خير أداء فى حدود إمكانياته البسيطة ، وبقى علينا نحن أن نواجه الحياة بما تعلمناه منه .

كنت فى الثانية والعشرين .. أسكن فى شقة من غرفتين بالدور الأرضى من بيت متهاك بأحد الأحياء الشعبية .

أنثت غرفة واحدة منها بسرير ودولاب وكرسى ووضعت فى الصالة مائدة صغيرة وكريسين وفى المطبخ بعض الأدوات الضرورية وأغلقت الغرفة الأخرى الحالية .. لعدم حاجتى إليها ولعدم قدرتى على تأثيثها وكانت هذه الشقة وهذا الأثاث المتواضع هما آخر ما حققه لى أبى قبل الرحيل عن طريق استبدال جزء من معاشه ، وبعد وفاته واجهت الحياة وحدى فوزعت مرتبى الصغير على مطالب حياتى البسيطة .. جزء للايجار والباقي للمواصلات والطعام .. وكانت وظيفتى تدر على بعض المكافآت السنوية البسيطة فكنت أعتمد عليها فى شراء

الملابس الضرورية .. مع ذلك فقد كنت راضيا عن حياتي وسعيدا رغم أن المستقبل لاح أمام عيني صعبا .. فلا أمل في زواج قريب .. ولا أمل في مسكن لائق يرى الشمس .. ولا أمل في وجهة اجتماعية تساعد على تحقيق التقدم في الوظيفة .. خاصة أنها كانت وظيفة ذات بريق يتقدم فيها من يملكون الإمكانيات المادية .. ويتعثر فيها أمثالي ممن لا سند لهم في الحياة ولا ظهور .. ولا إمكانيات .

ومع ذلك فلقد مضت الحياة بخيرها وشرها وحفظت عهدي لأبي أن أكون في عمل مثالا للأمانة وللضمير الحى كما عاش هو حياته فعاش راضيا عن نفسه رغم أن زملاءه قد سبقوه في سلم الترقى بسبب الأساليب الجانبية التي كان يرفضها ويغرس فينا كرهها والابتعاد عنها .

وكنت فعلا أمينا في عملي رغم إغراءات الانحراف الكثيرة فيه ، ولم ألق بالا لبعض زملاء السوء الذين تندرروا على بأن أمثالي لن يطفوا أبدا فوق السطح وسيظلون إلى آخر العمر في قاع المجتمع .

إذ كنت لا أتكسب من عملي كما يفعلون .. وأعيش حياة متقشفة في حين يعيشون هم حياة ميسورة لا تتناسب مع أوضاعهم .. ومع ذلك كنت راضيا بحياتي ونصيبي من الدنيا .. وكان يرضيني كثيرا أن رؤسائي في العمل كانوا إذا واجهوا أمرا يتطلب تنفيذه شخصا أمينا .. كانوا يختارونني « من بين هؤلاء الزملاء » ثقة في خلقي وأمانتي .

و ذات يوم كلفت بمهمة من هذا النوع .. وآسف لأني أتعمد عدم ذكر التفاصيل لكيلا يعرفني أصدقائي ، وكانت مهمة شاقة تتطلب بحثا ودراسة وفصلا في أمر يتنازعه طرفان مختلفان ، فأقبلت على أداء هذه المهمة بإخلاص .. وبعد ٣ أسابيع من العمل المضني والدراسة حاول خلالها أحد

طرفي النزاع استمالي إلى جانبه فصدته برفضى ، وقدمت تقريرى بما رأيته بضميرى أنه الحق والعدل ، وأخذ رؤسائى بتقريرى وعملوا به ، وانتهى الأمر بالنسبة لى .

وبعد ذلك بـ ١٠ أيام كنت جالسا فى مكتبى صباح أحد الأيام أقرأ صحيفة الصباح وأشرب القهوة وأتبادل الكلام مع الزميلين اللذين يقاسمانى نفس الغرفة .. حين دخلت المكتب سيدة ترتدى السواد وذات جمال هادئ ووقار وسألت : أين الأستاذ فلان ؟ فأشار لها زميل لى فتقدمت لى فى ثقة ومدت يدها لتصافحنى بحرارة فصافحتها مندهشا ودعوته للجلوس ونظرت لى مستطلعا .. فقالت لى إنها جاءت لى لترى أولا هذا الشخص الذى راعى الله فى عمله ولم يقبل أن يجحد عن الحق رغم المغريات وثانيا لتشكرنى إذ أنصفتها وهى الضعيفة من الأقوياء الذين أرادوا اغتصاب حقوقها .

فلم أفهم شيئا .. وقلت لها من أنت ياسيدتى ؟ فقدمت نفسها لى فإذا بها الطرف المظلوم فى النزاع الذى انتصرت له بغير أن أعرفه ورغم أنى لم أفعل شيئا سوى أداء واجبى .. فلقد أحسست بالرضا عن نفسى أن ساهمت فى إنصاف هذه السيدة .. بل وأسعدتنى كلماتها عنى وتأثرت بظروفها التى روتها لى ، إذ كانت أرملة وحيدة ينازعها أهل زوجها الراحل فى بعض عرض الدنيا الزائل .

وتبادلنا كلمات الجمالة المألوفة وحين استأذنتنى فى أن تستشيرنى بين حين وآخر فمما يواجهها من متاعب .. شجعته على ذلك بكل ترحيب ، وانصرفت وبالفعل .. لم تمض سوى أيام حتى اتصلت لى تطلب مشورتنى فى شىء فأشرت عليها بما رأيته ..

ثم اتصلت لى بعد أسبوعين مرة أخرى تستأذنتنى فى الحضور لى لأمر آخر

فرحبت بها وجاءت مرة ومرات .

ولا أطيل عليك فبعد عدة زيارات كانت قد نشأت بيننا علاقة متينة من الثقة والاحترام المتبادل .. بل والاحتياج المتبادل أيضا فلقد كنت شابا في الخامسة والعشرين من عمري أعيش وحيدا بلا أهل ولا أصدقاء وكانت هي أرملة في الثامنة والعشرين من عمرها تعيش وحيدة بلا أبناء ولا أنصار فيما تواجهه من متاعب كثيرة .

وكانت ذات وقار فلم تتبادل أبدا كلمات الحب .. لكن كل شيء كان واضحا لكل ذى عينين ، وحين لمحت إلى باحتياجها إلى .. لم اتردد في أن أصرح لها أنا أيضا باحتياجى لها ، لكن ظروفى لا تسمح لى بالاقتران بها إذ لا إمكانات مادية على الإطلاق .. ولا أمل فى توفير متطلبات الزواج قبل عدة سنوات ، فهزت رأسها فى حزن وقالت كلمة لم أنسها أبدا حتى الآن : ولماذا العذاب مادام الله قد يسر لنا الطريق ؟.

وفهمت ما تريد قوله .. كانت تقول ولماذا الانتظار إذا كانت إمكاناتها المادية كفيلة بتحقيق أمانينا الآن ؟ وترددت فى قبول الفكرة وطلبت مهلة للتفكير .. انقطعت هى بكبرياتها عن الاتصال لى خلالها وبعد المهلة اتصلت لى ودعنتى لزيارتها فى بيتها لتقدم لى بعض أقاربها ، وذهبت إليها وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها شقتها فقبولت بترحيب كبير من أهلها .. وبدأت هى سعيدة وكأنها حصلت على موافقتى على الزواج بمجرد قبولى لزيارتها .. وكان ذلك صحيحا إذ ما معنى أن أذهب لزيارتها لو لم أكن قد وافقت داخليا على الزواج ولم تمض أسابيع أخرى حتى كان الزواج قد تم .. وانتقلت إلى عش الزوجية فى شقتها وبدأنا حياتنا الزوجية الجديدة ، وحرصت زوجتى منذ البداية على إشعارى بأنى رجل البيت وحاميا وأملها فراعته دائما مشاعرى من

هذه الناحية ، وحرصت أنا من جانبي على أن أعطيها كل مرتبي فلا احتفظ منه إلا بخمسة جنيهات للمواصلات والقهوة والشاي في العمل .
ومضت حياتنا سعيدة وقد كشفت لي العشرة عن الكثير من سمات شخصيتها .. فقد كانت محرومة من الإنجاب ولم تحف ذلك عنى قبل الزواج ولم أهتم به . وكانت وحيدة أحس برعبها في أن تجعل منى زوجها وابنا لها ..

وبعد عامين من الزواج أرادت أن تشتري سيارة صغيرة لأذهب بها إلى عملي بحجة أن مركزي يفرض على ذلك فرفضت بإصرار .. ورفضت دائما أن أقبل منها أية هدية لاتسمح لي إمكاناتي بأن أرد لها مثلها .
وكانت تغضب وتبكي .. وتقول لي إن رفضي لذلك يعنى أنني لا أنظر إليها كشريكة عمر ، وانه يشعرها بعدم الأمان معي .. فكنت استرضيها وأؤكد لها أن مصيري قد ارتبط بها إلى آخر العمر .. وأنى لا أقبل إلا ما تسمح به إمكاناتي كرجل . وكنت صادقا في ذلك .. إذ كنت أقول لنفسي أحيانا ألا يكفي أنها تنفق على البيت وعلى ملابسها أضعاف ما أعطيه لها من مرتبي وهكذا مضت سنوات حياتنا الأولى بلا مشاكل تذكر ..

وقد وفرت لي زوجتي الاستقرار العاطفي والاجتماعي مما أغراني بمواصلة الدراسة التي توقفت عنها بعد التخرج .. وبالفعل عدت إلى الدراسات العليا وذاكرت ونجحت .. وحصلت على بعثة قصيرة لمدة عام لجمع مادة علمية من جامعة فرنسية فسافرت إلى فرنسا .. وكادت هي تجن عند سفري .. وودعتني باكية وودعتها حزينا ، وكنت أظن أنى سأستطيع الحياة وحدى في البعثة فلم احتملها وأسرت أدمعها للحضور فجاءت إلى طائرة على جناح الشوق وأقامت معي في المدينة الجامعية في غرفة لاتزيد على مترين في مترين

بها زاوية صغيرة للمطبخ ، وشبه خالية من الأثاث إلا من سرير صغير ومكتب ومع ذلك احتملت جفاف الحياة في بيت للطلبة بعيدا عن المدينة وكانت سعيدة .. وكنت أيضا سعيدا .. بل وارتحت إلى وجودها جانبي ومر عام البعثة طويلا كأنه دهر وراحت هناك ترعاني كما ترعاني في القاهرة وتسهر معي حين أسهر للمذاكرة ، ثم انتهت البعثة وعدنا إلى مصر وقد استقر في ضميري أني لا أستطيع الحياة بعيدا عن هذه السيدة ..

ومضت السنوات هادئة وقد تقدمت في عملي وتحسنت أحوالي المادية كثيرا بعد أن انتدبت للعمل في فرع إحدى الهيئات الدولية بالقاهرة .. وأصبحت قادرا على شراء سيارة من مالى فاشتريتها وماكدت اشتريها حتى تحررت هي مما فرضته على نفسها فاشتريت لنفسها سيارة لتسافر بها إلى البلدة التي تقع بها أرضها كل شهر مرة .. وانتهت المتاعب والحساسيات .. واطمأنت زوجتي من هذه الناحية .. فراحت تهديني في المناسبات هدايا فاخرة فأردتها إليها في مناسباتها بهدايا لا تقل عنها .

وقد تقدمت بنا سنوات العمر فبلغت الأربعين منذ عامين وبلغت هي الرابعة والأربعين . وبدأت تستسلم للزمن .. وكان مفروضا أن تمضى حياتنا في سعادة أبدية لولا أنني توقفت ذات يوم حين بلغت سن الأربعين وهي مناسبة مريرة لكل من عرفها لأراجع نفسي .. فإذا بي أقول لنفسي .. وماذا بعد ! لقد كافحت .. وعانيت وتكبدت الكثير من الآلام النفسية حتى أحافظ على كرامتي وحققته لنفسي الكثير مما كنت أصبو إليه .. لكن لماذا أحس دائما أن هناك شيئا ما ينقصني .. والعجيب أني لم أفكر في هذا الشيء الناقص إلا بعد أن بلغت الأربعين وبدأت أحس بأن العمر يسرقني .. ولم تحف عليها خواطري .. فراحت تسألني فأنكر مرة .. ثم اعترف مرة فتكدر .. ثم استرضيها

فترضى .. لكنها لاتنسى فتعود إلى سابق حالها من جديد ، وتنغصت الحياة بيننا لأول مرة .. وطال الأمر شهورا وعاما وعامين ..

وبعد عامين من الاضطراب .. لم أتوقف خلالها عن التصكير قررت أن أواجه الأمر بهدوء معها فقلت لها إنى اتذكر لك الكلمة التى كانت بداية لارتباطنا معا .. وهى لماذا العذاب وقد يسر الله لنا الطريق ! .

فقلت بتحفز : وماهو الطريق !

فقلت لها هو أن نحيا كما نحيا الآن حتى نهاية العمر .. وأن تأذى لى بقلب صاف بأن أتزوج لكى انجب طفلا ، نسعد به جميعا وتحقق به آمالنا ففكرت لحظة ثم أعلنت قرارها .. وهو أنها لاتقبل ذلك أبدا وأنه حين أقرر أنا ذلك فإنها سوف تضع النهاية لحياتنا معا .

وانقلبت الحياة فى عشنا .. فلم تعد إلى ما كانت عليه أبدا وأصبحت الأيام تمضى كحمية .. أنتظر أنا أن تغير رأيها .. وتنتظر هى أن أغير رأيى . وكلماء جاءت سيرة هذا الموضوع تكدرت حياتنا وقد حاولت اقناعها كثيرا فتمسكت برأيها بصلافة وكبرياء ، وحزن أيضا يمزق قلبى فيجعلنى أتوقف عن الحديث .. لكن النفس الشقية لاتسلوه أبدا .. فما أن أخلو إلى نفسى حتى أفكر فيه إننى أستطيع أن أفعل ما أريد .. لكنى أتمسك بأن أفعله بغير أن أشعر بالذنب تجاهها فإذا أفعل ياسيدى أليست هذه رخصة شرعية تبيح لى الزواج أو ليس من حقى أن استخدمها بغير أن أظلم أحدا وبغير أن يحس أحد تجاهى بالمرارة ؟

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : نعم ياسيدى هى رخصة شرعية كما تقول .. لكن لماذا لا نتذكر دائما أمثال هذه الرخص إلا بعد أن تصل سفيتنا إلى بر الأمان ونحس بقدرتنا على الاستغناء عن الآخرين ؟ ولماذا لاتتذكر الأشياء

الناقصة في حياتنا إلا عندما تعطينا الدنيا من متاعها ما يسمح لنا بالبحث عنها ولو أدى ذلك إلى إفساد حياتنا وسعادتنا .

إنني لا أناقش هذه الرخصة لأنها فوق كل مناقشة .. لكنى أذكرك فقط بأن رفض الزوجة الاستمرار في الحياة مع زوجها بعد زواجه من أخرى هو أيضا رخصة شرعية وقانونية لها .. فلماذا تريد أن تستخدم رخصتك وتأتي عليها حقها في استخدام رخصتها إذا أردت ذلك ؟.

إنك يا سيدى رجل أمين .. ترفض دائما مالا يقبله خلقك أو ضميرك .. ولقد تعففت عن مال زوجتك لكنك صنعت نفسك مستندا إلى ذراع هذه الزوجة المحبة التي جعلت منك زوجا وابنا ولم تشعر يوما معها بأى نقص في حياتك .. وقد كان ذلك يكفيك رغم تطلعك المشروع للإنجاب لو أردت ذلك وقنعت بما أعطتك الأقدار .. لكنك تريد لنفسك كل شيء والدنيا لا تعطي أحدا كل شيء كما تعرف .. وأنت تريد أن تستمتع بما ستفعل بغير أن ينقص عليك سعادتك إحساسك بالذنب تجاه من اتعستها بتطلعك إلى غيرها وتنتظر منها أن تعطيك مقدما صك الغفران لكي تكتمل سعادتك وهذا صعب المنال ياسيدى مها كانت أسبابك فما أظن أن هناك زوجة تحب زوجها وتخلص له تستطيع أن تسلم له بذلك وهى راضية فى أعماقها أبدا . لأنها بشر مثلك .. والحياة لا تستقيم لو صنع فيه كل إنسان ما يحقق له سعادته وحده على حساب سعادة الآخرين .

وفى حالتك بالذات فإني أجزم بأن زوجتك لن يخلو قلبها من المرارة تجاهك أبدا لو أقدمت على ماتريد .. سواء قبلت الحياة معك بعده أو رفضتها ، فلماذا المتاعب ياسيدى وقد كان الظن أن نسعد بما اعطتنا الدنيا ونرضى بما اختارته لنا الأقدار .. وتلمس السعادة فيما بين يدينا من أسبابها ؟

ومن هو ياسيدى الذى تخلو حياته نهائيا من الأشياء الناقصة مها كان نصيبه
من الدنيا؟.

أم أن الأمر هو دائما كما يقول العقاد :

تصفو العيون إذا قلت مواردها والماء عند ازدياد النهر يعتكرا!

أعاصير الحياه!

أنا شاب نشأت في أسرة ثرية وعريقة ، فعشت حياة ميسورة وحصلت على الثانوية الإنجليزية من القاهرة ثم سافرت إلى الخارج للدراسة الجامعية و عدت بعد ٤ سنوات حاصلًا على شهادة عالية .. وبدأت حياتي العملية ، وبعد شهر من عودتي خطر لي أن أقضى عدة أيام في الغردقة على ساحل البحر الأحمر فسافرت إلى هناك ، مع صديق لي ، وخلال رحلة العودة فوجئت وأنا أقود السيارة بسيارة تخرج فجأة من خلف لوري قادم من الاتجاه العكسي لتصبح خلال ثانية واحدة في مواجهة سيارتي بالضبط وأحاول تفادي الاصطدام بها فأعجز وأسمع صوت ارتطام السيارتين بعنف وأرى سيارتي تدور حول نفسها ثم تنقلب عدة مرات ونحن بداخلها ثم تستقر فوق الرمال .

وبعد وقت لا أدري كنهه فتحت عيني فوجدت نفسي في المستشفى ورأيت أشباحًا تتخايل أمامي ولا أستطيع تمييزها فأشعر بالرغبة في أن أسأل عما جرى فأجد صوتي غير قادر على الخروج وأحاول أن أشير بيدي ، فلا أجد سوى يد واحدة فأتمسك بها عيني فأجد واحدة مضمدة تمامًا فأدور بعيني الأخرى فيمن حولي فأجد أبي وأمي وأقاربي والجميع يبكون فتطوف عيني بباتي المكان لتستقر بعد قليل على قدمي فأجد أيضًا أنني فقدت إحداهما ...

وتتحجر عيني وأشعر بالرغبة في البكاء فلا أستطيع .. وأسمع كلمات كثيرة فلا أعي منها شيئاً .

وبعد أسبوعين خرجت من المستشفى .. وصحبنى أبي وأمي إلى الخارج لاستكمال العلاج وبعد رحلة طويلة لا داعي لكل تفاصيلها المؤلمة .. انتهى الأمر بي إلى تركيب ساق صناعية أما الذراع الصناعية فلقد وجدت شيئاً مينا لا حياة فيه ولا فائدة عملية له سوى إظهار الشخص وكأن له ذراعين ، لذلك فقد رفضتها بلا تردد وعدت إلى بلادي وأصبحت قادراً على المشي بصورة شبه طبيعية واشترت سيارة واستطعت بعد وقت قصير أن أقودها ببساطة أذهلت أهلي وأسعدتهم .

وبعد قليل سافرت مرة أخرى إلى إحدى دول أوروبا واستبدلت الساق الأولى بساق صناعية أخرى متقدمة جداً سعدت بها للغاية بسبب امكانياتها الواسعة وعرضوا على هناك تصميم ذراع متطورة لي فرفضت ما دامت لن تفيدني في وظائف الذراع . وعدت إلى مصر وروضت نفسي على قبول الأمر الواقع .. ودربت نفسي خلال عامين على الكتابة باليد اليسرى وأصبحت أكتب بها كما كنت أكتب تقريباً باليد اليمنى المفقودة ، وأقبلت على العمل ووسعت نشاطي فيه ، وبدأتني قد اجتزت الأزمة نهائياً لكن هذا كان تطوراً خادعاً فيما يبدو لأن حالتي النفسية ساءت فجأة وبلا مقدمات وألح على أبي بقبول العلاج النفسي وقبلت فشخص الأطباء حالتي أنها اكتئاب مزمن ولم يستطع العلاج ولا الأهل ولا الأصدقاء أن يخرجوني من حالة الاكتئاب هذه فعشت فترة طويلة لا أفعل شيئاً سوى أن أجلس على مقعدى المفضل أحملق في التلفيزيون بمجرد استيقاظي من النوم وحتى يبيء النوم مرة أخرى . بلا وعي فلا أتكلم إلا للضرورة القصوى وأرفض استقبال أصدقائي فهل تتخيل

ياسيدى كم استغرقت هذه الحالة ؟ ثلاث سنوات كاملة وأنا على هذه الحال اشتد على فيها الاكتاب فققدت ثقتى بالله - استغفر الله - ولعنت الدنيا ومن عليها .. وأصبحت اسال لماذا فعل الله بى هذا وتطورت الحالة فأصبحت عدوانيا .. وعجز أهلى وأصدقائى عن التصرف معى .. وفجأة سيطرت على فكرة الانتحار فحاولته ٣ مرات بثلاث طرق مختلفة فلم أنجح وأدخلنى الأطباء مصحة نفسية لخطورة حالى وخرجت منها بعد شهرين وقد تحسنت نسبيا لكنى لازمت البيت لأفعل شيئا سوى الحملقة فى التلفزيون لمدة ستة أشهرى كانت تتخللها بعض زيارات الأصدقاء الذين يتسوا تماما من شفقائى .

وذات يوم جاءنى بعض الأصدقاء فوجدونى منشرحا لأول مرة منذ سنوات فسمعوا بذلك جدا وسألونى عن سبب إنشراحى .. فترددت قليلا ثم قلت لهم إنى أشعر بتحسنى كبير لا أعرف سببه .. لكن هناك شيئا آخر حدث هو أنى رأيت فى الحلم أمس الرسول الكرىم سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام فهتف أحد الأصدقاء من رأى سيد الخلق فقد رآه حقيقة لأن الشيطان لا يتمثل به وهناك حديث شريف بهذا المعنى .

واستبشرت خيرا وتحسنت حالى كثيرا .. وبعد شهرين جاءنى أصدقائى فصارحتهم أنى رأيتهم صلى الله عليه وسلم مرة أخرى أمس وانهمرت دموعى لمدة ساعة كاملة استغفرت خلالها ربى كثيرا وندمت عما ساورنى من أفكار وظنون ، وشعرت كأن حجرا قد انزاح من فوق صدرى واستعدت صحتى النفسية مرة أخرى وأكد لى الطبيب أن ما حدث هو معجزة لا علاقة للأدوية بها ! .

وعدت كما كنت شابا مقبلا على الحياة وأصبحت أمارس أعمالى من جديد باهتمام ونشاط وبعد أن كنت أتذكر الحادث المؤلم بمرارة شديدة أصبحت

أتذكره وأذكره كأى مشهد عادى من مشاهد حياتى بل وأسخر منه أحيانا وأضحك حتى أنه حدث ذات مرة أن سألتى بائع كنت أشتري منه شيئا مشيرا إلى ذراعى المفقودة : حادثة ؟ فرددت عليه مبتسما .. لا .. عملية تجميل ! .
وعدت للتردد على النادى والجلوس مع أصدقاء الطفولة .. وهناك التقيت بها فتاة ملائكية جميلة من أسرة طيبة عريقة وثرية .. وكأننى كنت أنتظرها طوال هذه السنوات ومع ذلك فلم يكن حبا من أول نظرة ولا من عاشر نظرة وإنما حب قديم ينضج على نار هادئة من جانبا ومن جانبا حتى إذا وصلنا إلى الدرجة التى لا يمكن بعدها الصبر ، قررنا أن نتوج حبا بالارتباط وهى تعرف تماما ماذا يعنى هذا القرار بالنسبة لها من متاعب .

وفى بيتها واجهت فتاتى الملائكية العاصفة وحدها من أمها الأجنبية أما أبوها المصرى المثقف العطوف فلقد كان أكثر تفهما للموقف وأكثر تقديرا لمشاعرها العاطفية فراح يحاورها ليتأكد من صدق مشاعرها ومن أنها ليست مشاعر عابرة ولا هى شعور بالعطف وراح يناقشها ليتأكد من فهمها الصحيح لمعنى الحياة الزوجية والمشاركة وتقاسم أفراح الحياة وأحزانها حتى إذا اطمان إليها دعانى لمقابلته فذهبت إليه وأنا أفكر فيما سيقوله لى وجلست أنتظره فى الصالون حتى دخل فوجف قلبى ، لكنه ناقشنى مناقشة قصيرة كان حريصا خلالها على عدم جرح مشاعرى ثم سكت لحظة قبل أن يتسم ابتسامة تعلق بها أنفاسى ثم يقول مبارك باذن الله ويمد إلى يده ويقرأ معى الفاتحة ! .

وكانت مفاجأة سعيدة للجميع ، وتمت الخطوبة والزواج ، وعرفت السعادة الحقيقية لأول مرة فى حياتى منذ وقع الحادث إياه .. وزفت حبيبى إلى البشرى بعد شهرين بأنها حامل فحلقت فى سماءات السعادة ، واستمرت حياتنا كلها أنشودة من الحب والأمل والسعادة وأصبحت زوجتى فى منتصف

الشهر التاسع وحجزنا في أكبر مستشفى للولادة وخرجنا ذات يوم لنشترى بعض لوازم البيت أما لوازم المولود فقد اشتريناها منذ زمن ولم أجد مكانا خاليا لأنتظار سيارتي أمام المحل الذى أريده فنصحتنى زوجتى بالوقوف « صف ثان » والإسراع بإحضار الأشياء ودخلت المحل .. ونزلت زوجتى تفتح حقيبة السيارة الخلفية استعدادا لوضع المشتريات .. فإذا بسيارة مسرعة يقودها شاب صغير تتخطى السيارة التى أمامها فيفاجأ بسيارتي الواقفة « صف ثان » فيضغط على الفرامل بشدة ليوقفها فلا يستطيع وتسمع حبيبتى صوت الفرامل العنيفة وهى منحنية على حقيبة السيارة فتستدير لترى ما يحدث فتفاجأ بالسيارة المندفعة نحوها أما أنا فقد سمعت أصوات صراخ مجنونة من المارة وصوت الفرامل وأنا داخل المحل فخرجت لأرى ما حدث فوجدت حلقة من الناس حول سيارتي فاخترقتها بلهفة لأطمئن على زوجتى فلم أجدها داخل السيارة فعدت أخترق الزحام مرة أخرى أبحث عنها فإذا بي أجدها يا الهى .. يا الهى مسحوقه بين السيارتين .. وقد تدافع الناس يدفعون سيارتي للأمام ليخلصوها فما أن تحركت السيارة حتى تهاوت على الأرض .. و .. و .. ومدت ذراعها ناحيتي فاحتضنتها وانتهى كل شيء وطفلها وطفلي أكاد أراه بارزا يشهد على حبنا وعلى مأساتنا .. وعلى عذابى الذى لا نهاية له .

ورفضت أن أشهد الوداع .. أو أتلقى العزاء .. ولم تنزل من عيني دمعة حتى الآن رغم مرور بضعة شهور على هذا اليوم الكئيب لكن لم تعاودنى حالة الاكتئاب ولم أعد إلى الجلوس أمام التلفزيون ٢٠ ساعة كل يوم وإنما أمضى فى الدنيا أحمل عذابى داخلى وأتحرك به فى كل مكان .. أريد أن أسأل « لماذا » فيردنى دينى وإيمانى عن السؤال بعد أن سألت مرة نفس السؤال ففقدت نفسى ٤ سنوات طوال ولم يعدها إلى سوى عودة إيمانى .

أريد أن تنشر رسالتي هذه رغم آلامها لكي يعرف بعض المعذبين الذين يشكون لك همومهم أنهم ليسوا في الحياة ولكي يعرف بعض من يشكون لك الهموم الصغيرة أن هناك من هم أشد منهم عذابا فيرضون عن حياتهم وحالمهم ويعرفون أن بعض ما يشكون منه يعتبر لهواً وعبئاً إلى جانب آلام الحياة الحقيقية وأريد أيضاً بعد ذلك أن أجد لديك كلمة أو حلاً لا تستخدم فيه كلمة الصبر ولا تنصحني به لأنني صاغر ولست صابراً فهل لديك هذه الكلمة أو هذا الحل ! وهل لدى أحدكم مثل هذه الكلمة ؟.

□ □ ولكتاب هذه الرسالة أقول : لا تسل يا صديق عما لا حيلة فيه ولا فدرة لنا على دفعه ولا تسل عما يقف أمامه العالم والجاهل سواء عاجزين عن التفسير إلا بشيء واحد فقط هو التسليم بقضاء الله وقدره وهو من أركان الإيمان . إن العقل القوي هو الذي يعرف حدود قدرته فلا يتجاوزها إلى ما لا طاقة له به فتكسر أشرعه وتلاعب به الأمواج في بحار الظلمات . ولقد خبرت أنت نفسك ذلك حين تساءلت في محنتك الأولى « لماذا » ورفضت قبول الأمر الواقع والرضا به فدفعت الثمن غالياً من سلامك النفسي ومن صحتك وتجرعت آلاماً فاقت في شدتها آلام الجراحة التي تعرضت لها .

إن علينا دائماً يا صديق أن نعد أنفسنا لتقبل الحقيقة لأن التسليم بما حدث مهما كان صعباً هو الخطوة الأولى للتغلب على المصاعب والآلام ولأن رفضنا الداخلى للتسليم ببعض ما تحمله إلينا أمواج الحياة يهدر قدراتنا النفسية والعصبية والصحية بلا طائل ، فهذا الرفض يسجننا داخل دائرة التساؤل الأخرس لماذا حدث فلا نجد جواباً مرضياً .. ولا نكف عن المعاناة ولا نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام أما التساؤل الصحيح في مثل هذه الظروف فهو ماذا أفعل بعد أن حدث ما حدث لأنه يمكن أن يثمر فعلاً حركة على طريق الشفاء

وتحمل الآلام وأنت يا سيدى قد استغرقت ٥ سنوات من قبل لكى تسلم نفسيا بما جرى لك فى محنتك الأولى ، وحين سلمت بها انتهت الآلام وسخرت من المتاعب وتفتحت مسامك للحياة من جديد ووضعت الدنيا فى طريقك هذا الملاك البريء الذى لم يكمل بكل أسف مشوار الحياة معك ولو شاءت الأقدار غير ذلك لكانت لك نعم الرفيق والشريك فلا تكرر التجربة الأليمة ولا تهدر المزيد من سنوات العمر.. وأنت أحق الناس بالتماس السلوى وطلب العزاء ولا بد من أن تفتح مسامك للحياة من جديد وأن تنظر حولك لترى بعض ما عوضتك الدنيا به عن قسوتها عليك ، ولا تفقد الأمل أبدا فى حقك العادل من السعادة فإن كانت شمسها ولت بهذا الحادث المؤلم فإن غدا لناظره قريب .. ولسوف تشرق شمس سعادتك مرة أخرى بعد حين .

الأضافر الطويلة

أنا سيدة عمرى ٣٤ عاما ، منذ ١٠ سنوات تعرفت على مهندس شاب كان يقطن إلى جوارنا وتقدم لخطبتي ، وخلال شهور قليلة عقدنا القران وتم زفانى إليه فى شفته التى كان يعيش فيها مع أمه ورحبت بذلك لأنى وجدت فيه شابا ممتازا وزوجا حنوناً ولم أشعر بأى ضيق لوجود أمه معنا بل سعدت بها ووجدت فيها أمًا بديلة لى وأنا من حرمت من أمى فى سنوات طفولتى .. ثم من أبى فى صباى .

وكنى فى ذلك الوقت أعمل موظفة إدارية صغيرة فى إحدى الشركات فعرض على زوجى أن استقيل لاتفرد لبيتى لأن مرتبى من الوظيفة ضئيل وتستهلك المواصلات معظمه ، فلم أعارض فى ذلك ولم التفت إلى نصائح شقيقى الذى حذرنى من ترك العمل كضمان للمستقبل .

وبعد عام واحد من الزواج أنجبت طفلى الأول وشغلت برعايته فلم أشعر بأى فراغ بعد ترك العمل ، وسعد زوجى بذلك واطمأن فتفرغ لعمله وحقق فيه تقدماً وتمت ترقيته إلى وظيفة أعلى وجاءنى ليقول لى ، إن قدمى عليه كانت سعيدة فنذ تزوجنى وهو يتقدم فى عمله وسعدت بسعادته .

ثم بعد عام آخر جاء يعرض على فكرة السفر إلى إحدى الدول العربية التى تلقى منها عرضاً للعمل هناك ووجدت نفسى رغم عدم ميلى للسفر أشجع

وأؤكد له أنني سأصاحبه إلى أى مكان لكى يحقق طموحه وأحلامه ، وكانت أحلامه التى كثيرا ما حدثنى عنها هى أن يبدأ عملا حرا بعيدا عن قيود الوظيفة وأن يجمع المال الكافى لذلك ، فسافرنا معا من اليوم الأول .. ورفضت أن يسبقنى ليهيئ لى الإقامة هناك كما يفعل الكثيرون عند السفر للعمل فى الخارج ..

وكان مقر عمله فى منطقة صحراوية نائية لا تتمتع بالخدمات الحديثة الموجودة فى المدن الكبرى ورغم ذلك لم أترجع وأقنا أسابيع فى كشك خشبي فى موقع العمل ، كان قيظ الظهيرة فيه رهيبا حتى تم إعداد مسكن آخر فى بيت شعبي من دور واحد ..

وبدأ زوجى عمله وتفانى فيه كمعادته فأصبح يخرج فى السادسة صباحا ثم يعود فى الثانية عشرة ظهرا ليتناول الغداء معى ويستريح لمدة ساعة ثم يعود للعمل حتى الخامسة أو السادسة من مساء كل يوم .. وفى هذا البيت الريفى الصغير الذى لم تكن تتوافر فيه إمكانيات الحياة ولا الرفاهية التى يتصورها البعض عن العمل فى الخارج عشت أجمل أيام حياتى مع زوجى .. وتعلمت أن أخرج كل صباح وأمشى تحت لهيب الشمس إلى السوق الهندية على بعد كيلو مترا لأشترى الخضار والفاكهة وأعود لأطهو الطعام وأنتظر زوجى أما فى المساء فلم تكن لنا تسلية سوى التلفزيون لأن الرطوبة الحائقة كانت تمنعنا من الخروج أو الزيارات فى كثير من الأحوال .

وعشنا سنوات جميلة أنجبت خلالها ابنتى الثانية ثم ابنى الثالث ولم نغادر بيتنا الصحراوى ولم نعد إلى مصر وحين انتهت سنوات الإجازة بدون مرتب التى حصل عليها زوجى من عمله الحكومى فى مصر وطالبوه بالعودة سألتنى عن رأى فتركت له الخيار فى أن يفعل ما يريد . لكنى قلت له أنه ما دام

سيستقيل من عمله في النهاية لينشئ لنفسه عمله الخاص فإن الأمر لن يختلف سواء استقال الآن أو بعد قليل فلم يتردد وبعث باستقالته من عمله ..

وعشنا عامين آخرين انتهى بعدهما المشروع الذى يعمل به زوجى ولم يفكر فى البحث عن عمل آخر .. فعدنا إلى مصر ومعنا مدخراتنا لبدأ عمله الخاص وبعد بحث قصير وفق زوجى فى شراء بيت صغير من دورين فى إحدى مناطق القاهرة الجديدة وقرر أن ينشئ سوپر ماركت فى الدور الأرضى منه وأن نقطن الدور الأول ونترك الدور الثانى للمستقبل ، وألحقت أولادى بالمدرسة وتفرغت لإعداد الدور الأرضى والاشراف على التجارين والنقاشين وتفرغ هو لشراء البضائع حتى تم افتتاح السوبر ماركت خلال وقت قصير واستقرت حياتنا من جديد وبدأت أحس أنى قد ملكت الدنيا بيدي فزوجى فى عمله على بعد أمتار منى وأبنائى يتزلون ويصعدون بينى وبينه والعمل ناجح ويشر بالخير لأنه فى منطقة شبه خالية من المحلات وكما وجدت نفسى خالية من أعمال البيت نزلت إلى المحل وحللت محل زوجى على الكيس إذا احتاج زوجى للذهاب إلى أى مكان .

وبعد سنة أخرى توسع العمل ولم يعد العامل الوحيد بالمحل قادرا عليه فقرر زوجى أن يطلب موظفة لمساعدته ونشر إعلانا من ٣ سطور فى الأهرام جاءته بعده عدة فتيات رفضن العمل لبعده عن مساكنهن واستاء زوجى لذلك فهونت عليه الأمر بأن يعتبرنى هذه الموظفة المطلوبة لأنى سأعمل ٦ ساعات كل يوم بالمحل والتزمت بذلك واطمأن هو حتى كان صباح أحد الأيام حين دخلت السوبر ماركت فتاة تحمل فى يدها قصاصة الإعلان وتطلب العمل .. وسألها زوجى عما أخرها عن الحضور بعد النشر فقالت إنها لم تطلع عليه فى حينه لكنها اشترت شيئا ملفوفا فى ورقة الصحيفة فقرأتها بالمصادفة

وقررت أن تأتى لتجرب حظها وهى لا تتوقع أن يكون العمل منتظرا إلا بنسبة أمل ضعيفة جدا .

وسألنى زوجى عن رأى فأسررت إليه بأنى لم أرتح لها لأن ماكياجها زاعق ولأنها شديدة العناية بنفسها وبأظافرها الطويلة الملونة ولأنها لا تبدو على استعداد لتحمل شقاء العمل لكن زوجى رأى أن يجربها ولم اعترض .

وبدأت العمل واكتشفت بعد قليل أنها متزوجة وليست على وفاق مع زوجها وأنها خرجت للعمل بعد انفصالها عنه وعودتها إلى بيت أسرتها فى انتظار الطلاق ، وأحسست بشيء من التعاطف معها وعاملها زوجى بصبر وبدأ يعلمها إمساك الدفاتر والحسابات ويكلفها ببعض المهام التجارية ثم اصطحبها فى سيارته ليعرفها بعملائه لتكون مندوبته عندهم .. وبعد قليل حصلت هى على الطلاق بلا نفقة بعد تنازله عن كل شيء فقرر زوجى مضاعفة مرتبها لكيلا تترك العمل واستمرت عدة شهور أخرى لاحظت خلالها أن زوجى يتركنى فى المحل كثيرا ويصطحبها معه فى سيارته للذهاب إلى الشركات التى يتعامل معها .. وبدأ الشك يورق صدرى وأنا أراها تزداد عناية بملابسها وبفئسها .. وبما لا يتناسب مع مرتبها وهو موردها الوحيد ..

واشتدت لى الهواجس وأمضيت ليلة مسهدة لم أستطع النوم فيها دقيقة واحدة وعندما فتح زوجى عينيه فى الصباح بعد نوم هادئ سعيد وقال لى : صباح الخير فاجأته بقولى : أريد أن تترك فلانة العمل عندنا ! وعلى عكس ما توقعت لم يفاجأ زوجى بالطلب .. وإنما طلب منى أن أفكر بهدوء ! وهدوء غريب راح يقول لى : إنها الآن عمود أساسى للعمل فى الشركة وأنها نشيطة وقد أنهت له أعمالا صعبة وكسب من وراثتها كثيرا وأنه سيتوسع فى نشاطه ويفتح فرعا آخر وسيعتمد عليها فى إدارته أما مخاوفى منها فلا مبرر لها ورغم

عدم اقتناعي الكامل بما قال إلا أني لم أستطع أن أقنعه بما أريد ، ولاحظت أنه قد كف بعدها عن اصطحابها في سيارته إلى المهام التجارية لكن خروجه وحده ليلا قد ازداد .

وبعد عدة أسابيع عذبنى الشك مرة أخرى فصارحته بشكوكي فألقى علي بمفاجأة عمري إذ قال لي ببساطة أنه تزوجها منذ أيام مبررا ذلك بأن هذا هو أمر الله ! وأن الوضع لن يختلف وأن هذا أفضل من الخطأ .. وأن وأن ... فصرخت من أعماقي لأول مرة منذ تزوجته وانفجرت في البكاء والعيول حتى فزع أبنائي وجاءوا باكين صارخين .. فكففت عن الكلام وانتهرت هو الفرصة وخرج من البيت وأسعدت أبعد أبنائي إلى غرفتهم وعدت لغرفتي وأنا أتساقط إعياء وأمضيت اليوم في غرفتي كالمجنونة أتجول فيها ذهابا وإيابا ، وأقف أمام المرآة وأسأل نفسي : ماذا بي ياربي لكي يتزوج من أخرى أني جميلة ومحجبة ولا أضع المساحيق ولا أطيل أظافري ولا ألونها لأنني أعمل بيدي في البيت ومعه في كل شيء وقد شاركته كل المسئوليات وتحملت جفاف الحياة معه قبل السفر وتحملت الحياة لمدة ٦ سنوات في هجير الصحراء !! فلماذا يغدر بي هل كان لزاما على لكي أحتفظ بزوجي أن أتفرغ لاطالة أظافري والعناية بها وأن أضع الماكياج الصارخ وأخلع الحجاب وأتفرغ لتلميع نفسي فقط ثم ماذا أفعل الآن ياربي وأين أذهب بأولادي وأنا يتيمة ولم يعد لي مأوى بعد أن تزوج شقيقاي الاثنان منذ سنوات في شقة الأسرة وتقاسما غرفها .. ومر على النهار ثقيلًا بطيئًا كأنه عام طويل وغاب هو فلم يحضر للغداء وفي المساء كان تفكيري قد هداني إلى إنه مادام قد تزوج وأصبح الزواج أمرا واقعا فلا معنى لأن أترك كل شيء لهذه القطة الغادرة وأن على أن أدافع عن حياتي وأحتفظ لأبنائي بحقهم في أبيهم وجاء هو في المساء فاعتزلته

ونمت مع أبنائى وعشنا يومين لم نتبادل فيها كلمة واحدة .. حتى فوجئت بحركة غريبة على سلم البيت فخرجت لأرى ما يجرى فوجدت عمالا يحملون أثاثا إلى الدور الثانى من البيت واكتشفت أنه أثاث العروس الجديدة من زواجها السابق ، وبخشت عن زوجى وأنا كالمجنونة فجاء مسرعا واعتذر بأنه اضطر لإسكانها فى الشقة العليا مؤقتا وأن هذا الوضع لن يستمر طويلا .. و فلم أجد ما أقوله سوى حسبي الله ونعم الوكيل .. فى بيتى يا زوجى العزيز ! وتحت أنظارى ! .. ألا تراعى حتى شعورى لكنه فيما يبدو كان مطمئنا إلى عدم قدرتى على المقاومة والرفض إذ ماذا سأفعل لو رفضت وصرخت وبكيت وإلى أين أذهب بعد ذلك ؟! أما زوجى - سامحه الله - فقد تهادى بعدها إلى أبعد الحدود فبعد أن انتهى من فرش الشقة جاء إلى وطلب طعاما أحمله إليها فى الشقة العليا وبعد انتهاء الأكل أعاد إلى الأطباق لكي أغسلها !

وكرر ذلك عدة أيام حتى دخل على مرة المطبخ وأنا أغسل الأطباق بدموعى فرق قلبه الحجر لى وربت على كتفى وقال لى أن هذه آخر مرة ولن يكررها .. فقلت له إني قد سلمت أمرى إلى الله لكنى لا أطلب منه سوى إبعادها عن البيت وعن العمل وأنى سأقوم بعملها فى المحل وسوف أودى كل ما يطلبه منى وأن هذا هو كل ما أطلبه منه باسم الحب القديم والعشرة وسنوات الكفاح والأبناء الذين يجمعون بيننا .

فاستجاب بعد الحاح لندائى واستأجر لها شقة فى حى آخر ونقلها إلى المحل الجديد الذى يؤتمه الآن ونزلت أنا إلى العمل بدلا منها واعتقدت أن أكبر مشاكلى قد انتهت لكنه لم يدعنى لحالى فبدأ يتسقط لى الأخطاء فى العمل ويلح على أن أسمح بعودتها للعمل على أن تستمر فى الإقامة فى الشقة البعيدة

وأنا أرفض ومازلت أرفض لكنى ضعيفة وأخشى أن استسلم لرغبته كما تعودت دائما وعندها سيتضاعف عذابي مرة أخرى فإذا أفعل وهل أنا على حق في إصرارى على إبعادها عن العمل لكيلا أتعذب كل يوم برؤيتها في المحل وبما أعانيه من آلام كلما رأيتها معا أمام عيني 1 .

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : لا ياسيدتى لم تخطفى بإصرارك على إبعادها عن العمل لكيلا تتعذبنى برؤيتها وهي تنشب أظافرها الطويلة كالمخالب في عش أحلامك وتتزعج أوراقه ورقة بعد أخرى كل يوم ، فهذا هو أبسط حقوقك وعليك ألا تفرطى فيه أو تتنازلى عنه بعد أن تنازلت عن الكثير من قبل لضعفك وقلة حيلتك وعلى زوجك أن يتقبل ذلك وأن يقر لك به ليس فقط لأنه من العدل وإنما أيضا لأنه من الرحمة التى هى فوق كل الاعتبارات . بل وعليه أيضا إن لم يرض عن عملك أن يجد بديلا لك على أن يكون موظفًا هذه المرة لكيلا تتكرر المأساة فأنت لست ملزمة بأن تحلى مكانها في العمل لكي يرضى بإبعادها عنك وأنت كزوجة وربة بيت وأم لثلاثة أطفال صغار لديك ما يكفيك من الأعباء وما يغنيك عن تقديم مثل هذه التضحية الجديدة لكنك آثرت أن تواصلى التضحية معه استمرارا لنهر العطاء الذى يتدفق منك إليه منذ سنوات طويلة وتيسيرا للأمر عليه .. فإن لم يقدر لك تضحيتك حق قدرها ويكف عن تسقط الأخطاء لك والإلحاح على تعذيبك بعودتها فليفعل بعمله ما يشاء لكن لا تستسلمى أبدا ولا تقبلى عودتها مهما فعل فالحق أن هناك حدودا للاستكانة والمسألة والسلبية ولا معنى لتضحياتنا إذا لم يفهمها الآخرون ويقدروها وأنت فى النهاية قد سلمت بالأمر الواقع حرصا على بيتك وأبنائك .. وأملا فى أن يرجع يوما عن نزوته وهى نزوة مها اتخذت شكل الزواج المشروع لأن القطط التى لا تفعل شيئا سوى السطو على ممتلكات

الآخرين والتفرغ للعق جسمها والعناية به لا تعمر بيتا ولا تصمد للشدائد ولا تطول الحياة معهن . وإنما تصمد للحياة مثيلا تلك من الزوجات الفضليات اللاتي يفهمن الحياة الزوجية فهمها الصحيح ويعرفن أنها شركة في الكفاح وأمومة وعطاء وواجبات وحقوق متبادلة . فإن كسبت الأظافر الطويلة جولة فإن الفوز في النهاية يكون غالبا للأيدى الطاهرة التي لم تغتصب حقوق أحد ولم تمتد لشريك الحياة إلا بالعطاء والتضحية ..

إن آفة بعض الأزواج أنهم يكررون دائما النموذج البغيض للرجل الذي ما أن يرتوى ماليا بعد الجفاف حتى يفقد مناعته ويصبح عرضة لأي نزوة عارضة تستنزف ثمار كفاحه الطويل مع شريكته الأولى التي قاست معه جفاف الحياة ونسجت معه خيوط نجاحه ، فإذا ما عوتب أحدهم عن غدره بشريكة كفاحه لم يجد ما يبرر به الغدر سوى « أمر الله » كما قال لك زوجك وهو ليس كذلك بكل تأكيد وإلا فليقل لي أحد لماذا لا يصادفنا أمر الله هذا إلا بعد تحقيق نجاحنا المادى ونعرف طعم الثراء والوفرة بعد الجفاف !!

وأليس من أمر الله أيضا الوفاء لمن قاسمتنا حلو الحياة ومرها وانجبت لنا البنين ومازال المشوار طويلا لرعايتهم وتنشئتهم ؟.

إننى أعرف أن رأيي هذا لا يعجب بعض الرجال الذين يعتبرون الزواج الثانى أمرا مشروعا بحجة إباحة تعدد الزوجات لكن هؤلاء يعرفون أكثر منى أن تعدد الزوجات رخصة مشروطة بشرط العدل كما شرع أيضا للضرورة وليس للمتعة فقط أو استجابة للنزوات بلا أى مبرر . لهذا كله كان ما فعلته هو الصواب حين قررت أن تدافعى عن مملكتك ضد من أرادت غزوها فالحق أنى لست من أنصار أن تلقى الزوجة سلاحها عند أول طلقة وأن تسلم زوجها لمن لم تشارك فى بنائه ولم تتحمل معه صعوبات الحياة لكى تجنى هى بلا تعب

ثمرة شقاء السنين . وتعرض الأبناء للعواصف والزوايع .
فاصمدى يا سيدتى ... ولا تقبلى عودتها إلى العمل مهما حاول
زوجك ، ففي رغبته في عودتها لكي تكون تحت أنظارك سادية لا مبرر لها .
ولا تكفى عن محاولة استعادة زوجك بالصبر والنفس الطويل والمعاشرة الطيبة
وحسن رعاية الأبناء وحسن العناية بنفسك بغير انزلاق إلى تقليد غريمتك في
سلوكها ومظهرها . وسوف تنتصرين في النهاية لأن السحب الكثيفة لا تحجب
ضوء الشمس إلى الأبد ولأنه لا بد أن يتحقق العدل الالهى يوما ما مهما طال
انتظاره !

وليد الصّير

دفعنى لأن أكتب إليك هذه الرسالة ... ما قرأته فى الرسالة التى نشرت منذ أسابيع بعنوان «المشروع» عن الشخص الذى بلغ الخمسين ولم يتزوج لأنه مازال «يدقق» فى اختيار شريكة حياته رغم توافر إمكانيات الزواج لديه منذ سن الرابعة والعشرين ، فلقد أهاجت هذه الرسالة مشاعرى وذكرىاتى ، وأعجبني ردك عليه لأنه شفى غليلي ممن تعطيه الدنيا فلا يقدر نعمة الله عليه حق قدرها ... وسأروى لك قصتي لتعرف ماذا أقصد بذلك : فنذ سنوات كنت طالبا جامعا ، أقيم فى شقة فى حى قريب من الجامعة أعيش فيها مع أبى وحدنا بعد رحيل أمى وانتقال أختى الوحيدة إلى بيت زوجها فى بلدة بعيدة عن القاهرة . وكان أبى من رجال التعليم بالمعاش وقد كرس حياته لرعايتي وكل شاغله العمل على راحتي ومساعدتي على استكمال تعليمي وكان صديقا لى ولأصدقائى يحبهم ويحبهونه ويحترمونه وكان يساعدنا فى فهم دروس الأدب الانجليزي وكنت أصارحه بكل شىء فى حياتي وأستشيريه وحين عرفت الحب لأول مرة فى السنة الثالثة من دراستي الجامعية وارتبطت بمشاعر عميقة مع زميلة لى طيبة القلب والروح وجميلة اعترفت له بمشاعرى فسمعتى باهتمام وسألنى عن ظروفها ، وطالبني بأن أكون جادا معها ... وأن أجتهد وأنجح لكى أكون جديرا بها ، وراح بعد ذلك يسألنى عنها من حين إلى آخر ثم

فوجئت به ذات يوم ينتظرنى على باب الجامعة وأنا خارج معها تمشى حتى محطة الأتوبيس لتركب إلى بيتها وأعود أنا ماشيا إلى بيتي القريب فأسرعت أرحب به فتقدم وصافحها وتجادب معها الحديث فى مودة وألفة وانتظر معى حتى ركبت ثم عدنا إلى البيت فوجدته يفاجئنى بأنه قد سأل عن أسرتها وعرف كل ظروفها العائلية وأبدى خوفه من أن أصطدم بمشكلة عندما أتقدم لخطبتها لأنها تعيش فى كنف شقيق يعمل بالقطاع العام ويعيش فى مستوى حياة أعلى من إمكاناتنا .. وقال لى متأسيا : إنها يتيمة ووحيدة مثلك ... فعسى أن يقدر شقيقها هذه الظروف وألا يقف فى طريقكما .

ومضت الأيام بنا وارتباطى بفتاتى يزداد كل يوم وفى السنة النهائية رأت فتاتى أن أتقدم لخطبتها قبل أن يتقدم أحد فتتعقد الأمور ، وفأتمت أبى فأبدي استعداده رغم مخاوفه ، واتصل بشقيقها طالبا زيارته ، وذهبت معه فى الموعد المحدد فاستقبلنا الشقيق بحباد ولم يعدنا بشيء لكنى ذهلت فعلا من مستوى مسكنه والبدخ الظاهر فيه ... رغم أنى أعرف أن حبيبتى لم ترث إلا القليل وانصرفنا من عنده ونحن ضائقان بفتوره وعنجهيته وفى اليوم التالى أبلغتني فتاتى أن شقيقها لا يرحب بى لأنى لا أملك شيئا رغم إعجابه بشخصية أبى ، وطالبتنى بألا أتخلى عنها مها حدثت ونقلت لأبى حديثها فاعتم لذلك كثيرا .. لكنه لم يرفض أن يحاول معه مرة أخرى واتصل به وذهب إليه وعاد بلا جديد ومرت الشهور وتخرجنا وتوقفت لقاءاتنا فى الجامعة ... لكن الاتصال التليفونى لم ينقطع ... وكرر أبى المحاولة مرة ثالثة .. وأشفت عليه من المهانة فطلبت منه ألا يذهب إليه مرة أخرى وطلبت من فتاتى أن تتولى إقناع شقيقها ، فجاءتنى باكية فى اليوم التالى تقول لى : إنه سيخطبها لابن مدير بالشركة التى يعمل بها يعتبر صديقه الوحيد وكانا معا موظفين بالحكومة

قبل أن يتقلا لهذه الشركة وأكدت لى فتانى أنها ستقاوم حتى النهاية وأنها حين تأس من إقناعه سوف تأتى إلى بيت أبى لنعقد القران وتقيم معنا ونحيا حياتنا إلى أن ييسر الله أمورنا وعرضت الأمر على أبى فأبى ضميره الدينى أن يساعدها على عصيان شقيقها الذى رباها بعد موت أبيها ، وطالبنا بالصبر لكنه شغل بالأمر طويلا ... فأصبح لا ينام ولحته ذات ليلة يبكى فى صلاته صامتا ثم ينظر لى بعدها ويقول كأنه يحدث نفسه لقد عشت حياتى شريفاً لم أقبض مليماً حراماً ... ترى هل كان ضرورياً أن أكون مرتشياً لكى أجنبك هذا العذاب ١٩ فأسرعت أقبل يده وأقول له : إنى أتية به على العالمين ، وإنى راض بما اختاره لى الله .

ومرت الأيام وجاءنى تعيين القوى العاملة فعينت فى وظيفة لائحة فى القاهرة وفوجئت بتعيين فتانى فى فرع نفس المؤسسة بالاسكندرية وتقصيت الأمر فعرفت أن شقيقها هو الذى سعى لتعيينها هناك لتعيش مع شقيقتها وليبعدها عنى تمهيداً لتزويجها من ابن صديقه الذى يدير عملاً خاصاً هناك وجن جنون أبى فذهب إلى شقيقها بدون علمى ... وفقد أعصابه معه واتهمه بالقتل العمد لائنين تبادلوا المشاعر الشريفة وتحمل الشقيق ثورته فى برود وعاد أبى مهزوما حزينا .

وأشفقت عليه فظاهرت أمامه بأنى لم أعد متمسكاً بها وبدأت أخفى عنه اتصالاتها لى من الاسكندرية وخطاباتها ، وخطبتها مرغمة لابن المدير إياه وموعد زفافها القريب إلى أن جاءت الليلة الموعودة وكانت ليلة جمعة كالعادة فخرجت فى المساء لأتمشى لأهرب من عين أبى فبدأ لى كأن الدنيا كلها تتزوج فى هذه الليلة التعسة . فكلما مررت من شارع وجدت فيه فرحاً وأنواراً يذكرنى بزفاف حبيبى وكلما دخلت حارة وجدت أمامى زفة عروس فعدت إلى البيت

مختنقاً ولم يغمض لى جفن حتى نهض أبى ليصلى الفجر .
ومرت الأيام ... ولم تنقطع عنى أخبارها فى المؤسسة ... فعن طريق
الزملاء الذين يزورون الفرع فى مهام رسمية ، عرفت الكثير عنها ... ففرفت أن
زوجها أراد لها أن تستقيل لكنها تمسك بالعمل ، وعرفت أن زوجها ينفق
بيدخ ويركب سيارة فارهة لكنها لا تبدو سعيدة وكانت تحمل كل من يزور
الفرع تحياتها لى باعتبارنا زميلين سابقين فى الجامعة ، وبعد عامين أنجبت طفلة
لكن حياتها الزوجية شهدت خلافات حادة ، تركت بسببها بيتها عدة مرات
وطالت إحداها لى ٣ شهور وأنه كثير العلاقات النسائية والمشاكل معها .
وكان أبى يعيش حياته الهادئة وقد زادت الشيخوخة جالاً ووقاراً فيخرج
فى الصباح لى المقهى ويعود فى الظهر فيقرأ ويسمع الموسيقى ويطهو الطعام
الذى تعلم طهيه خلال بعثته الدراسية لى اكستر فى إنجلترا فى شبابه حين كانوا
يرسلون خريجي كليات المعلمين زمان للدراسة هناك لمدة عام لكنه لم يكف
عن سؤالى عنها بين حين وآخر وفى إحدى المرات حدثنى طويلاً لأول مرة عن
حب شبابه الذى حالت دونه ظروف الحياة ، وكيف تألم مثلى ثم طابت نفسه
بعد حين وتزوج من أمى وأحسن عشرتها ووجد لديها ما عوضه عما حرم منه
وكيف عاشا رحلة العمر كلها فى سعادة وهدوء ، وطالبنى بألا «أزعل» من
فتانى لأنها مغلوبة على أمرها مع شقيقها المتكبر ، وأن أفعل كما فعل هو وأبحث
عن أخرى أستريح إليها وأخطبها ووعده بذلك وأحبيته ليلتها كما لم أحبه فى
حياتى بعد أن عرفت لماذا كان شديد الاشفاق علىّ من ضياع حبي ، وفى
اليوم التالى لهذا الحديث الصريح رحل أبى عن دنيانا فجأة وهو يقرأ الصحيفة
فى المقهى وخلت الدنيا من صديقى ونصيرى الوحيد فى الحياة وبعد أيام
جاءتنى رسالة عزاء مبلة بالدموع من فتانى السابقة احتفظت بها فى حافظة

نقودى باستمرار لتذكرنى بأحلامى الضائعة ومرت الأيام وبدأت أفكر فيما قاله لى أبى ... وبدأت أستجيب لمحاولات الاقتراب منى واقتربت بالفعل من زميلة وأخرى وثالثة لكنى لم أستطع أبدا أن أستشعر المشاعر القديمة مع أى منهن وخطبت جميعاً لغيرى بلا ندم منى ولا منهن وبدأ لى أبى قد حكمت على نفسى بالعزوبة بعد أن بلغ عمرى السابعة والثلاثين .

وذات صباح كنت أتصفح الصحف فى مكتبى بالمؤسسة فإذا بى أجد صورة الشقيق المتكبر مع آخرين فى قضية من قضايا الانحرافات الخطيرة واشتعل اهتمامى فالتهمت السطور وعرفت سر الكبرياء والصلف الزائف واكتشفت أن شقيق فتاقى الذى بدأ حياته موظفًا عاديًا فى الحكومة انتقل مع رئيسه إلى شركة من شركات القطاع العام فى أواخر الستينيات فكون المدير شركة خاصة صغيرة باسم ابنه جعل مقرها الإسكندرية وراح بمعاونة شقيق فتاقى يديران الشركة العامة لحساب هذه الشركة الخاصة فيتنازلان لها عن مزايا وعمليات ، ويعطلان إنتاج شركتهما ليشحا لها تصريف إنتاجها المائل ... إلخ وحققا بذلك ثروة محرمة ووجدتني مشغولاً بأمر فتاقى وأسرت أتصل بالفرع لأسأل عنها فلم أجدها ووجدت لدى الزملاء كل التفاصيل ... لقد أحس زوجها بالخطر عند بدايته فسافر فى مهمة إلى أوروبا ولم يعد وترك وراءه كل شيء ثم أرسل يستدعى زوجته وطفلها فاستمهلته الزوجة حتى تؤدى الابنة الامتحان فإذا بالقضية تنفجر ويصدر قرار بالقبض عليه فيمتنع عن العودة . ووجدت قلبى يخفق بالألم لها وتوالت فصول القضية ... وتحدثت أول جلسة للمحاكمة ووجدت نفسى مدفوعاً بقوة لا تقاوم للذهاب إلى الجلسة ، لا لأشمت فى الشقيق الذى هدم أحلامى معاذ الله فليس من طبعى الشماتة بأحد ولو كان منحرفاً وإنما لأرى شقيقته التى لا بد ستحضر الجلسة ورأيتها

وسط سيدات الأسرة ترتدى السواد وقد تغضن وجهها وكبرت سنوات وسنوات عن عمرها الحقيقي وهى تبكى بجوار القفص وتتحدث مع شقيقها ثم بدأت المحاكمة ومضت الساعات وأنا لا أسمع كلام المتكلمين ولا أرى غير وجهها الحزين بالنظارة السوداء وكنت جالساً خلفها بصفيين إلى اليمين فلم تتحرك عيناي عنها حتى التفتت إلى الوراء لحظة وعادت للنظر أمامها فاهتز رأسها بعنف والتفتت للخلف مرة أخرى وعلت الدهشة وجهها ثم خلعت النظارة وابتسمت لى ابتسامة خجولة وجاءتني بعد الجلسة وخروج المتهمين ياربنى كأن شيئاً لم يكن وكان ١٥ عاماً لم تمر من عمرينا وتحدثنا قليلاً بلهفة ثم انصرفت مع سيدات الأسرة على موعد للقاء غداً فى المؤسسة وجاءت واستمرت المحاكمة شهوراً وانتهت بأحكام قاسية على المتهمين الثلاثة ووجدتها مهمومة بمصير شقيقها وأبنائه وزوجته فخففت عنها قدر جهدى وكانت قد حصلت على إجازة بدون مرتب لتتفرغ للقضية والمحامين فأصبحت أراها كثيراً كأننا مازلنا فى الجامعة ... وكان لقاؤنا أمراً لا يحتاج إلى مناقشة وفى هذه الأثناء اتصل بها زوجها الذى استقر كالمطارد فى إحدى الدول الأوروبية يطالها بالسفر إليه فرفضت لكيلا تحكم على ابنتها بالغبية إلى الأبد ووجدتها تطلب منه الطلاق وتتفاهم معه على أن يترك لها ابنتها على أن تسمح لها بالسفر كل صيف ليراها إذا أراد ووافق بسهولة على الطلاق وعلى احتفاظها بابنتها لأنه خشى عليها من الحياة وحدها فى أوروبا وتنازلت له مقابل ذلك عن كل حقوقها وعن شقة الإسكندرية . وبعد شهر من وصول وثيقة الطلاق ... ذهبت إليها فى بيت شقيقها الغائب وقلت لها إنه ليس لدى ما عرضه عليك سوى حبي وإخلاصى ... فهل يكفيان ليعوضاك عن مستوى الحياة الذى تعودت عليه ... فتولت زوجة شقيقها الإجابة عنها أما حبيبتى فلقد رجعتنى أن

أنتظر أياماً حتى تستأذن شقيقها قبل عقد القران وعادت من الزيارة تؤكد لي أنه بكى وهو يوافق على زواجي منها وطلب منها أن تسامحه لأنه أتعبها فسامحته بقلب صاف من الموجدة .

وعقدنا القران في بيته وكان منظرنا مؤثراً والعريس في التاسعة والثلاثين والعروس في السابعة والثلاثين والمأذون يعقد قراننا وعيون الجميع تدمع لحظة العقد الذي تأخر ١٥ عاما وأردت تأجيل الزفاف بضعة أسابيع لكي أعد الشقة بشكل يليق بها فرفضت فتأني التأجيل .

وأصرت على أن نتزوج وأن نعد شقتنا خطوة خطوة كما كنا سنفعل لو كانت الأحلام قد تحققت في شبابنا وتم زفافنا المؤجل ... وراحت زوجتي تفصل الستائر ، وترفو السجاجيد القديمة وترين الجدران وتدهن المطبخ وتجدد إطار صورة أبي الذي أحبته وبكته حين رحل ، وتنتقل من مكان إلى مكان كالفراشة في الشقة القديمة وهي سعيدة وكلما أشفقت عليها من المجهود أكدت لي أنها لم تعرف الراحة خلال السنوات الطويلة إلا في هذه الشقة العتيقة وانتهت إجازتها وجاءت تسألني رأبي في العودة للعمل أو البقاء في البيت فتركت لها الحرية في اتخاذ القرار ، فقالت لي إنها تمسكت بالعمل في السنوات الماضية رغم ثراء زوجها السابق لأنها لم تكن تحس بالأمان معه ، لكنها الآن ترغب في التفرغ لبيتها وزوجها فترة أطول لذلك ستجدد الإجازة ... وبعدها تنظر في الاستمرار أو الاستقالة وسعدت بقرارها وبعد شهر أنجبنا طفلاً وليد الصبر والإصرار والعناء والآن يبلغ عمر ابنتي ١٣ سنة وعمر ابني عامين وكل يوم يمر بنا أحسن أن زوجتي تعود إلى الوراها من عمرها وقد اختفت الغضون من وجهها واستردت جلالها القديم ... أما أنا فأمسك الخشب فإن زملائي يقولون لي إنني قد استعدت شبابي الذي راح في سنوات المعاناة ، لهذا

فقد غاظنى هذا القارئ الذى كان يملك الإمكانيات الكافية للزواج فى سن الرابعة والعشرين لكنه يستخسر نفسه فى الأخرى حتى بلغ الخمسين ومازال يبحث عن شريكة لحياته فدفعتنى رسالته لأن أروى لك قصتى لأقول له إنه لو كان عندى ما عندك وأنا فى الرابعة والعشرين من عمري لما عانيت القهر وأنا أرى فتاتى تضع مئى لنقص إمكانياتى ... ولما ضاعت ١٥ عاما من عمرينا ولما أنجبت وليدى الأول فوق الأربعين ، لكن الحمد لله على كل حال ..

والحمد لله على أن جمع شملنا بعد العناء والسلام .

ولكاتب هذه الرسالة أقول : نعم يا صديق الحمد لله على كل حال .. وينبغى دائما أن نقول ذلك مهما حملت إلينا أمواج الحياة من تطورات ، فالحياة بحر متلاطم يحمل الجديد والفريد والغريب فى كل يوم ، وعلينا دائما أن نتقبل أقدارنا بشجاعة وبصبر ، فإن لم تجئ إلينا الأمواج بما نريد فلربما حملت إلينا بعد قليل ما يعوضنا عنه .. فلا أحد يعرف ماذا ستفعل بنا الأيام غدا .. والزمن هو أعظم المؤلفين كما قال بحق ذات يوم فرنسيس بيكون ، ولو لم يكن كذلك . لما اجتمع شملكما بعد هذه السنوات الطويلة .. ولما تزلزلت الأرض فهدمت بناينا .. وشردت أشخاصا وفرقت شمل آخرين لكى يجتمع شملكما .. ويقوم هذا العش الصغير على غير انتظار لقد ذكرتنى قصتك العجيبة هذه ببيتى الشعر اللذين يقول فيها الشاعر :

نقل قوادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبدا لأول منزل

نعم يصدق ذلك في بعض الأحوال كما في قصتك لكنها ليست القاعدة دائماً ، لأن هدير الحياة يحرف أحياناً المنازل القديمة من القلوب ويقيم بدلا منها منازل جديدة بالحب والعطاء والحنان فلنكتف الآن برموز قصتك الجميلة هذه .. ولنتعلم معا دروسها وأهمها أنه على الإنسان دائماً ألا يفقد الرجاء في الله .. ولا الأمل في السعادة التي يتمناها لنفسه .

فالحق أنى من المؤمنين دائماً مع الشاعر التركي ناظم حكمت بأن «أجمل الأنهار لم نرها بعد» وأنه لا بد أن يأتي اليوم الذي سنراها فيه .. فإن لم يأت فسوف نكون نحن قد تغيرنا من الداخل ورضينا بحياتنا .. واطمأنت قلوبنا وأصبحنا نرى الجمال فيما حولنا وتلمس السعادة فيما سمحت لنا به الحياة منها فهنيئاً لكما تحقق الأحلام بعد طول العذاب ، وهنيئاً لكما التقاء القلبين الشيتين بعد أن ظننتما «كل الظن أن لا تلاقيا» على حد قول الشاعر ، فلا تأس الآن على ما ضاع من سنوات العمر .. فمن يدري ماذا كان سيحدث لو لم تعترض طريقكما هذه العقبات ، والماء يا صديقي بعد العطش الطويل أحلى مذاقا من الشهد مع الارتواء ، فاسعد بيومك وعش حياتك فقيمة الحياة أن نحياها وأن نحيا كل ساعة منها واهناً بجنتك التي أذنت لك الأقدار بدخولها بعد العناء ، فجنة الأرض هي راحة النفس واطمئنان القلب ، ومن أوتى راحة النفس والقلب فلقد أوتى خيراً عظيماً ، وشكراً لك لإطلاعنا على هذه التجربة الفريدة .

العش الخالى

أنا شاب فى الثانية والثلاثين من عمى .. كنت طالبًا بكلية الطب أتمتع بالقوة والشباب والتفوق . ثم بدأت أحس بنحور فى قواى يؤثر على حركتى فعرضت نفسى على أساتذتى وعرفت أنى فريسة لمرض يتسلل إلى الجسم رويدا رويدا ويفقده القدرة على الحركة . ورغم صدمتى الهائلة فلقد وهبنى الله قدرة غريبة على الصبر فقاومت اشد ما تكون المقاومة وحاربت وسواس المرض حتى تخرجت فى كلية الطب وعمى ٢٤ سنة بتقدير مرتفع وبدأت حياتى العملية . وهنا كنت قد استنفدت كل قدرتى على المقاومة فبدأت أعجز عن المشى وعن القيام من المقعد بغير مساعدة . ورغم حزنى الشديد على ما آل إليه حالى فلقد تماسكت بقوة إيمانى وصبرى .. وبدأت أستعد لمواجهة الحياة بكل أنقالها .. وبغير استعداد للاستسلام رغم المواقف المؤلمة التى بدأت أتعرض لها .. كان يدق جرس الباب وأنا وحدى فى الشقة فلا أستطيع أن أنهض لأفتحه وأنا على بعد متر منه . أو كان يمد إلى زائريده ليصافحنى فلا أستطيع أن أرفع ذراعى لأصافحه وابتسم له مخرجاً فيدرك ما بى ويسرع بإزالة يده .. أو كنت أنتظر إلى أن يأتى صديق من أصدقائى ليساعدنى فى دخول الحمام ، لأن كل أشقائى قد تزوجوا ولم يبق معى فى شقة الأسرة سوى شقيقتى الصغرى وهى أحبهم إلى وأقربهم منى لكننى تعودت على احتمال كل ذلك وعوضنى الله عن

بعض آلامى بأن جعلنى لا أحتاج إلى دخول الحمام إلا مرة كل يومين أو ثلاثة . أرأيت حكمة الله فى ذلك ؟.

منذ يومين بدأت ألاحظ على شقيقى التى تعيش معى علامات أنارت قلقى وأسلمتنى للرعب والشك لىالى طويلة .. فلقد لاحظت عليها بوادر أولى للوحش الذى تسلل إلى منذ ٦ سنوات وبدأ يزحف على حتى تمكن منى .. وبخبرتى الشخصية عرفت أن هذا الزائر اللعين يدق أبوابها ويتسلل إليها وعمرها ١٦ سنة .. وحين تأكدت من ظنونى لم أستطع أن أغمض عيني ليلتها وبكيت فى سريرى كما لم أبك فى حياتى .. ولعلك تعجب أنى لم أبك حين عرفت حقيقة مرضى وتسلحت فى وجهه بالإيمان والصبر .. أما حين هاجم شقيقى فلا أعرف أين ذهب صبرى .. فلم أتمالك نفسى من البكاء فى كل ليلة .. وفى الفترات التى أمضيها وحدى فى الشقة وكلما رأيتها تشكو ضعف الحركة تفرط قلبى عليها حتى لقد فكرت جدداً وليغفر الله لى أن أقتلها بمقنة سامة إذا أكدت فحوص الأطباء صدق ظنونى لأريحها مما سوف ينتظرها من عذاب .. وأنت تقول دائماً فى ردودك لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولأنى أكابده فلقد فكرت وتسلطت على هذه الفكرة أياما طويلة قبل أن أستعيد إيمانى وصبرى .

وكننت قد عرضتها على الأطباء منذ أول يوم فلم يلتفتوا إلى ما كنت أحس به .. فبدأت أوجههم بطريقة غير مباشرة إلى شكوكى حتى جاءت الفحوص بعد فترة طويلة صارمة كالسيف لتؤكد لى عذابى منذ أول يوم ، وأصبحت مهمتى فى الحياة أن أقنعها بأن مرضها مختلف عن مرضى .. وأننى أعتبرها عكازى الذى سأظل أستند إليه طوال حياتى .

ومضت بنا الحياة لم يتغير فيها شىء إلا أن دموعى أصبحت أقرب إلى من

أى شىء آخر .. وبعد أن كنت أخفيها عنها أصبحت أعجز عن ذلك كلما رأيتها تتعثر في مشيتها وتقرب خطوة خطوة من مصرى . وحين تسلل الوحش إلى كان عمرها وقتها ١٠ سنوات فكنت أنا أضحك مستهينا بالأمر ومنتصرا وكانت هى تمسح الدموع كلما رأتهى ، وانعكست الصورة بعد ذلك فأصبحت هى تبتسم وتتصبر .. وأنا أمسح الدموع كالطفل الصغير .

إلى أن جاءتهى ذات يوم شقيقتهى هذه وطلبت منى طلبا غريبا جدا هو أن أتزوج ! أنا أتزوج ؟ ومن هى التى تقبل الزواج منى وماذا عندى قد يغرى فتاة فى مكتمل صحتها بأن تتزوج منى ولست غنيا وأعيش فى شقة بمنزل متآكل .

وسمعت شقيقتهى كل تساؤلاتى ثم قالت لى عندى من تقبل الزواج منك وليس المطلوب سوى أن توافق وهى تعرف كل شىء عنك .. وسألتهى عنها فقالت لى إنها فتاة جميلة منقبة خريجة تجارة سنها ٢٧ سنة وأنها سوف تتحدى الدنيا كلها إذا تزوجتهى لأنها تريد أن تعمل عملا تنال به رضا ربها .

وفكرت فى الأمر مذهولا أيمكن أن يكون ما تقول صحيحا . وهل فى الحياة الآن من تقدم على هذه التضحية لتكون ذراعا يستند إليه شاب الآن وشقيقته بعد حين ؟ .

وتحيلت حال شقيقتهى حين تعجز عن الحركة نهائيا .. وحالى معها .. ووجدت نفسى أوافق بل وأحلم بأن يتحقق هذا الحلم ، ولن تتخيل ما حدث من ثورة فى بيت أسرتها ضدها ولا ما ووجهت به من معارضة من كل أفراد الأسرة لكنها تمسكت بالموافقة وتم القران وجاءت إلى بيتى ورفعت النقاب لأول مرة وقلبهى ينفق لأرى وجهها ملائكيا .. لم أتخيل جماله فى يوم من الأيام .

فلم أعرف ماذا أقول .. سوى أن أسألها وغلاله من دموع تغطي عيني كيف رضيت بأن تسجنى هذا الجبال مع إنسان مثل ؟. فوضعت أصبعها فوق فمي لتنعني من الكلام ، ثم نهضت لتصلى صلاة شكر لله ، وبدأت أجمل أيام عمرى ، وبعد إجازة الزفاف عادت تخرج إلى عملها فتودعنى فى الصباح طالبة منى الدعاء لها وتعود إلى مسرعة فى الظهر لترى لى كل ما صادفته فى الطريق وفى العمل وفى الشارع وعلى سلم البيت . ثم تمضى الوقت فى الطهى وإدارة البيت والطوفان حولى لتسألنى كل لحظة هل تريد شيئاً أو لتسقىنى ماء أو قهوة أو شاياً .. وبالغت فى تدليلى حتى لم أعد آكل وأشرب إلا من يدها .. وعرفها أقاربى وجيرانى وأحبوها وأحاطوها بالاحترام الشديد . وأصبحت سيدات الأسرة والجيران يزرن مسكنى كل يوم لتحييتها والامتناس بها . لأنها حلوة اللسان جميلة المعاشرة .

وغيرت منى زوجتى كثيراً فجعلتنى أخرج من البيت بعد أن كنت جيسا فيه معظم الأوقات ، وجعلتنى أزور الناس والأهل والجيران وجعلتنى أتقرب إلى الله بأعمال كثيرة أبسطها زيارة المرضى وعلاجهم حتى ندمت على كل ما ضاع من عمرى قبل أن أعرفها .

واستمرت حياتى معها على هذا الشكل ثلاث سنوات كاملة .. ثم حدث من حوالى شهر أن وقع نقاش بسيط بينى وبينها تطور بسرعة البرق فوجدت نفسى بغير أن أحس أوجه لها اهانة لم تحتملها .. فنهضت صامتة ثم جمعت ملابسها فى حقيبة وأرادت الخروج فاستأذنتنى فى العودة إلى بيت أهلها إلى أن تصفو النفوس . لأنها تؤمن بأنه حرام أن تخرج الزوجة من بيت زوجها إلا بإذنه حتى ولو كان خروجها غضبا منه ! وكان من الممكن ياسيدى أن أتدارك الأمر فأرفض الإذن لها .. بل واستسمحها وأقبل رأسها .. ولو كنت

شجاعا لطلبت منها العفو وقلت لها إني لا أطيق بعادها عنى ساعة ولو فعلت ذلك لانتهى الأمر ، لكن الشيطان ركبنى فرفضت التراجع وأذنت لها بالخروج فخرجت ، وخرجت سعادتي وأمانى معها وبعد خروجها أحسست بالظلام يحيم على حياتي كلها . ومرت الأيام ثقيلة بطيئة .. وكل يوم أحس أنه دهر بأكمله وأصبحت الأيام أسبوعا ثم أسبوعين ثم شهرا .. وأنا حبيس فى مسكنى أرفض الخروج .. وأرفض الذهاب للعمل .. وأهمل العلاج ولا أفعل شيئا سوى أن أعذب نفسى بالتفكير فيها طوال الليل والنهار .

وكلما طال بى التفكير ندمت على ما أسأت به إليها .. وفكرت فى أن أحررها من قيدي لتنال نصيبها من الحياة مع أنى لا أتخيل نفسى بغيرها .. ولن تعود إلى مسكنى إلا معها خاصة أنها لم تطلب هذا الأمر .

فهل تفكيرى هذا سليم يا سيدى .. إننى أعرف أنى أخطأت لكنى أعرف أيضا أن خير الخطائين التوابون فماذا تشير علىّ يا سيدى ؟

□ □ لكاتب هذه الرسالة أقول : إن الإنسان الصادق مع نفسه هو الذى إذا أخطأ فى حق آخر اعترف له بخطئه واعتذر عنه وقدم له الترضية التى تتلاءم مع حجم الخطأ .. والإنسان الكرم هو الذى يقبل هذا الاعتذار ويمحى بالعفو ويصفو قلبه من المرارة بمجرد قبوله الاعتذار .

وأنت يا صديقى تعترف لى بخطئك فى حقها .. فلا يبقى إذن إلا أن تعتذر عنه ، وأن تقدم إليها الترضية الكافية التى يبرأ بها جرح نفسها وليس ذلك بكثير على هذه الزوجة الملائكية التى تؤكد لى بقصتها مملك أن فى الحياة من الخير ما لا نعرفه ، ومن البشر من لا نسمع عنهم الكثير .

لقد تلاحقت أنفاسى وأحببت الحياة وأنت تصف لحظة رفعك النقاب عن وجه زوجتك وتروى لى طريقة معاملتها لك وكيف تحيطك بالحب والرعاية

وكيف دفعتك إلى الخروج من البيت وزيارة المرضى وأداء الأعمال التي تقترب بها من الله .

أما لحظة خروجها غضبي من بيتك فلقد زادتني لها احترامًا وإعجابًا ولا عجب في ذلك لأنها حتى حين غضبت كان غضبها نبيلًا إذ لم تبدر منها فيه كلمة هوجاء ولا إشارة جارحة وفضلاً عن كل ذلك فلقد أبت على نفسها أن تخرج من باب بيتك بغير إذنك مؤمنة بأن خروج الزوجة من بيت زوجها حتى وهي غضبي معصية لا رضاها لنفسها ! فأى تصرف أحق بالإعجاب والتقدير من مثل هذا التصرف ! .

إن زوجتك ليست في حاجة إلى أن تحررها من قيودها كما تصور شعورًا منك بالذنب تجاهها لأنها تزوجتك بكامل رضاها وهي تعرف كل شيء وهي لم تطلب منك الانفصال وما أظن أنها سوف تطلبه لأنها قد حددت اختيارها من البداية وتحملت تبعاته ومثل زوجتك هذه تحركها العاطفة الدينية بأكثر مما يحركها أى شيء آخر ، لهذا فهي لن تتخلى عنك أبداً إن شاء الله ولن تخذلك .. ولكنها أرادت فقط أن تشعرك بطريقة عملية بما تقدمه إليك وما تمثله في حياتك لكي تحسن معاشرتها وتحرص على شعورها وترعى الله في معاملتها كما ترعاه هي في كل معاملاتها معك .

ويبدو أن الإنسان يا صديقي يحتاج أحياناً إلى من يذكره بقيمة ما بين يديه من أسباب لكي يفرح بما آتاه الله .. ويحرص عليه من الضياع . لأن الإنسان قد يفقد الإحساس بقيمة الأشياء الثمينة بحكم الاعتياد على رؤيتها لفترة طويلة .. لهذا فنحن في حاجة أحياناً إلى أن ننبه ذاكرتنا لكيلا ننسى قيمتها واعتقد أن ذلك قد تحقق عندك بالقدر الكافي فأسفر إليها طالباً منها السماح ثم زرها ولولا أنى على سفر هذا الأسبوع لأبدت استعدادى لزيارتها لأكون

سفيرك إليها قبل أن تزورها أنت وتطلب منها أن تعود إلى عرشها الخالي لتضيء
ظلامه وتبدد وحشته .. كما يضيء البدر المكتمل أفق السماء .. وآه لو
أسعدتني فيما بعد بنخب عودة السعادة إلى قلبك المثقل بالأحزان ..

الصفحة القديمة!

أكتب إليك لأستعين برأيك في اتخاذ قرارى الذى سيحدد مجرى حياتى القادمة وقبل أن أسألك الرأى .. سأروى لك قصتى مع الحياة لتستعين بها على فهم ظروفى فمئذ سنوات كنت طالبا فى أحد المعاهد العليا بالقاهرة .. أقيم فى شقة مفروشة متواضعة مع عدد من الطلبة نتقاسم إيجارها .. وأواجه الحياة بما يتبقى لى بعد دفع نصيبى من الإيجار .. ولم يكن يزيد على بضعة جنيهات ترسلها لى أمى من بلدى القريب من القاهرة من معاشها عن أبى ولأن مطالب الحياة كثيرة فلقد بحثت عن عمل إلى جانب الدراسة وعملت بأحد الفنادق وكانت نوبتى المخصصة لى فى كافتيريا تبدأ فى منتصف الليل وتنتهى فى الثامنة صباحا فاستبدل ملابسى ، وأحمل كتبى وأتوجه إلى المعهد ، وبعد انتهاء الدراسة أعود إلى شقتى لأنام حتى المساء نوما متقطعا .. ثم أنهض لأتناول عشاى وأذاكر لمدة ساعتين وأخرج للعمل من جديد .. أما فى يوم الاجازة فلقد كنت أنام ليل نهار لأعوض ساعات النوم التى يحتاج إليها جسدى .. وذات يوم غلبنى الإرهاق فى قاعة المحاضرات فلم أشعر بنفسى إلى أن صحوت فجأة على يد تهزنى فانتفضت خجلا والأستاذ المحاضر يعنفنى تعنيفا شديدا ويطردنى من المحاضرة .. فقممت أتعثر فى خجلى .. وأسرعت بالخروج .. واتجهت إلى مقصف المعهد وطلبت فنجان قهوة ووقفت أشربه وأنا متألم

وخلجان .. وفي هذه اللحظة وجدت زميلة تقرب منى وتعطينى كراستها لأنقل منها المحاضرة التي فاتتني فشكرتها ، فقالت لى إنها لاحظت على أكثر من مرة الاجهاد والنوم فى المحاضرة فصارحتها بأنى أعمل طوال الليل وأن نشاطى يخوننى أحيانا رغما عنى ، فنشأت بيننا صداقة قوية تحولت قرب نهاية العام إلى ارتباط عاطفى حميم وبعد قليل قدمتنى لأسرتها وتعرفت بأبيها وكان رجلا فاضلا لكنه مثقل بالأبناء والأعباء ، وتفاهمنا سريعا على أن أتقدم لخطبتها وأن نعقد القران بعد تخرجنا ومضت الأيام .. وبدأت أوفر جزءا من دخلى لمشروع الزواج ، وتم إعلان الخطوبة فى موعدها .. وواصلت الكفاح والعمل حتى تخرجنا وعقدنا القران ، وانتهى الجهاد الأصغر وبدأ الجهاد الأكبر لادخار المبلغ المطلوب للشقة ، وكنت قد تقدمت فى عملى بالفندق وأصبحت أعمل فترة مسائية من الساعة الثانية بعد الظهر حتى منتصف الليل ، وازداد ارتباطى بفتاتى حتى بدأت أضيق بسنوات الانتظار الطويل وبدأت هى كذلك تضيق به ، وفى لحظة مجنونة قررنا ألا نضيع العمر فى الانتظار وأن نتزوج فى الشقة المفروشة .. على أن ندخل مشروعا طويل الأجل للحصول على شقة بادخار كل قرش يزيد على حاجتنا ، ووافق الأب استجابة لرغبة ابنته .. واحتفلنا بالزفاف فى الفندق الذى أعمل به وبلا تكاليف تقريبا بمعاملة من رئيسى وزملائى .

وبدأت حياتى الجديدة فى نفس الشقة المفروشة التى أقيم بها بعد أن خرج منها شركائى وكانت شقة من غرفتين فى ميدان الجزيرة أذفع لها ثمانين جنيها إيجارا وكنت فى هذه الأيام أكسب حوالى مائتى جنيها وبدأت زوجتى تبحث عن عمل ووجدت عملا فى مكتب للمحاسبة قريب من مكسنا ومضت حياتنا سعيدة وقد اطمأن قلبانا إلى وجودنا معا ولم يكن يزعجنا سوى مراوغة

صاحب الشقة لنا كل ستة شهور عند تجديد عقد الإيجار ، لكي يرفع قيمة العقد وكنا قد اتفقنا على تأجيل الإنجاب حتى نستقر في شقة خاصة بنا .. فلم نواجه صعوبة كبرى في زيادة الإيجار اللهم إلا التزامنا ببعض التقدير على أنفسنا لكي نوفر مقدم الشقة وطال بحثنا عن شقة في حدود امكاناتنا فبدأت أتطلع إلى السفر والعمل لمدة عامين أو ثلاثة في الخارج وفي هذه الفترة بالذات بدأت أحس بأن حماس زوجتي المحبوبة قد بدأ يفتر وأنها أصبحت متشائمة من إمكان تحقيق أحلامنا .. فكنت أقابل ذلك بالمزيد من التمسك بالأمل والحلم .. إلى أن كنا نتناقش في الأمر ذات يوم فإذا بها تفجر في البكاء وتقول لي أنها تعبت ولم تعد تستطيع مواصلة المشوار ! فبهت وسألتها عما تعنيه .. فقالت لي أنها تسأل نفسها عما حققنا من الزواج بعد ٣ سنوات .. لاشيء .. لاشقة .. لا أبناء .. لا مستقبل لآحياة مريحة .. وصدمت وقلت لها أن تأجيل الإنجاب كان قرارنا معا .. وأنى مستعد للرجوع عنه في أية لحظة وأن عمري ٢٧ سنة وعمرها ٢٥ سنة ومازال المستقبل أمامنا .. وقد مضى الكثير ولم يبق إلا القليل فلم تجبني سوى بالدموع فطبيت خاطرها ومسحت دموعها وقبلتها وعرضت عليها أن تأتي معي إلى الفندق خلال نوبة عملي لتروح عن نفسها فاعتذرت بأنها متعبة وخرجت لألحق بالعمل ، ويعلم الله كيف مرت على الساعات في العمل .. ولم أطق صبرا .. فاعتذرت عن إكمال النوبة وأسعدت بالعودة للبيت لأصطحبها إلى السينما أو المسرح وفتحت باب الشقة فوجدتها غارقة في الظلام .. فتصورت أنها قد نزلت لتشتري شيئا فجلست أمام التلفزيون انتظرها فمرت ساعة بغير أن تأتي فدخلت غرفة النوم لآأخذ شيئا فلاحظت أن قيص نومها ليس على الشماعة .. ففتحت الدولاب .. فلم أجد فيه سوى ملابسى أما ملابسها فقد اختفت ! ولا أراك الله يا سيدى

ما أحسست به في هذه اللحظة أنه إحساس غريب أتمنى ألا يعرفه أحد ، مزيج من الصدمة .. والألم .. والمرارة .. والخجل .. والرغبة في تكتم الأمر لكيلا يعرفه أحد .. وأيضاً من الأمل في أن ينقشع الموقف عن مفاجأة سعيدة وتعود الشريكة إلى عشاها كما خرجت منه ! .

وجلست على السرير أفكر .. ثم حزمت أمري على أن ألحق بها لأدافع عن حبنا الذي ذقت الأمرين لأحتفظ به .. وأسرعت إلى بيت أبيها رغم تأخر الوقت وقابلي الرجل بعطف وطلبت رؤيتها بإصرار فاستدعاها للصالون وتركتنا ، ووجدت نفسى أمام إنسانة أخرى غير التي تركتها في البيت قبل ساعات ، فليس على لسانها سوى كلمة واحدة هي تعبت .. تعبت وأيضاً - ويا للألم - طلقنى ! أطلقك ! ألا تحبينى ؟ نعم ... هل هناك آخر؟ ... لا .. لماذا إذن الطلاق ؟ تعبت ! وهكذا وجدت نفسى أمام الحقيقة القاسية وتركتها لأعطيها فرصة للتفكير وعدت إليها مرة ومرات فلم أسمع منها سوى نفس الكلمة البغيضة . فاستسلمت لرغبتها وطلقتها في يوم حزين بعد ٦ سنوات من الارتباط والحب والإخلاص والزواج وعدت إلى الشقة الخالية لأواصل حياتى كما شئت لى الأقدار ومرت شهور وأنا لا أسلوها أبدا ياسيدى .. وفي كل يوم يداعبنى أمل غامض فى أنها سوف ترجع إلى نفسها وتعود إلى عشاها وفى هذه الفترة هزل جسمى كما كان أيام العمل والدراسة وفقدت ٨ كيلو جرامات من وزنى رغم نحافى الطبيعية .. ثم بدأت الآلام تخف تدريجياً ومرعمان انتقلت خلالها مع رئيسى من الفندق الذى أعمل به إلى فندق آخر جديد وكان يعرف قصتى معها ويشجئنى على مقاومة نفسى ونسيانها .

وذات مساء كنت أؤدى عملى ورئيسى يجلس فى مكتبه الصغير فى

الكافيريا . ودخل اثنان من الرواد إلى الركن المخصص لى وجلسا . فحملت قائمتين من قوائم الطعام .. واتجهت إليهما وقبل أن أصل إليهما .. تسمرت قدماى فجأة فى الأرض وأحسست بالعرق يسيل من وجهى .. وبأنفاسى تتلاحق .. فلقد كانت هى ومعها رجل فوق الأربعين .. وعجزت عن التقدم إليهما فعدت واتجهت إلى مكتب رئيسى لاهتا وطلبت منه أن يكلف زميلا آخر بخدمة تلك المائدة .. فسألنى عن السبب فصارحته .. فسكت دقيقة ثم قال لى بلهجة آمرة .. اذهب إلى هذه المائدة بالذات وأد عمك عليها ، فإن نجحت وتصرفت بطبيعية كنت فعلا قد نسيتها وتحورت منها . وإن عجزت كنت ضعيفا مع نفسك ولن تتخلص منها أبدا اذهب .. يا فلان وربنا معك . فترددت قليلا وتذكرت الآلام التى عانيتها .. بسببها وبقوة الألم وحده اتجهت إلى المائدة بخطوات هادئة .. وقلت مساء الخير .. يا أفندم ثم قدمت لها القائمتين فالتقت عيوننا فى لحظة .. وظهرت الدهشة على وجهها .. ثم تمالكت نفسها سريعا وأخفضت رأسها فى القائمة ووجدت نفسى أتأملها بشغف .. وأنظر إلى يدها فأرى الدبلة الذهبية فى إصبع اليد اليسرى وأرى الدبلة الأخرى فى يد الرجل الجالس أمامها وتوقعت أن تخلق سببا للانصراف .. لكنها لم تفعل .. ومضت الأمور طبيعية فخدمت على مائدتها كما أفعل مع الجميع حتى انصرفا بسلام وودعتها بابتسامة حزينة وهنأتى رئيسى على شفائى منها .. لكنى لا أخفيك أنى حين اختليت بنفسى فى شقتى انسابت دموعى فى الظلام بلا حياء ويا سبحان الله يا سيدى .. فكأن هذه اللحظة المؤلمة كانت خطأ فاصلا بين مرحلتين فى حياتى .. فبعد هذه الواقعة بأسبوعين رشحنى رئيسى للسفر معه إلى أحد الفنادق التابعة لنفس الشركة فى إحدى الدول العربية للعمل هناك بمرتب ضخم وسافرت معه وشغلت وظيفة أرقى ..

وعرفت الوفرة في النقود لأول مرة في حياتي وفي الغربة توثقت صلتى برئيسي أكثر وأكثر.. وفي الصيف جاءت زوجته لزيارته ومعها أبنائها وابنة شقيقتها المدرسة ، ووجدت نفسى لأول مرة منذ ٣ سنوات انظر إلى امرأة أخرى كما ينظر الرجل إلى المرأة .. وصارحت رئيسي باعجابى بقريبة زوجته فطلب منى ألا أتسرع في الحكم على مشاعري وقبل انتهاء الصيف كنت قد فاتحتها في خطبتها مؤكدا لها أنى في بداية الطريق ولا أملك شقة في القاهرة .. فرحبت بى وأبدت إعجابها بى وعادت الأسرة وبدأت المراسلات بيننا ومن أول مبلغ ادخرته اشتريت شقة في الهرم .. ثم انتهى عقدنا وعدنا لفندقنا القديم ومعى بعض المدخرات الكافية لتأثيث الشقة ، وذات مساء وجدت نفسى مرة أخرى وجها لوجه مع زوجتى السابقة في نفس القاعة .. وفي هذه المرة انتهزت فرصة ذهاب زوجها إلى « التواليت » وأشارت إلى فذهبت إليها وسألتنى عن أحوالى . فقلت لها أنى اشتريت شقة في الهرم وخطر لى أن أسألها سؤالاً كان يلح على فسالتها هل أنجبت ؟ .. ففوجئت بها تدمع عيناها وتجيّب بهزة من رأسها لا ! وفهمت منها أنها تزوجت صاحب مكتب المحاسبة الذى كانت تعمل فيه ، وأنه مطلق بغير أولاد وأنه أخفى عنها قبل الزواج أنه لا ينجب .. وأنها استسلمت لمصيرها لكيلا تصبح مطلقة مرتين .. إلخ .

ثم عاد زوجها فانصرفت وأحاسيس تتضارب داخلى لكنى صرفتها من ذهنى على الفور .. وبدأت أستعد لعقد قرانى على خطيبتى التى أحببتنى بإخلاص عامين وأحببتنا ، وانتظرتنى بصبر ولم تطالبنى بأى شىء وهى فتاة جميلة هادئة ناعمة تصغرى بستة أعوام .

وقبل أسابيع من القران دعيت إلى التليفون فإذا بها زوجتى السابقة تسأل عنى .. وتريد تجديد ما بيننا وتبدى استعدادها للحصول على الطلاق لكى

تتزوج وتحقق أحلامنا التي حالت صعوبة الحياة دون تحقيقها واستمعت إليها صامتا وأنا أفكر..

وفي لحظة كدت أصرخ فيها أين كنت حين كنت أحس بلسع النار في ضلوعي وفي لحظة أخرى كدت أضعف وأقول لها تعالي إلي .. فوراً .
لكني بعد فترة من الصمت وجدت نفسي .. أضع السماعة بهدوء .. ثم أحمل قوائم الطعام واتجه إلى الرواد .

وسؤالى الآن هو : هل أخطأت في هذا التصرف ؟.

لقد اشترت مع رئيسي مطعماً صغيراً سوف نديره معا بعد أسابيع ونترك الفندق .. وهو رجل ممتاز وعامل ولا يسمح للمسائل الشخصية بالتأثير على العمل أو علاقتنا .. لهذا فلست قلقاً من ناحيته حتى لو أردت فسخ خطوبتي لقريبته لكنني قلق من نفسي أنا .. فخطيتي عزيزة جداً علي وأنا أحبها وأريدها بصدق وهي تحبني بإخلاص .. وقد امتحنت نفسي أكثر من مرة فوجدتني لا أريد سواها !.

لكنني أخشى النفس الأمانة بالسوء أن تضعف فهل تحتقد أني سأضعف فعلاً .. وهل يمكن أن يمحو الحب الثاني الحب الأول من جذوره .. أم أنه لا يموت كما يقول البعض .. وبماذا تنصحنى أن أفعل ؟.

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : إنك في واقع الأمر لا تحتاج إلى رأيي .. لأنك حددت طريقك بالفعل وعرفت اختيارك لكنك تحتاج فقط إلى من يؤكد لك سلامته وهو في رأيي الاختيار السليم والصحيح في مثل ظروفك .. ففتاتك الأولى ليست أهلاً للثقة فقد تخلت عنك في بداية المشوار وأهدرت بذلك سنوات الحب والبراءة والأحاسيس الغضة .. وبلا مبررات حقيقية .. فلقد فقدت صبرها سريعاً وبعد ثلاثة أعوام فقط وإن كنا في

مقتبل العمر ولم يكن الطريق أمامكما مسدودا ، فلماذا لم يصمد لك سوى هذه السنوات القلائل ؟ وكيف لم يدفعها هذا الحب للتمسك بك إلى أن تُحققا الأحلام ؟.

إن من يجب يا صديقي لا يتخلى عن حبه الأول بمثل هذه السهولة .. ولا يضحى به ولو قاسى الأمرين إلا تحت وطأة ظروف لا طاقة لأحد بها .. فهل هذا هو ما حدث في قصتكما ؟ لقد استطعت أنت أن تحمى ما كانت تصبو هي إليه في ٤ سنوات أخرى .. إذن فالمشكلة لم تكن في صعوبة الحياة أو الشقة وحدها وإنما كانت في داخلها هي .. فلقد فترت مشاعرها سريعا أمام بعض الصعوبات واستسلمت لأحلام الحياة السهلة والحلول الجاهزة مع مَنْ يكبرها بعشرين سنة فانتزعتك من قلبها بلا آلام .. في حين عانيت أنت الأمرين لكي تنتزعها من قلبك واحتجت إلى سنوات وسنوات لكي تتأكد من شفافك منها ، وحين اكتشفت أنها لم تحقق السعادة في الحياة المريحة التي كانت تهفو إليها .. ولا الأمومة التي تعجلتها . ووجدت أنك قد حققت ما كانت تريده من إمكانيات الحياة .. عادت لتثير الاضطراب في حياتك من جديد .. لكنها لم تعد إليك إلا لأسبابها هي .. وليس لأسباب تتعلق بك ولكل إنسان قدره في الحياة الذي ينبغي أن يتقبله وأن يتحمّل معه تبعات اختياره .. فلتبحث عن حل لمشكلتها بعيدا عنك .. فلست أنت من صنعها .. لكنها هي .. « ومن أعمالكم سلط عليكم » .. فإن كانت غير موفقة مع زوجها الجديد فلتبحث عن حل لمشكلتها معه عن طريق آخر .. فلقد تظهرت بالعذاب والآلام من بقايا حباها ، وليس من حق من يتخلى عن الشجرة الوليدة ويتركها في مهب الريح أن يأتي الآن ليقطف ثمارها بعد أن نمت وشبت ورويت بدموع غيره .

ثم ما ذنب خطيبتك التي أخلصت لك الحب منذ اللحظة الأولى وقبلتك بكل ظروفيك إلى أن شاء لك الله أن تحقق معها نجاحك وأحلامك، بل وما ذنب زوج فتاتك التي تتصل بك وهي ما زالت في عصمته لتدبر معك أن تجرعه من نفس الكأس التي شربتها أنت من قبل؟ وهل تقبل أنت لغريك أن يعانى قسوة التجربة التي عانيتها؟.

ياسيدى لا تفتح الصفحة القديمة فلقد انطوت بذكرياتها السعيدة والمريرة معا ، والحاضر دائما أقوى من الماضي ، والحب الثانى يمكن أن يحو الحب الأول بالفعل لأنه الواقع الحى ، أما الآخر فهو الذكرى والخيال ، ولا بأس بأن يعتزل كل إنسان بذكرياته .. لكنه لا يستطيع أن يعيشها ويتعامل معها . واعتزاز الإنسان بحبه الأول هو فى حقيقة الأمر اعتزاز بفترة غالية من صباه حين خفق قلبه لأول مرة بالحب .. لكنه إذا انتهى لا يصبح سوى ذكرى .. وليس الأمر دائما كما يقول الشاعر ، «وما الحب إلا للحبيب الأول» .. وإنما هو فى الواقع والحقيقة «للحبيب المخلص» الذى لا يتخلى عنا .. ولا يغدر بأحلامنا المشتركة جرياً وراء حساباته وطموحاته فانفض عن نفسك التردد يا صديقى .. وابن عشك الجديد مع خطيبتك فهى تستحقك بإخلاصها لك وأنت تستحقها بما قدمت من كفاح ووفاء وإخلاص وأسعد بأيامك وبما بين يديك فما بين يديك واقع وحقيقة .. أما «الآخر» فلقد علمتنا التجربة الأليمة أنه غير مأمون الجانب بدليل تفكيره فى الغدر مرة أخرى بمن غدر بنا من قبل ليشاركه حياته .

طيف.. من الماضي!

أنا ياسيدى رجل فى الأربعين .. واجهت الحياة وحيدا منذ صغرى ..
فقد حرمت من أبى وأنا فى سن الخامسة وتولت جدتى تربيى مع إخوتى من
ريع قطعة أرض صغيرة لا تسمن ولا تغنى من جوع .. وهكذا وجدت نفسى
غير قادر على مواصلة التعليم بعد المدرسة الابتدائية .. لكنى بإرادة من حديد
جمعت بين العمل فى هذه السن الصغيرة وبين الدراسة غير المنتظمة
والاستدكار فى البيت .. وتقدمت لامتحان الشهادة الاعدادية وفزت بها ثم
حصلت على الثانوية العامة والتحققت بالجامعة وأثناء الدراسة الجامعية انجهدت
مشاعرى إلى زميلة لى وجدت نفسى مهتما بأمرها ومشغولا بها لكن تاريخى
الطويل مع الشقاء قد أكسبني حرصا شديدا فى التعامل مع الحياة فكتمت
مشاعرى عنها ولم يزد ما بينى وبينها على تبادل الأحاديث والمذكرات ، انتظارا
لأن أخرج وأكاشفها بمشاعرى ورغبتى فى الارتباط بها ، وساورتنى نفسى بعد
قليل أن أفاتحها فى أمرى خوفا من أن تضيق منى فى زحام الحياة ، وحين
همت بذلك وجدتها تحادث زميلا عزيزا لى فظننتها مجرد دردشة عادية ،
لكن زميلى العزيز فاتحها بعد قليل فى الارتباط بها ، فكبت مشاعرى وقررت
عدم إزعاجها وتباعدت عنها لعدة أيام ، فوجدتها تقرب منى وتحادثنى ،
وقررت بينى وبين نفسى أن أترك أمرى للقدر إن شاء جمع بيننا وإن شاء فرقنا

وتخرجت .. وتخرجت هي ، وتقدمت لأداء امتحان المسابقة للتعين في إحدى الهيئات فالتقيت بها فيها ، وفرحت جدا برؤيتها وأقبلت عليها متهللا فأشاحت بوجهها عنى قائلة لى إن زميلى ينتظرها فى الخارج وأسرت بالخروج . فقررت عدم قبولى التعين فى هذه الهيئة رغم نجاحى .. وأعلنتها بذلك فألحت على ألا أضيع على نفسى هذه الفرصة لكنى كنت قد حزمت أمرى . فلم أقبل التعين والتحقت ببيئة حكومية أخرى .. وغالبت نفسى طويلا لأناسها ، وخلال عملى فى الهيئة الجديدة عرفت أن زميلتى السابقة قد تزوجت لا من زميلى كما توقعت ولكن من آخر لا أعرفه فخفق قلبى ألما .. وقررت اعتبارها أختا عزيزة على وتمت لها السعادة من أعماقى ، وركزت حياتى فى عملى وفى دراساتى العليا ، وبعد فترة ملت إلى زميلة لى فى العمل وتبادلنا المشاعر وتمت الخطوبة وكانت خطيبتى من أسرة طيبة لكنها مفككة لا يربط أفرادها الحب والتعاون ، وكانت تعاني من ذلك فانعكس عليها فى مزاج عصبي يستجيب للثورة لأتفه الأسباب لكنى كنت أتحمّلها .. وأتحمل الكثير من تصرفاتها لأنى أحببتها هى الأخرى ولأنى أعرف أنها ضحية للمشاكل العديدة التى تحيط بها .

وسافرت فى بعثة دراسية لمدة عام لم تنقطع خلالها المراسلات بيننا ثم عدت لأجدها فى غاية الضيق من جو الخلافات الذى تعيش فيه فأسرت بالبحث عن مسكن وعثرت على شقة متواضعة قننا بتأثيرها على عجل ، وتم الزواج وفى الليلة التى يفترض فيها أنها أسعد ليلة فى حياة الإنسان ، انعكست خلافات الأسرة على الليلة ، وبعد انتهاء الفرح سمعت زوجتى تلعن أبا الدنيا بأسلوب المحشور فى زحام الأتوبيس والذى يضيق بكل شىء ! وتحملت لأنها ضيفتى ، وتحملت بعد ذلك الكثير من جراء مشاكلها العائلية بين الأخوة حتى

خيم على حياتي العائلية جو ثقيل من النكد باستمرار وكلما تأفقت أو حاولت لفت نظرها إلى ضرورة الفصل بين حياتنا وبين المشاكل التي لا يد لي فيها ضاقت بمجديتي حتى طلبت الانفصال بعد شهر واحد من الزواج فأسرعت أهدئ خاطرها .. وأسلم بيني وبين نفسي بالمقادير وأنجبنا طفلين ثم سافرنا إلى إحدى الدول العربية للعمل وعشنا ٤ سنوات طويلة لم يتوقف خلالها الشجار والنكد بسبب عصبية زوجتي ، ثم عدنا إلى مصر وشغلتنا الحياة عن كثير مما أعانيه .. وقد كبر الولدان والتحقا بالمدرسة وأصبحت لنا في الحياة أهداف أخرى .. تستحق أن نضحى من أجلها لكن نفسي كانت تهفو دائما إلى الشريكة التي تبادلني المشاعر وأبادلها الأحاسيس والتي لا تنصرف عني إلى رعاية الأولاد وحدهم ، وكلما صارحتها بخواطري هاجت وماجت وقالت لي إنها لا تكف عن العمل طوال النهار كالشغالة مع اختلاف بسيط هو أنها شغالة بلا أجر .

ومرت السنوات وفجأة اكتشفت أن زوجتي منذ أنجبنا لم تشر إلى مرة باعتباري زوجها أو حبيبها أو شريك حياتها .. وإنما تتحدث إلى أو عني دائما بأني « أبو فلان .. وفلان » أي أبو أولادها فقط لا غير .. كأنها تحس في قرارة نفسها بالنفور مني .

وأحزنتني هذا الخاطر طويلا خاصة وأني أحاول دائما إسعادها وأعاملها دائما بالحسنى ووجدت نفسي أعيش في شبه عزلة عاطفية عنها فلا حديث لها معي إلا عن مشاكل البيت والأولاد أو مشاكل أسرتها أو مطالب الحياة كأننا شركاء في المسكن ورعاية الأولاد فقط ..

وبدأت ألاحظ أن اكتئابي يتزايد فسعيت للعودة إلى العمل الذي كنت فيه خارج مصر .. سافرت وحدي هذه المرة لكي يتظم الأطفال في

الدراسة .. وأصبحت أسرفى تمضى معى عدة شهور كل سنة لا يختلف الحال فيها عما كان عليه فى مصر فأنا أبو الأولاد فقط أو هكذا أحسن من تعاملها معى .

ثم وجدت نفسى أنا أيضا أسلم بينى وبين نفسى أنها قد أصبحت بالنسبة لى « أم الأولاد » كذلك ما دامت هذه هى طريقته وفهمها للحياة الزوجية ولم أعد أشعر تجاهها بأية عاطفة .. وفى هذه الظروف ومع الساعات الطويلة التى أمضيها وحدى فى شقتى الخالية فى الغربية ، وجدت زائرا غربيا يقتحم حياتى بدون استئذان .. هل تعرف من هو هذا الزائر؟ انه طيف زميلتى السابقة فى الجامعة التى لم أرها منذ ١٥ عاما ! ففجأة أصبح طيفها رفيق الدائم فى وحدتى كأنى ما أزال طالبا فى الجامعة .. وأتحدث معها .. وأبوح لها بكل ما لم أستطع أن أقوله لها فى هذا الزمن البعيد .. ولم أعد أستطيع النوم إلا قليلا فصورتها تطاردنى ليل نهار .. وهى معى فى العمل وفى الطريق وفى مسكنى وأتخيلها دائما قادمة إلى من طريق طويل .. وأهم بأن أفتح ذراعى لأستقبلها فأتنبه لنفسى وأستغفر الله طويلا !.

والعجيب أنى طوال السنوات السابقة لم أكن أتذكرها .. بل لعلى نسيها سنين طوالا .. حتى فوجئت بهذا الغزو المفاجئ لحياتى . إننى أعرف أنها متزوجة منذ ١٥ سنة .. ولا أريد بها شرا .. ولا أريد لها إلا كل الخير .. ولست فى سن التزوات والمخاطرات لكنى أعجب من حالى وأرجوك ألا تعتبر ذلك شيئا لا يستحق الاهتمام .. فالحق أنى متزعج للغاية من هذا الأمر وأخشى أن تكون له مضاعفات نفسية لا تحمد عقباها .

وفى بعض الأحيان أفكر فى الانفصال لأتخلص من تعاستى .. لكنى أعود لنفسى سريعا حرصا على مستقبل طفلى .. وكلما قرأت فى بابك رسالة عما

يحدث للأطفال الذين يتمزقون بين أب وأم منفصلين استعدت بالله من أفكارى وطردتها من رأسى شر طردة .. ثم عدت لمعايشة الوهم .. وطيف زميلتى السابقة من جديد .. إننى أسألك هل تنصحنى باستشارة طبيب نفسى .. وكيف أطرد صورة زميلتى السابقة من خيالى .. وكيف أعمل على هداية زوجتى إلى الطريق الصحيح رغم أنى بذلت المستحيل معها خلال السنوات الماضية .

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول إنه من الطبيعى أن يفر الإنسان من تعاسته إلى ذكرياته وخیالاته فالخنين إلى الماضى ورموزه إحساس تهفو إليه نفس الإنسان من قديم الزمان .. وليس منا من لم يحن إلى ماضيه « إذ الناس ناس .. والزمان زمان » كلما ضاق صدره بما يعاينه ، والحق أن ظروفك تؤهلك تماما لهذا النوع من الهروب إلى الماضى ، لأنك تفتقد دفء المشاعر بينك وبين زوجتك ، وأنت وحيد غريب بعيد عن الأهل والأصدقاء وفى مثل هذه الظروف يستعرض الإنسان كثيرا شريط حياته ويتمنى أحيانا لو كانت الدنيا غير الدنيا ، والطريق غير الطريق ، لكن هل كل ما يتمناه المرء يدركه يا صديق .

إنها مجرد استراحة نفسية من الهموم .. تخفف الآلام .. ثم يواصل الإنسان بعدها الطريق .. ولا بأس بها ولا خطر منها إذا لم تتجاوز حدودها ولم تتعد دائرة الأفكار والخواطر إلى دائرة الفعل والمستحيل وهو استدعاء الماضى ورموزه إلى الحاضر من جديد وأعتقد أن الأمر بالنسبة لك لا يتعدى هذه المرحلة لذلك فهو لا يستدعى إستشارة الطبيب النفسى ، لأنها ليست هلاوس مرضية يختلط فيها الواقع بالخیال ، وإنما مجرد دفاع مشروع عن النفس ضد المرارة والاكتئاب .

وفي الحقيقة فإن ما تعانيه ليس هو المشكلة إنما هو عرض من أعراض المشكلة الأساسية وهي إهمال زوجتك للجانب العاطفي من علاقتها بك ، وهو خطأ قديم تقع فيه زوجات وأزواج كثيرون يترفعون غباء وحمقا بعد سنوات من الزواج عن الاهتمام بالشئون العاطفية في العلاقة الزوجية .. ويتصورون أنها أمر لا يتناسب مع قدم العهد بالزواج وكثرة الأعباء والمسئوليات ، فيحولون بذلك العلاقة الزوجية إلى علاقة مساكنة ومشاركة في الأعباء والمتاعب العائلية فقط ، مع أن الإنسان هو الإنسان في كل مرحلة من العمر .. ويجب دائما أن يحس بأنه مرغوب ومطلوب لذاته وشخصه وليس فقط بسبب عقد « الشركة » الذي وقعه مع زوجته .. بل لعل حاجته لهذا الاحساس تتزايد كلما تقدم به العمر عنه وهو في سن الشباب .. لهذا جاء في القرآن الكريم عن الزواج إنه « مودة ورحمة » .. ، وتعبير « المودة » هذا هو نفسه الحب بلغة العصر التي نستخدمها الآن .. لكن آفة البعض منا أنهم لا يجيدون التعبير عن مشاعرهم لشركاء حياتهم .. أو يضمنون بذلك عليهم بعد سنين من الزواج ، رغم أهميته وحيويته لاستمرار العلاقة الدافئة بين الزوجين دائما .. لأن الحب كالزهور النادرة يحتاج دائما إلى رعاية مستمرة وإلى خدمة طويلة .. وإلا جفت أوراقها وسقطت وتعذر إحيائها من جديد .

ويبدو أن كل ذلك قد غاب عن زوجتك .. في غمرة انشغالها بتربية الأبناء وفي استنماتها إلى الاحساس الخادع بأن الزوج في قبضة اليد دائما ما دام هناك أبناء . وهو إحساس يقود غالبا إلى الإهمال والتقصير .. ويفتح الباب أحيانا للمتاعب والتزوات المفاجئة بعد سنوات الاستقرار فهل لا بد من زلازل دائما لكي يتنبه البعض لضرورة أداء واجباته تجاه الآخرين ؟ .

إن الإنسان مطالب دائما بأن يستشعر شيئا من الخوف من احتمال فقد

الآخرين إذا تهادى في تجاهلهم لكى يدفعه هذا الاحساس إلى الحرص عليهم وأداء حقوقهم ويبدو أن زوجتك في حاجة إلى شيء من هذا الإحساس .. ولا شك أنك تستطيع أن تنقله إليها بحكمة .. بشرط أن تضع أنت نهاية لوحدتك بعيدا عنها .. فإن أطياف الماضى تهاجمك بشدة الآن لأنك بعيد عن أسرتك والأفضل لك أن تتحصن ضدها إما باستدعاء أسرته للإقامة الدائمة معك ، وإما بعودتك أنت إلى عملك وبلدك ، فاختر من هذين الأمرين ما يناسبك ، لأن المرض لا يتمكن من الإنسان إلا في حالة ضعفه ، وأنت الآن في حالة ضعف سهل معها غزوك بالأطياف والأشباح وقد فات الآن أوان التحسر على الماضى والندم عليه وأنت يا صديقى لم تكافح جديا في شبابك للارتباط بمن تعاشك الآن في خيالك بل كنت سلبيا تماما في علاقتك بها فلا مبرر الآن للعذاب وقد خط كل إنسان طريقه بعيدا عن الآخر وأثمرت رحلتك ثمارها فأنجبت طفلين جميلين وحققت لنفسك الكثير من النجاح والتقدم . فانظر أنت أيضا إلى جوانب الصورة الأخرى المضيئة .. وارض عما أعطته لك الدنيا ، فالصوفية يقولون في بعض أوراقهم : « إن الشيطان يغرى الإنسان بالمفقود .. لينسيه الشكر على الموجود » والموجود في حياتك كثير ويستحق منك الشكر عليه والمفقود منها ليس بعيد المنال .. لو بذلت المزيد من الجهد والصبر والمهارة .. لكى تبقى السفينة طافية فوق الماء ..

الطريق الآخر

أنا ياسيدى فتاة فى الخامسة والعشرين ، أبى موظف بسيط ولى خمسة أشقاء ونقيم فى شقة مقبولة فى حى راق . استطاع أبى أن يحصل عليها منذ ثلاثين عاما حين كان الحصول على شقة أمرا سهلا - وكان الحى الذى نسكنه وقتها شبه خال - ثم بدأت العمارات الجديدة ترتفع فيه كل يوم حتى أصبح حيا راقيا بكل معنى الكلمة .. وحتى وجدنا أنفسنا فجأة أقل سكانه شأنا ، فجيراننا أطباء ومستشارون وتجار كبار .. ولم يعد فى عمارتنا مثلا من أسر الموظفين البسطاء غيرنا .. فوجدنا أنفسنا نعيش فى وسط غريب علينا بلا معارف ولا أصدقاء .. لانتزور ولا نزار ونرى حولنا الشباب من سننا يركبون السيارات ويذهبون إلى النوادى بل ورأينا أبناء بواب العمارة التى نسكن فيها يعيشون فى مستوى أفضل من مستوى حياتنا .. لأنه يجمع بين مهنته وعمل السمسار والتجارة فى الفواكه والخضر وأبناؤه يشاهدون التلفزيون الملون ويرتدون من الملابس أفضل مما نرتدى نحن .. ولولا ذكاؤه وخشيته من أن يستفز صاحب العمارة فيستغنى عنه لاشرى سيارة لتنقلاته الخاصة وقال ذلك لنا متفاخرا أكثر من مرة .. وهذه ليست مشكلتنا على أية حال .

فلكل إنسان طريقه فى الحياة وقد كان طريقنا نحن أن نتعلم ونتوظف ويتحمل كل إنسان مسئوليته عن نفسه فتخرج أخى الأكبر بالفعل من

الجامعة .. وتزوجت أختي الكبرى بعد كفاح مرير من جانب والدي لكي
يجهزها وحصلت أنا على دبلوم التجارة وواصل إخوتي الدراسة في المدارس
المختلفة .. وبدأت أبحث عن عمل لكي أوفر لنفسى نفقات حياتى وادخر شيئاً
لزواجى حين يريد الله لى الزواج ، واستطعت الحصول على وظيفة سكرتيرة فى
شركة صغيرة لتوظيف الأموال بمرتب مائة جنيه فى الشهر وفرحت بهذا العمل
كثيراً .. ووجدت فيه حلاً لكل مشاكلى .. ورحت أبذل كل جهدى فيه
وأعمل ساعات عمل إضافية لأنال رضا رئيسى .. وأودى كل مهمة أكلف
بها بإخلاص وحماس .. ورضى رئيسى بالفعل عن عملى فرفع مرتبى إلى ١٥٠
جنيهاً كل شهر ، وسعدت بذلك كثيراً .. وتغيرت نظرتى للحياة وأصبح
مظهرى لائقاً .. وارتديت الحجاب كاملاً . تعبيرا عن شكرى لنعمة الله
على .. وبدأت ابتسم للحياة وأنفعل بالمستقبل .. لكن دوام الحال من المحال
كما يقولون فبعد عامين ونصف من عملى بهذه الشركة فوجئنا بالشرطة تلقى
القبض على صاحبها لصدور عدة أحكام ضده .. وأغلقت الشركة أبوابها
ووجدت نفسى مع زملائى فى الشارع .. وعدت إلى الفراغ والخوف من
المستقبل من جديد .. فأمضيت عدة أسابيع فى البيت أصبحت خلالها مدمنة
لقراءة أبواب الوظائف فى الصحف .. وحفيت قدماى من الذهاب إلى
الشركات والهيئات لتقديم طلب العمل بلا فائدة .

ومرت الشهور ثقيلة بطيئة وما ادخرته من مرتبى يتسرب من بين أصابعى
بغير أن تلوح أية بادرة أمل وذات صباح قرأت إعلاناً عن كازينو يطلب
مضيفات للعمل به . وتوقفت أمامه طويلاً .. ودارت برأسى الأفكار
فاستعدت بالله منها ، وطويت الصحيفة .. ثم وجدت نفسى بعد فترة أعود
إليها مرة أخرى وأفتحتها على صفحة الإعلان وأقرؤه من جديد وأفكر .. ثم

وجدت نفسى أنهض وارتنى ملاسبى وأخرج إلى العنوان المذكور فى الإعلان وأتقدم إلى المسئول طالبة الوظيفة ! وتفحصنى المدير بنظرة ذات معنى .. وقبل أن يتكلم قلت له حجابى لیس مشكلة لأنى سأخلعه فى العمل وارتنه عند خروجى منه .. والعجیب أنه أشفق على وأدرك مدى احتیاجى للعمل فوافق على تعینى فیه فعدت إلى البیت وأخبرت أبى وأمى أنى وجدت عملا كسكرتيرة فى شركة صغيرة ، وفى البوم التالى ذهبت إلى العمل حاملة معى فستانا من فساتینى القديمة قبل التحجب ودخلت إلى غرفة اللبس وارتنه ثم خرجت إلى العمل ، أحمل المشروبات للرواد وانتقل بین الموائد وأتلقى النظرات الجائعة وأتلقى مداعبات السكارى ٧ ساعات كاملة .. حتى انتهت نوبتى فعدت إلى غرفة اللبس وخلعت الفستان القصير وارتنى ملاسبى المحتشمة وانصرفت مهتزة الأعصاب ، وعدت إلى بیتی وبكى بكاء مرا واعتزمت ألا أعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، ونمت باكية لكنى وجدت نفسى أنهض فى الصباح نشیطة وارتنى ملاسبى وأتوجه إلى عملى الحديد وفى البوم التالى وجدت فى انتظارى یونیفورم العمل الموحد بعد أخذ مقاساتى فى أول بوم .. ووجدته فستانا قصيرا خلیعا فترددت قليلا .. ثم ارتدينه وخرجت إلى القاعة ومرت الأيام ثقيلة .. وفى كل بوم أقرر أن أترك العمل وأنام باكية ثم أنهض فى الصباح كأنى إنسانة أخرى وأذهب إليه .. وبعد أسابیع بدأت أتعیر تدريجیا فبدأت أضیق بالحجاب الكامل .. وبالفستان الذى یحرجر فوق الأرض فقصرته قليلا .. ثم ضقت بطرحتى الكبيرة فاستبدلتها بمبدال صغیر یغطى رأسى وجزءا من رقبتى وبعد أن كان وجهى لا یعرف الماكياج . بدأ الماكياج یتسلل إليه بل وبدأت حین تضیق نفسى مما أواجه من متاعب العمل أطلب سىجارة من إحدى زمیلاتى وأدخنها فى حجرة اللبس . ثم

بدأت أشتري السجائر وأدخن بانتظام .

وتضاعفت الأزمة حين جاء شهر رمضان وهفت نفسى إلى الصوم والصلاة.. فعدت إلى طبيعتى ودعوت الله أن يغفرلى.. ثم انتهى شهر رمضان وجاء موسم الصيف وهو موسم نشاط الكازينو ووجدت نفسى أندمج فى العمل من جديد واستمر فيه حتى الآن.. ٧ شهور كاملة يا سيدى وأنا أمارس هذا العمل بلا قبول منى ولا رفض له تبدأ نفسى فترة، وتتعبذ فترة أخرى.

أريد أن أتوقف عن هذا العمل الذى أخشى أن أفقد نفسى فيه .. وأخاف فى نفس الوقت من أن أفقد دخلى منه وهو موردى الوحيد الآن ولا أستطيع أن أطلب من أى أبة مصروفات لعلمى بما يعانىه ولا أستطيع أن أعود لمسح القاهرة كل يوم بجنا عن عمل .. ولا أطيق الانتظار الطويل لخطاب التعيين . أما أكثر ما يؤرقنى فهو استغلال ثقة أهلى بى الذين يتصورون حتى الآن أنى أعمل فى شركة وأنى مازلت الابنة التى يعرفونها لقد فعلت ما فعلت غصبا عنى وتحت ضغط الظروف التى مرت بها .. فهل تستطيع أن تهديى خواطرى؟! .

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن الطريق إلى الخطيئة يا آنسى مفروش دائماً بدعاوى الاضطرار ! مع أنى من المؤمنين بأن الضرورات تبيح أحيانا المحظورات ، فإن هذا القانون لايمس فى النهاية المحظورات الدينية والخلقية فضلا عن أنى لا أجد فى ظروفك ما يمكن أن تبررى به تقديم أى تنازل من هذا النوع ، فلا أنت رب أسرة مسئول عن توفير لقمة العيش لهم ، فيقبل أى عمل ولو كان غير لائق مرددا لنفسه كلمة الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى « عجبت للرجل لا يجد قوت عياله .. كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه ! » .

ولا أنت رشيدة الأسرة الممزقة بين نداء الواجب الذى يطالبها بتوفير نفقات جراحة عاجلة لأمرها المريضة وبين نداء الضمير الذى يطالبها بعدم التفریط والتنازل كما نرى فى الأفلام السخيفة التى تبرر دائما الضياع بمثل هذه الأسباب الدرامية المقتعلة ..

فما المشكلة إذن ؟ إنك لم تعطلى سوى عدة أسابيع بين عملك الأول وعملك الثانى والألوف من حملة هذا الدبلوم البائس الذى لا أعرف لماذا توسعنا فيه وخريجوه لا يجدون العمل ، ينتظرون بالسنوات إلى أن يجدوا الفرصة .

إن المشكلة فى تصورى هى الاستعجال وفقدان الصبر .. وعفوا إذا قلت لك والاستسهال أيضا الذى يفتح الطريق دائما للتنازل والتفریط . فأنت مهمومة أكثر مما ينبغى بالذين يركبون السيارات ويذهبون إلى النوادى .. وبأبناء البواب الذين يعيشون فى مستوى أعلى من مستوى حياتكم .. وترغبين فى أن تنالى حظا مماثلا من الحياة ، ولا بأس بذلك لأن من حق كل إنسان أن يتطلع إلى حياة أفضل .. بل ومن حقه أيضا أن يتحدث بمرارة عن تناقضات الحياة وعن الفوارق الشاسعة بين « من يجدون مالا ينفقون ومن لا يجدون ما ينفقون » على حد التعبير الشائع لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، لكنه ليس من حقه بالتأكيد أن يلتمس طريقه إلى هذه الحياة الأفضل بأية وسيلة ولو كانت غير لائقة أو غير مشروعة ، وإلا لتحول المجتمع إلى غابة البقاء فيها للأقوى . ومن أخطر ما يهدد سلام الإنسان واحترامه لنفسه أن يتناقض سلوكه تناقضا أساسيا مع قيمه ومبادئه المعلنة ودلالات مظهره .

وأنت قد أسأت إلى نفسك كثيرا بهذا التناقض المخجل بين عملك وسلوكياتك فيه وبين ما يوحى به مظهرك من التزام وتدين . وليست المشكلة فى

الحجاب في حد ذاته لأنه ليس في النهاية كل شيء .. والمظهر وحده لا يكفي للحكم على الجوهر . لكن المشكلة هي في هذا التناقض المعيب وفيما يحمله من خداع للآخرين ، وهو خداع لا يخلق الثقة ولا يولد الاحترام وإنما يضع صاحبه دائما موضع الريبة والشك . وفي حالتك هذه بالذات فإن أى شاب يلمس هذا التناقض في حياتك لا يمكن أن يمنحك ثقته ولا أن يرى فيك الشريكة الملائمة له .. وإنما سيخشى الارتباط بك بأكثر مما يخشى الارتباط بأية فتاة متحررة أخرى ، لأن الفتاة التي تواجه المجتمع بتحررها حتى ولو اختلفنا معها فيه هي فتاة منطقية مع نفسها لاتخضع أحدا ، أما من يتناقض سلوكها مع دلالات مظهرها فهي فتاة مخادعة لا يأمن الإنسان لها ولا يمكن أن يتق فيها . فلماذا وضعت نفسك في هذه الصورة وربما كنت أفضل مما توحى به بكثير؟.

إنني أعتقد أنك لم ترتدى الحجاب أصلا عن اقتناع داخلي كامل به وأغلب ظني أنك ارتديته مسابرة للجوف في الشركة الأولى التي كنت تعملين بها وربما زلني لصاحب العمل لكي تنال رضاه .. لهذا لم يصعب عليك كثيرا أن تتخلصي منه . ولا أن تمارسي عملا وسلوكا يتناقضان معه تناقضا أساسيا . وهذه هي مشكلتك الأساسية ، أما استغلالك لثقة أسرتك فيك ، فهي مشكلة أخرى تعكس نوعا آخر من الخداع لا يليق بك ، وإن كنت لا أعني أباك وشقيقك من المسؤولية في ذلك ، إذ كيف تعملين كل هذه الشهور في هذا المكان بغير أن يفكر أبوك أو شقيقك في استكشاف « الشركة » التي تعملين بها والاطمئنان على وضعك فيها .

إنني آسف لأنني لم أستطع أن أهدئ خواطرك كما تطلبين مني . لكنني قد أستطيع أن أساعدك على أن تضعي قدميك على الطريق الصعب

الذى يمضى فيه الألوػ من الشباب من أمثالك وبتحملون صعوبته ووعورته
وشح مائه .. وقلة عطاءه لأنه الطريق الطبيعى لهم .
أما الطريق السهل الآخر الذى تنجرفين إليه الآن .. فهو ليس طريقهم
مها كان عطاؤه .. ومها كانت لديهم من أسباب حقيقة وغير مفتعلة
« للاضطرار » فهل أنت على استعداد لتحمل تبعات هذا الطريق الصعب ؟ .

الحَصْرُ

سیدی آرید أن أشارك فى بابك بقصتی لإیمانی بأن ذلك هو طریق الوحید الآن لطلب الرحمة والغفران .. فأنا سيدة فى منتصف العمر تزوجت منذ سنوات بعيدة من رجل أنانى ربه أمه على أنه الوثن المعبود المميز على أشقائه ، وربت شقيقته وشقيقه الأصغر على تجنب ثورته . فعشت معه فى البيت الكبير أدور فى فلكه وأرى أمه تخضع له ، وبعد زواج الأشقاء ورحيل الأب خلا البيت لنا أنا وزوجى وأمى .. فبدأ زوجى يخطط للتخلص من إقامة الأم معه وجاءت الفرصة حين توفى زوج شقيقته فأصبحت وحيدة مع أبنائها ، فافتعل خلافا مع أمه وأجبرها على الإقامة مع شقيقته زاعما للجميع أن ابنتها أولى بها وبرعايتها .

وكان والد زوجى قبل رحيله قد أراد أن يؤمن مستقبل زوجته فباع بعض عقارات قديمة كانت قد ورثتها وأدخل زوجته كشريكة له بالنصف فى عمل يديره ويحقق دخلا معقولا . وعندما رحل عن الدنيا كان من الطبيعى أن يدير زوجى هذا العمل ، وكان عملا ناجحا فتسلم زوجى إدارته وواصل نجاحه لكنه منذ اليوم الأول الذى تسلمه فيه لم يعطها مليا من عائدته بحجة أن العمل مضطرب وأنه لم يكتسب بعد الخبرة الكافية لإدارته . وأحست الأم بجاحتها إلى مال سائل يغنيها عن طلب النقود من أبنائها

فباعت آخر ماتبقى لها من ميراثها وكان قطعة أرض زراعية .. وسلمت ثمنها للابن المعبود رغم كل ما بدر منه لكي يشتري لها به شهادات استثمار تدر عليها عائدا شهريا .. فوجد زوجي في ذلك فرصته لتأمين مستقبل الأبناء وكنا قد أنجبنا ابنا وابنة ، فاشتري الشهادات باسمه هو وأصبح يقبض كل شهر عائدها فيعطيا جزءا منه ويحتفظ بالباقي لنفسه .. وصارحنى بذلك ولا أنكر أنى وافقت عليه بل وفرحت بالمبلغ الشهري الكبير الذى أصبح يتقاضاه من الشهادات فضلا عن قيمة الشهادات نفسها التى أصبحت ملكا خالصا لأبنائى فى المستقبل ..

ومرت سنوات دون أن تبدر من الأم أية بادرة شك تجاه زوجي ولكن أيضا دون أن نستمتع نحن بهذا المال لأن زوجي أصبح أكثر حرصا على ألا تبدو علينا مظاهر العيش فى مجبوحة حتى لا يثير شك أمه وأشقاؤه فضمت زهرة العمر وسنوات الشباب ونحن محرومان من الاستمتاع بمتع الحياة وبالعيش فى مستوانا الحقيقي .. خاصة أن العمل الذى أداره زوجي لم يعط العائد الكبير الذى توقعناه فأصبحت النقود التى امتلكنها مجرد أوراق مخزونة فى البنك نحتاج إليها ولا نستطيع الاقتراب منها لكيلا نثير الشكوك .

واستمر الحال هكذا حتى رحلت الأم عن ديانا غير راضية عنا بكل تأكيد وعقب رحيلها اجتمع الأشقاء فى البيت الكبير .. فأعلن عليهم زوجي بكل ثبات أن أهمهم لم تترك شيئا وراءها .. فالشهادات باسمه فى البنك منذ زمن طويل والعمل الذى يديره قد نقل ملكيته له منذ سنوات فى الأوراق الرسمية ، بغير أن تعرف الأم أو الأشقاء أما البيت فهو يقيم فيه ومن حقه الانتفاع به مدى الحياة ، فخرج الأشقاء من بيتنا محسورين مكلومين داعين علينا وعلى أولادنا فى أعماقهم بالبوار والخسران ، وقابل زوجي الموقف ببرود

شديد ولم يهتم حتى بوداع شقيقته التي جاءت من بلدة بعيدة لتحضر وفاة أمها .

دخلت الدنيا لنا بعد ذلك تماما .. فلا خوف من حساب .. ولاخشية من أن تظهر علينا مظاهر الثراء وأصبحت أنا سيدة البيت الكبير بلا منافس .. فاطمأنت نفسى إلى ذلك .. واستعددت لكى نعوض سنوات الحرمان الطويلة .. وتطلعت إلى الاستمتاع بالدنيا والمال والسعادة .. فبدأنا نعيش فى مستوى يتناسب مع وضعنا الاجتماعى واشترينا سيارة وأمضينا اجازة فى المصيف لأول مرة أنفقنا فيها مايزيد على ألف وخمسمائة جنيه بعملة تلك الأيام منذ سنوات ، واشترينا التليفزيون الملون الكبير بعد أن كنا نشاق إليه ونحاف من شرائه حتى لاتحاصرنا الشبهات ، ثم اشترينا أحدث جهاز للفيديو ظهر فى الأسواق وقتها وغيرها التلاجة المصرية القديمة بثلاجة مستوردة « ١٦ قدم » بباين لتتسع لأطياب الطعام والفواكه التي كنا نحفظ فى شرائها إمعانا فى التخفى ، واشترينا الملابس الفاخرة لنا ولأبنائنا وساعدنا على ذلك أن العمل قد ازدهر فعلا بعد أن استفاد زوجى بثمان الشهادات فى توسيعه . وعرفنا الثراء ولم يقلل من استمتاعنا به تأنيب الضمير .. أو إحساسنا بأننا اغتصبنا حق الأشقاء الذين يعيشون حياة بسيطة ويعانون من صعوبات الحياة فزوجى قد ترى على أنه المميز على أشقائه ومن الطبيعى أن يعيش فى بجموحة .. وأن يعيشوا هم حياتهم البسيطة لأنه الكبير .. العظيم .. الممتاز واشتدت صعوبة الحياة على شقيقه الوحيد فاضطر إلى الهجرة إلى السعودية لكى يستطيع أن يتزوج فانقطعت صلته بنا . كما انقطعت تقريبا صلة شقيقته بنا فأصبحت الشهور الطويلة تمر بغير أن تزورنا إحداهما .. وبغير أن يدق جرس التليفون من جانبها أو جانب الشقيق ولم يهتم زوجى بالأمر أما أنا فقد

شغلت بجياني الجديدة .. وشغلت أكثر بالعبء الثقيل الذي وقع على بعد رحيل أم زوجي وهو عبء إرضاء الصنم المعبود الذي اعتاد أن يكون محور الأشياء ومركز الكون .. ، فبعد رحيل أمه وتباعد الأشقاء أصبحت مسئولية إرضائه تقع على وحدي فناء كاهلي وشهدت حياتنا الخلافات المستمرة وأصبحت بها حياتي معه خناقة مفتوحة إلى مالا نهاية ، وفي هذا الجو تخطى ابني وابنتي سن الطفولة ودخلا مرحلة المراهقة .. فنشأ في جو مفعم بالخلاف والكراهية .. فكثرت مصادمتها معا .. وكثرت مشاكلها .. حتى ترسخ في قلبي إنها يتبادلان الكره الشديد وساعد على ذلك أن ابني الوحيد قد ورث عن أبيه الاعتقاد الخاطيء بأن الرجل ماهو إلا حنجرة عالية وأن هذا ما يميزه عن المرأة ، ففرض سطوته على شقيقته واضطهدها بسبب وبلا سبب حتى انهارت ذات يوم وانتابها نوبة عصبية شديدة فأسرعنا باحضار الطبيب الذي أعطاها بعض المهدئات ونصح شقيقها بعدم إثارتها .. فاستهجن النصيحة واعتبر ما حدث لها مجرد دلغ لكيلا يحاسبها أحد على شيء .. وواصل طريقته في استفزازها حتى انهارت مرة أخرى بعد أيام .. وجاء الطبيب وأعاد فحصها ثم نصح باستشارة طبيب للأمراض العصبية ذهبنا إليه ففحصها بعناية ثم نزل على رءوسنا بالحقيقة القاسية وهي أنها مريضة بالصرع ولا شفاء لها منه سوى توفير الجو الهادئ لها وعدم استثارتها ، والاستمرار في العلاج النفسي والعصبي إلى الأبد فبدأنا متاهة العلاج لدى الأطباء النفسين والعصبيين .. وأصبحت حياتها وحياتنا معا جحما لا يطاق إذ كيف يثمر معها العلاج في مثل هذا الجو المتوتر .. ثم ماذا عن مستقبلها وقد قاربت سن الزواج وتعثرت في دراستها .. وأصبح من الصعب أن نجد من يرضى بزواجها وهي مريضة نفسيا وعصبيا وتهاجمها نوبات الهياج من حين لآخر.

هذا هو حال ابنتي الوحيدة أعانها الله عليه .. أما ابني الصنم الصغير فقد
تعثر في دراسته أيضا وفشل في الحصول على الثانوية العامة مرتين ثم توقف عن
استكمالها وانضم إلى أبيه في العمل الحر .. وبلغ سن الشباب .. فأحب فتاة من
جيراننا وطلب الزواج منها فعارضت لأنه لم يتجاوز الواحدة والعشرين ..
لكنه أصر .. وكيف لا وهو الرجل الذي لا ترد له كلمة فخضع أبوه لرغبته وتم
الزواج وانتقلت الزوجة الشابة إلى البيت الكبير لتعيش معنا .. فلم تحتمل
الحياة معه بطباعه الأنانية التي ورثها عن أبيه أكثر من شهرين وطلبت الطلاق
وأصرت عليه وعادت إلى بيتها ، وبعد عام آخر أحب ابني فتاة أخرى
وتزوجها بلا معارضة مني ولا من أبيه هذه المرة بل لعلنا شجعناه على ذلك
لكي يعوض فشله في الزواج الأول ، لكنها لم تعش معه سوى عشرة شهور
طلبت بعدها الطلاق وأصرت عليه حتى نالته ، فيس ابني من أن يجد من
تتحمله بطباعه وصفاته هذه .

أما زوجي رب هذه الأسرة المفككة المهارة فقد هاجمه الشلل النصفي
عقب طلاق ابنه الثاني ومرض ابنته بالصرع .. فأقعده المرض في البيت
وأصبح .. غفر الله لي .. عبثا ثقيلًا نفسيًا وماديًا على البيت لأنه أصبح يحتاج
إلى أضعاف أضعاف الخدمة والرعاية التي كان يحتاجها من قبل وإلى أضعاف
أضعاف الاحساس بأنه مازال الإله المعبود وأنتا مازلنا العبيد الصاغرين .

وفي هذه الأيام العصبية ظهر في جدران البيت الكبير وهو منزل قديم
واسع من دورين في إحدى مدن الأقاليم شرخ كبير ، فاستدعينا المهندس
لمعاينته .. فجاء وفاجأنا بقوله إن المنزل آيل للسقوط خلال شهور وأنه لافائدة
من ترميمه ولا بد من مغادرته خلال فترة قصيرة قبل أن ينهار .. فنزل علينا
الخبر كالصاعقة فلقد تغيرت الدنيا في السنوات القليلة الماضية وأصبح الحصول

على منزل آخر أو شقة واسعة يتطلب عشرات الألوف التي لم نضعها في الحسبان كما أن إعادة بنائه ، عبء ثقيل لانستطيع احتماله الآن .

ولم يصدق زوجي كلام المهندس فأحضر مهندس الحكومة في المدينة لمعاينة البيت فعابته .. وكرر نفس الكلام وزاد عليه أنه أرسل إلينا إنذارا رسميا بمغادرته قبل انهياره ، فاستسلمنا لنصيئنا واستأجرنا شقة صغيرة بإيجار باهظ إنحشرنا فيها جميعا بعد أن اعتدنا على المسكن الواسع .. ونقلنا بعض أثاثنا إليها .. ولم يمهلنا القدر لنقل البعض الآخر لأن البيت قد انهار فوقه .. وحمدنا الله أن نجونا منه وان كنت قد أسفت على كثير مما راح تحته .

وفي هذا الجو الكئيب زاد النفور بين زوجي وابني حتى وصل إلى حد كراهية الابن لأبيه بعد أن أصبح هو المشلول الوحيد عن العمل بعد مرض زوجي وأصبح يتصرف في بعض الأمور دون استشارته فيثور عليه أبوه ، فلا يتورع ابني عن أن يرد على ثورته بثورة أشد حتى كادت الأمور تصل بينهما إلى ما هو أسوأ من ذلك لولا تدخل الجيران في الوقت المناسب وبعد أن أصبحت سيرتنا على كل لسان .. ووجدت نفسى الضحية في كل ذلك فضاقت نفسى بكل شيء .. وكرهت بيتي وحياتي وأيامي وطلبت من زوجي أن أحج إلى بيت الله الحرام لأطلب من الله أن يرحمنا برحمته وأن ينقذ بيتنا التعيس من الانهيار ووافق زوجي وسافرت إلى الأراضى المقدسة وأديت المناسك وبكيت طويلا أمام قبر الرسول وحول أستار الكعبة وبعد انتهاء مناسك الحج صفت روعي فخطر لي أن أزور شقيق زوجي الأصغر الذي يقيم هناك وأن استعيد علاقتنا معه ، فذهبت إليه على عنوانه فاستقبلني الرجل وزوجته وأولاده أحسن استقبال ورحبوا بي غاية الترحيب وتجنبوا الحديث عن الماضي وحاولوا بإصرار استضافتي لعدة أيام وسألني الرجل عن أحوال زوجي وكان يعرف كل

شئء من خطابات شقيقته .. وتألم لحاله ودعا له بالشفاء وأمضيت معهم وقتا لم أشعر بمثل هنائه وصفائه منذ سنوات طويلة ورأيت أسرة سعيدة هادئة تعيش في جو من الحب والألفة والسلام وقد نجح الأبناء في دراستهم والجميع يظلمهم الحب والتدين والوفاء وقد تجنب شقيق زوجي السفر إلى مصر لكيلا يلتقي بشقيقه بعد ما حدث منه فكان يمضى اجازاته الصيفية كل سنة في بلد من بلاد العالم الجميلة وأروني ألبوما به صورهم وهم في مختلف البلدان سعداء ضاحكين فرحين بما أتاهم الله ويتبادلون الحب والإعزاز ولم أستطع تحمل المقارنة أكثر من ذلك وخرجت من تلك المقابلة بشئء واحد هو أنني قد صمت في الماضى على طمع زوجى بحجة تأمين مستقبل الأولاد فوجدت نفسى أمام مستقبل أسود كثيب فقد فيه أولادى الحب والدفع والسلام ، وعرفت أنني لن أستطيع حتى طلب الرحمة بعد أن فات أوان التوبة إذ كيف أرد الحق المسلوب وقد مضى كل شئء منذ سنوات ولم أعد أستطيع رد المال لأصحابه .. فوجدت نفسى فجأة تمتلئ حقدًا على زوجى بل وعلى شقيقه وأولاده أيضا وعدت إلى مصر ولم أستطع أن أواجه زوجى بما رأيت في بيت أخيه ولما حاولت أن أفتح معه الموضوع لم أجد عنده أية رغبة في تصحيح الأوضاع بل وجدته مصرا على أن المال وماتبقى منه هو حقه لأنه ضحى كثيرا واحتمل أمه كثيرا كما ضحى بوقته ورعى العمل الذى تركه أبوه فتأكدت من أنه قد لف الحبل حول عنقه إلى الأبد وأحزنتنى أن هذا الحبل قد اعتصر شباب أولادى بلا ذنب جنوه فلم أجد أمامى سوى أن أكتب إليك لأحذر الآخرين من أن يقعوا في نفس الوهم الذى وقعت فيه عسى أن يغفر الله لى ولأبنائى ا .

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : لم تضع الفرصة بعد يا سيدتى حتى ولو بدا

لك أن زوجك مصر في جهاته على أن يبوء بالخسران المبين فالحق أن مسؤوليتك عما حدث أكبر مما تتصورين ومسئوليتك عن إعادة الحق لأصحابه أكبر من مجرد مفاطحة الزوج في الأمر ثم النكوص سريعا أمام إصراره . لأنك ساهمت بقدر عظيم في الجريمة بسكوتك عن الحق في حينه « والساكت عن الحق شيطان أخرس » وبتشجيعك له على العدوان على حقوق أمه وأشقائه والمشجع على الإثم شريك فيه حتى ولو لم تقترفه يداه .

بل إن مسؤوليتك تتجاوز كل ذلك وتفوقه لأنك لو كنت تصديت لزوجك منذ البداية وأبيت عليه أن يقتصب مال أمه وأن يرى أبناءه بمال حرام لما تمادى في غيه ولما وجد من يعينه على ظلمه لأن وسواس الشر لو اصطدم بإرادة قوية خيرة يمكن أن ينهزم ويتراجع والزوجة مسؤولة عن أن تعصم زوجها وترده عن السطو على مال الغير ، لأن آثاره سوف تتسحب على حياتها وحياة أبنائها .. وكثير من الزوجات الصالحات كن صمام الأمان بالنسبة لأزواجهن بتعففهن عن الحرام وتصديهن لضعف بعض الأزواج واستجابتهم لوساوس الشر ، لكنك تخليت عن دورك الأساسى هذا وباركت وشجعت .. فلقتك الحياة درس التجربة القديمة قدم التاريخ .. وهو أن المال الحرام لا يغنى ولا يضمن من جوع ولا يجلب سوى الخراب النفسى والجسمى لأصحابه ، ولا يؤمن مستقبل الأبناء ، كما يوهم البعض أنفسهم مبررين لها هذه الجريمة وإنما يؤمنه لهم فقط خير الزاد الذى يستطيع كل إنسان أن يورثه أبناءه لو التزم بقول الحق سبحانه وتعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

فليتقوا الله يا سيدتى وليكسبوا المال الحلال ولو كان شحيحا وليس « فليسرقوا » مال الأمهات والأشقاء أو « فليرتشوا » ويختلسوا .. وينهبوا المال العام

ويسرقوا أموال البنوك وراغبى السفر للخارج وراغبى السكن .. وغيرهم من ضحايا السعار العام الذى ينتاب البعض أملا فى الثروة .. وطلبا للأمان الزائف لهم ولأبنائهم .

هذا هو الطريق ياسيدتى وليس غيره .. وقصتك أبلغ دليل وأقوى حجة على من تضعف إرادتهم أما المغريات إذ ماذا حقق لكم المال المغتصب .. وقد لمست بنفسك حياة شقيق زوجك الذى فاز بالكرامة والسلام والحب وصلاح الأبناء ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم .

إن من حقلك أن تأسى بنصيبك من الشقاء .. وأن تقارنيه بنصيب شقيق زوجك وشقيقته أيضا لكنه ليس من حقلك أبدا أن تحمى على شقيق زوجك لأنه ليس مسئولاً عما أصابكم من كوارث وإنما المسئول عنها هو أنت وزوجك الذى عتق أمه وخان الأمانة فعمجل الله له العقاب فى الدنيا واعتصر الحبل الذى يلفه حول عنقه كما قلت أنت صديقة ابنك فشلا فى دراستها وفى حياتها .. وعانت ابنتك من الأمراض العصبية والنفسية . وفسدت علاقة ابنك بأبيه حتى ليكاد يعتدى عليه لولا تدخل الجيران ولا عجب فى ذلك لأن من عتق أبويه عتق ولده كما يقول الحديث الشريف . ولأن من كان فى جحر الأفاعي ناشئا غلبت عليه طبائع الثعبان ، والقصة قديمة ولا جديد تحت الشمس فحصاد الظلم شقاء وتعاسة وفشل فى الدنيا والآخرة .. ومع ذلك فقليلون هم من يعون درس التجربة .. وكثيرون هم من يصرون على تكرار الخطيئة فيشربون من الماء المالح فلا يرتوون .. ولا يبرد لهم ظمأ .. ولا يكفون عن الشكوى والأنين . لقد خسرت كل شىء ياسيدتى ومن واجبك أن تدافعى عن فرصتك الأخيرة لاستعادة سلام النفس وراحة القلب والضمير قرئى لله وأملا فى رحمته لأبنائك قبل رحمته لك ، وليس أمامك سوى أن

تقاتلى لاقتناع زوجك بأن يطهر نفسه وأسرته من أدران هذا المال الملعون ...
فإذا عجزت بعد الجهد الجهيد كان لك أن تقولى صادقة أنك قد أبرأت
ضميرك وذمتك ونفضت يدك من جريرته .. وإن كانت كثيرات غيرك يرفضن
التسليم بالعجز فى مثل هذه الحالة ولو أنصف زوجك لما تمسك بالمال الحرام
وهو يرى نفسه فريسة للعجز والمرض ، وابنته فريسة للمرض العصبى وابنه
شاردا نافرا فاشلا قد ملأ الكره قلبه تجاهه .. فيحاول أن يطهر نفسه وينقذ
روحه وأسرته لطريقين لاثالث لهما هما أن يعيد لأشقائه ما لهم المغتصب ويسألهم
العفو والغفران أو أن يستوهم هذا المال إذا كان عاجزا حقيقة عن رده ،
فيقبل الأشقاء رجاءه ويتنازلون له عنه بنفس راضية وقلب صفوح ..
أما بغير ذلك .. فلا أمل .. ولا نجاة .. ولا رجاء فى مغفرة أو سعادة أو
أمان .

إن المال الحرام لا يغنى ولا يضمن من جوع ولا يجلب سوى الخراب النفسى
والجسمى لأصحابه ولا يؤمن مستقبل الأبناء . كما يوهم البعض أنفسهم
مبررين لها الجريمة . وإنما يؤمنه لهم فقط خير الزاد الذى يستطيع كل إنسان أن
يورثه أبنائه .

القسط الأخير

أنا شاب فى السادسة والثلاثين من عمرى ماتت أمى وأنا طفل فى الخامسة من عمرى وتركتنا ثلاثة أطفال أكبرنا فى السابعة وأصغرنا طفلة فى الثالثة فى رعاية أبى الموظف بإدارة إحدى الجامعات بالقاهرة وبعد رحيل أمى رفض أبى الزواج واستعان بسيدة كانت تعمل لدينا على رعايتنا فى فترة الصباح إلى أن يعود هو من عمله ليتفرغ لنا حتى نأوى إلى فراشنا مكدودين آخر الليل ومضت السنوات وأبى يحنو علينا ... ويتولى شئوننا ويذهب معنا إلى المدرسة ليتابع تعليمنا .. ويسأل جارائنا العون إذا عجز عن التصرف فى بعض شئوننا خاصة شئون شقيقتى حين احتاجتا إلى مشورة السيدات فى بعض أمورهما وكان أبى راضيا بقدره وقدرنا رغم ما كان يتابه أسيانا من مسحة ألم فى وقت الأصيل وهو يجلس فى الشرفة يسمع بعض الأغانى الحزينة من الراديو وفى جلساته هذه كان يقول لى دائما أنت رجل الأسرة من بعدى الذى سيحمى شقيقتيه من غدر الدنيا .. فكن رجلا وتحمل مسئوليتك ..

ورغم سنى الصغيرة فى هذا الوقت فلقد كنت أحس لكلماته معنى غامضا يدفعنى لأن أترفع فى أحيان كثيرة عن ألعاب الصغار واستشعر المسئولية دائما عن شقيقتى حتى عن الكبرى منها ورغم تحسرى الآن على سنوات طفولتى التى لم أستمتع بها إلا أنى أدركت بعد نظر أبى . حين رحل عنا هو الآخر فجأة وأنا فى

سن الخامسة عشرة ووجدت نفسى كما كان يقول لى دائما « رجل الأسرة » .
وبعد رحيل أبى وانصراف المعزين قرر عمى أن يضمنا إلى بيته لنعيش مع
أبنائه وأبلفنى بأنه سينقل أوراقنا إلى مدارس قريبة من بيته .. فوجدت نفسى
وبغير استشارة أحد أشكره وأرفض دعوته بحزم لأسباب محددة شرحتها له بثبات
هى أن شفته ضيقة ولا تتسع لغير أهلها ولأن أبنائه أولاد فى سن الشباب ..
وليس فى الشقة غرفة يمكن تخصيصها للبنات ومن غير المعقول أن ننام جميعا فى
غرفة واحدة فى حين أن فى شقتنا غرفة لها وقلت له أننا اعتدنا على الحياة وحدنا
منذ الصغر ولن يصعب علينا استكمال المشوار بنفس الطريقة ، واستمع عمى
إلى كلامى وطفرت الدموع من عينيه وقال لى إنه مقتنع بما قلت لكنه يريد أن
يسمع رأى شقيقى فأيدتانى فيما قلت .. فتركنا لما أردنا وهو مشفق علينا ..
وتفرغ لانهاء أوراق المعاش حتى تم صرفه وأصبح يحيينا كل شهر حاملا لنا
المعاش ويتردد علينا من حين إلى آخر ليطمئن علينا .

وعلمتنا الحياة دروسها الجديدة فى كل يوم مر بنا .. فتعلمت شقيقى
الكبرى التفصيل عند إحدى جاراتنا لتفصل لنا ملابسنا المتزلية .. ثم فرضت
علينا ظروف الحياة بعد قليل أن تفصل لنا ملابس الخروج ، حتى أصبحت
تفصل لى قمصانى وبنطولونائى وأصبحت واجبات البيت مقسمة بيننا نحن الثلاثة
بالعدل .. وأصبحت ميزانية البيت من نصيبى فتحملتها ورغم تجلدنا وصبرنا
فلقد كان يحدث أن يختل الميزان ، فنعجز عن سداد فاتورة الكهرباء وكانت
أيامها بالقروش وليس بالجنيهات كما هى الآن . فأتى المحصل فلا يجد نقودا
فيترك الفاتورة للسداد خلال ١٥ يوما فلا تتوافر لنا النقود ، فأتى العامل لقطع
التيار وإعطائنا مهلة لمدة أسبوعين للسداد أو رفع العداد ولأن الحاجة هى أم
الاختراع .. فلقد تعلمت أن أواجه كل هذه المواقف بثبات بل وتعلمت أن أقوم

بعد قطع التيار وانصراف العامل ، بإعادة التيار بالصعود على سلم إلى مكان « الكوفريه » ووضع قطعة سلك جديدة فيه لكيلا نحرم من الاضاءة خلال فترة المهلة .. وتكررت الحكاية مرتين وفي الثانية نظر العامل وكان رجلا في الخمسين من عمره إلى وإلى شقيقتي وأدرك الموقف بلمحة فقال لى بأريحية : هذه أيام امتحانات لهذا لن أقطع الكهرباء عنكم .. وسأؤخر رفع العداد قدر استطاعتي لكن حاولوا أن تدفعوا قبل المهلة حتى لا تتحملوا غرامة رفع العداد .. وودعنا مبتسما وشكرناه ولم يقطع التيار عنا بعد ذلك مهما تأخرنا بل كان يأتي لينبنا إلى قرب انتهاء المهلة لكي ندفع المتأخر علينا .

أما الإيجار فلقد كنت أحرص على دفعه كل شهر عندما أتسلم المعاش من عمى .. لكن ذلك لم يمنع من أن أعجز عن دفعه في الموعد المحدد في بعض الحالات الطارئة خاصة حين دخلت شقيقتي معهد التربية البدنية واحتاجت إلى شراء بعض الملابس الرياضية وبعض النفقات ، أو حين دخلت أنا الجامعة وزادت نفقات الكتب والدراسة أو حين احتاجت أختي الصغيرة إلى بعض الدروس وهي في الثانوية العامة . والحق أن صاحب البيت الذى يسكن معنا فيه كان كريما ، إلى أقصى الحدود معنا رغم أنه كان حريصا على إرسال الايصالات لباقي الشقق أول كل شهر مع البواب .. أما نحن فكان لا يرسل لنا الايصال حتى أطرق باب شقته وأدفع إليه قيمة الإيجار مهما تأخرت في ذلك وتقدمنا في دراستنا الجامعية .. وقبيل تخرجى جاء فى شاب مدرس بالمعهد الذى تدرس به شقيقتي يطلب يدها منى ، فاستمهله حتى أستطلع رأيها ووجدتها ميالة إليه ، فأبلغته بموافقتي وطلبت منه احتراما لعمى أن يحطها منه ، وصارحته بحالتنا المادية فوجدته يعرف عنا كل شىء واسترحت إليه واتخذته صديقا وتمت الخطبة وتخرجت شقيقتي وعينت مدرسة .. وتخرجت أنا وحصلت على عمل فى

إحدى المؤسسات بما يشبه المعجزة ووضعنا خطة ثلاثية لتجهيز شقيقتي فخصصت لها ثلث مرتبي وخصصت هي نصف مرتبها للجهاز وبدأنا نشترى ما تحتاج إليه بالتقسيط ، وخلال ٣ سنوات تم إعداد كل شيء في حدود طاقتنا . وكان ستر الله علينا عمما ، كما كان طوال سنوات وحدتنا .. فحافظنا على مظهرنا بغير أن نطلب من أحد شيئا وفرشنا شقة العروس الصغيرة بالأثاث البسيط الجميل الذي اشتريناه .. وعلقنا فيها نسخة من الصورة العائلية الوحيدة التي تجمع بين أبي وأمي وأطفالها الثلاثة .. والتي نعلقها في صالة مسكننا ويوم الزفاف حملنا صاحب البيت في سيارته إلى بيت العريس ، فدخلنا إلى صالة الفرح ، وذراعى في ذراع شقيقتي وهي في فستان الزفاف وشقيقتنا من خلفها ترفع ذيل فستانها حتى اقتربنا من الكوشة فأمسكت بيد أختي ووضعتها على يد عريسها وقلت له : هذه أمانة تسلمتها من أبي وعمري ١٥ سنة وحافظت عليها ... وأسلمها إليك الآن فاحفظها كما حفظتها وحاول أن تسعدها فهي يتيمة وعانت الكثير في حياتها فدمعت عيناه وقبل يدها وعانقتني وقبلني وعاهدني على أن يرعاها ، وانتهت الليلة وعدت مع شقيقتي إلى بيتنا ونحن سعيدان رغم حزننا لفراق أختنا .

وصدق زوج شقيقتي في عهده فعاش معها حياة سعيدة هادئة يسودها الحب والتعاطف المتبادل وتقشفنا عامين آخرين حتى انتهى سداد آخر الأقساط ، وتخرجت شقيقتي وعملت أيضا مدرسة وقبل أن التقط أنفاسي جاعني زميل لها يطلب يدها فتكررت نفس القصة بنفس مشاهدا وبدأنا خطة ثلاثية جديدة لتجهيزها وشاركت شقيقتي الكبرى معنا بتشجيع من زوجها في نفقات الجهاز .

وحين أغلق الباب عليها وعلى زوجها تنفست الصعداء سعدت لشقتي

ونظرت إلى الصورة العائلية المعلقة في الصالة براحة شديدة كأني أقول لأبوي فيها لقد أدبت الأمانة وأن لي أن أستريح ودخلت فراشي سعيدا رغم أني قد أصبحت بعد زفافها وحيدا تماما . واستعدت وأنا في « وسن » النوم كلمات أختي الكبيرة لي ونحن في الفرح : لقد زوجتنا وأنهيت مسئوليتك ففكر في الزواج ، وإذا لم تكن قد فكرت في بعض زميلاتك فعندي من زميلاتي أكثر من واحدة تتمناك زوجا لها . وفي اليوم التالي تذكرت كلمات شقيقي وأنا في مكنتي بالمؤسسة الملح زميلاتي في المكتب وأتذكر هذه حاولت أن تقترب مني منذ ٨ أعوام ولم تجد مني تشجيعا فتزوجت وأنجبت وهذه أعادت نفس المحاولة منذ ٤ سنوات وانتهت نفس النهاية .. وهذه عينت منذ عام فقط ولكنها لم تحاول الاقتراب مني أبدا ولعلها مرتبطة بآخر وهذه .. وتلك وساءلت نفسي أين هي من تقبل الانتظار عامين حتى أنتهي من سداد الأقساط ثم ثلاثة أعوام أخرى حتى استعد ماديا .. فتزوج كهلا يودع سن الشباب وقررت أن أدع الأمر للخالق والأشغل بالي بالزواج وتناوبت شقيقتاي زيارتي وتنظيف شقتي وإعداد طعام الأسبوع لي وكلما لمست سعادتها اطمان قلبي وأحسست بالراحة تعم قلبي ..

ومضت الشهور وكلما اقتربت الأقساط من نهايتها وجدت لدى بعض الجرة للتفكير في الزواج وفي هذه الأيام وجدت نفسي مهتما بمراقبة تلك الزميلة العازقة عن الاقتراب مني ، فلاحظت عليها البساطة والهدوء والاحترام .. ثم دعاني رئيسي إلى مكتبه ذات يوم وهو رجل فاضل في الخمسين من عمره متدين ومثقف أستريح له وأروى له بعض ظروف حياتي وكثيرا ما عرض على المساعدة باقراضى بعض النقود في زواج شقيقي فرفضت شاكرا ، وبعد حديث قصير نصحتني بضرورة الزواج قبل أن يفوتني القطار وقال : بعضهم يريدونك ويرضونك فأين للمحيتك يا صديق .. إن زميلتك الجديدة مهتمة بأمرك لكنك

غارق في ذاتك ولا ترى من حولك فدهشت وصارحته بأنها لم تعرنى اهتماما منذ عينت بالعمل ، فصارحتني بأنها فتاة جادة وقد تم تحذيرها مني بحجة أنك غارق في مشاكلك ولا تفكر في الزواج فاحترمت نفسها وانتظرت أن تأتى الخطوة الأولى منك وغادرته سعيدا ومذهولا في نفس الوقت وعدت إلى مكتبي ووجدت نفسى أنظر إليها بعين جديدة .. ووجدت نفسى بعد أيام شغوقا بها كأنى اكتشف وجودها لأول مرة .. ونشأت بيني وبينها صداقة حميمة وصارحتها بكل ظروف حياتي وصارحتني أيضا بكل ظروفها وكنت قد أوشكت على سداد القسط الأخير فطلبت منها أن تحدد لي موعدا مع أسرته لزيارتها فرحبت بذلك سعيدة وذهبت إلى أختي الكبرى وأختي الصغرى وأسرتت إليهما بالنبا وحددت لهما موعد الزيارة لتصبحاني مع زوجها وهم كل أسرتي بعد وفاة عمي وهجرة أبنائه وراء العمل والرزق .

ونهضت صباح يوم الزيارة مرهقا قليلا ربما من قلة النوم وذهبنا إلى بيت زميلتي وتعرفنا على الأسرة وحددنا موعدا آخر لقراءة الفاتحة .

وفي اليوم التالى أحسست بأن جسمى ثقيل وبأنى أشعر بالتعب فذهبت إلى طبيب المؤسسة الذى أعطانى بعض الأدوية .. وشاع مشروع الخطبة بين الزملاء فهناؤنا وساد جو من المرح والدعابة مكتبنا . وعدت إلى بيتي سعيدا وأثناء صعودى السلم عاودنى الاحساس بالارهاق والدوخة فتحاملت على نفسى إلى أن دخلت مسكنى وقبل أن أصل إلى السرير فوجئت بإغماء يتابنى لأول مرة في حياتي وأفقت بعد قليل فخرجت لأذهب إلى طبيب خاص في نفس الحى ففحصنى ثم طلب بعض التحاليل فأجربتها في معمل خاص بعيدا عن المؤسسة وعدت إليه ليصدمنى بأنى مريض بالسكر وعلى أن أتبع نظاما علاجيا وغذائيا خاصا ، وعدت بالأدوية حزينا إلى مسكنى .. وجلست في الصالة أمام نفس

الصورة ونظرت إليها طويلا واستسلمت لشريط الذكريات وأسترجع ما مر بنا ونحن صبية صغار حائرون في مواجهة الدنيا ونحن شباب لا معين لنا في الدنيا وشقيقتائى ترفان إلى زوجها وسنوات الجفاف الطويلة التي عشتها أداء لمستوليائى .. ثم أخيرا وبعد أن بدأت نسام الراحة تهب على حياتى فإذا بي أفاجأ بهذه المفاجأة القاسية ترى هل أثر المشوار الطويل على صحتى .. أم أنه كان قدرا مقدورا من البداية لكى أمضى العمر كله فى عناء متواصل .. وهل محكوم على البعض أن يعيشوا حياتهم كلها فى شقاء لقد قرأت فى ردك على رسالة منذ فترة تعبيرا يتردد فى ذهنى كثيرا الآن هو « ما أحلى الراحة بعد العناء » .

وكلما تذكرته سألت نفسى وأين هى الراحة يا سيدى لمن كانت حياته عناء فى الماضى وستكون كذلك فى المستقبل .

لقد أخفيت نبأ مرضى عن شقيقى وعن فتاتى .. وموعد قراءة الفائحة يقترب بعد أيام .. وأجد نفسى فى موقف عصيب لا أعرف كيف أتصرف فيه .. أفكر فى النكوص وأشفق مما سيصيب فتاتى منه فى سمعتها وموقفها وحرجهأ أمام أسرتها وزملائها لقد عجزت عن التفكير الصائب فماذا تشير على ؟ .

□ □ ولكتاب هذه الرسالة أقول : لن تفعل ذلك بإذن الله لأنك إنسان جاد أمين تحملت المسئولية عن شقيقتيك وأنت فى سن الصبا وأديت الأمانة خير الأداء .. ولقد جاء الوقت الآن لكى تودى نفس الأمانة عن نفسك .. وعليك أن تؤديها خير الأداء أيضا .. وألا تقصر فى حق نفسك باستسلامك لهذه الهواجس المريرة ..

لقد اعتدت أن تكون دائما المضحى من أجل الآخرين .. وبوحى من هذا الإحساس النبيل المرهف تفكر فى النكوص عن مشروع الزواج متصورا بذلك أنك تجنب فتاتك الشقاء وتضحى بسعادتك من أجلها .. لكنك هذه المرة

بالذات لا تملك حق التضحية .. لأن الأمر لا يتعلق بك وحدك وإنما بإنسانه
أخرى رأت فيك عن حق فتى أحلامها وشريك مستقبلها ولا يجوز أن تنفرد في
قرارك بشأنها وإنما ينبغي عليك أن تبلغها بأى شيء عادى من شئون الحياة ،
فالأمر أهون كثيرا مما تتصور ولا أشك في أنك سوف تجدها أكثر رعاية لك مما
تعتقد وتتصور ، فالطيور على أشكالها تقع يا صديق ونحن كثيرا ما نلتقي في طريق
الحياة بأنفسنا فإن قدمنا للحياة الشر والأناية قابلناهما عند الآخرين في كثير من
الأحيان وأنت إنسان أمين ومن العدل أن تكون فتاتك جادة وأمينة مثلك وأكثر
فهمًا للحياة مما تتصور والعارض الصحى الذى تشكو منه ليس فى النهاية سوى
عارض بسيط يمكن أن يلم بأى إنسان فى أى مرحلة من العمر ، وهو عارض
رفيق لا يحرم الإنسان من حقه فى السعادة والزواج ولا يقف حائلا دون
ممارسته لحياته العادية طوال العمر ومن السهل السيطرة عليه ، وترويضه
ومصادقته والحياة الزوجية عموماً ليست دائماً نزهة بحرية فى بحيرة البجع ..
وإنما هى رفقة عمر فى السراء والضراء وفى الصحة وفى المرض وفى الرخاء وفى
الشدة ولا يكاد إنسان يخلو من مرض على الأقل فى علمنا الثالث البائس
والصحة والمرض من أمر الله وعلينا أن نتقبل دائماً ما تأتينا به المقادير ..
والرسول الكريم كان يسأل ربه قلباً خاشعاً وعلماً نافعاً ولساناً ذاكراً ثم «بدنا
على البلاء صابراً ، إذن فلتصبر ولتقبل ما جاءتك به الحياة .. وهو أهون
كثيراً من أى بلاء آخر ولست وحدك فى ذلك ، فكلنا يؤدى أقساطنا فى
مواعيدها للحياة ومهما اختلفت نوعية الأقساط أو حجمها فهى فى النهاية
أقساط واجبة السداد وسوف تؤديها سواء تقبلنا ذلك وصبرنا عليه أو رفضناه
وأنكرناه .

فتق بالله وبنفسك وانظر لما حققته فى حياتك من أداء للواجب الإنسانى

لترضى عن نفسك وتعرف أن من حَقك فعلا أن تسعد وأن تستريح بعد العناء
وأن ما حدث لن يغير من قدرتك على الاستمتاع بالراحة بعد المشوار الطويل ولا
يجوز أن يحرم فتاتك منك ، فأنت هدية الحياة لها وهى هدية قيمة حقا فلماذا
تريد أن تبخل بها عليها وأنت القادر على العطاء دائما؟ .. !

السهم الناريّة!

أنا شاب عمري ٣٦ سنة أعمل محاسبا كافحت حتى تخرجت في الجامعة ثم سافرت إلى إحدى الدول العربية للبحث عن حياتي ومستقبلي فعملت في البداية في شركة صغيرة خاصة بمرتب بسيط وسكنت مع بعض الزملاء ، حتى وجدت عملا أفضل وأكثر استقرارا فانتقلت إليه وحصلت على سكن مستقل وبدأت أؤثته بالأثاث المناسب والأجهزة المنزلية التي تيسر حياتي ، وبدأت استقر وأرسل إلى أسرتي بعض ما يعينها على مواجهة الحياة ومرت ٥ سنوات نجحت خلالها في تدعيم حياتي وتوفير بعض المدخرات وذات يوم خرجت مع بعض الزملاء في ليلة من ليالي الصيف إلى حديقة يتجمع فيها النرباء في الليالي الحارة ليستروحوا نسمات الليل الضئينة ، فلمحت أسرة مصرية من أب وأم وفتاتين في سن الشباب بالقرب منا ولأن الغرباء سريعو التعارف فلم نلبث أن تعارفنا واجتذبتني شخصية الأب ووجدته إنسانا فاضلا يقيم في هذا البلد منذ ١٠ سنوات فقدمت له بطاقتي واستأذنته في أن أزوره في مقر عمله ورحب بي .

وبعد أيام وجدت نفسي قريبا من مكان عمله فتوجهت لزيارته فاستقبلني بحفاوة وأمضييت معه وقتا ممتعا ، ثم كررت الزيارة عدة مرات دعوته بعدها مع أسرته للغداء في أحد المحلات العامة فقبل الدعوة وجاءت الأسرة وأمضيينا وقتنا سعيدا ، شغلت خلاله بمراقبة الابنة الكبرى التي استهوتني من أول لحظة رأيتها

فيها بالهديفة ، والتي سميت لتوثيق علاقتي بالأب من أجلها وكنت متأكدا من أنني قد لقيت القبول عندها من أول لحظة أيضا .. فبادلنا النظرات الطويلة وتفاهمنا بغير كلام خلال اللقاءات العائلية التي جمعت بيننا بعد ذلك على أن الطريق مفتوح وأن على أن أتقدم .. ففانحت أباهما في خطبتها ورحب بي واستمهلني حتى يستشيرها .. ثم عاد إلى بالبشرى بعد يومين ودعيت إلى البيت فأمضيت فيه مع الأسرة سهرة جميلة تعالت فيها ضحكاتنا .. وكانت هي أكثرنا سعادة وفرحا وتفاهمنا على أن نعلن الخطبة في مهجرنا بعد أيام ثم نعقد القران ونتم الزفاف خلال الإجازة في مصر. وفي حفل بسيط في بيت الأسرة تجمع الأصدقاء والزملاء يحتفلون بالحلب الذي ربط بين قلبين جمعت بينهما الغربة والحنين الدافق إلى السعادة الشخصية لكي تعادل جفاء الحياة في مجتمع لا يجب الغرباء ولا يرحب بهم ولا يستغنى عنهم في نفس الوقت .

وتركزت حياتي بعد ذلك في عملي وفي خطيبي فما أكاد أغادر العمل حتى أتوجه إلى خطيبي فأمضى معها ساعات اليوم أو اصطحبها إلى السوق لشراء مستلزمات البيت الجديد ، أو أعود إلى شقتي فأكون معها على التلفون طوال المساء كأنها معي في مسكني لا تفرق بيننا مسافات .

وبعد عدة شهور لم أستطع أن أحتمل البعد عنها .. ولا هي أيضا ففانحت أباهما في أن تتزوج على الفور وكلانا مستعد لأعباء الزواج وهي طالبة في كلية نظرية ولن يعوقها الزواج عن مواصلة الدراسة ووافق الأب ، فتم الزفاف ، وعندما انصرف المدعوون قلت لزوجتي : لقد عانيت في حياتي طويلا وعوضني الله عن معاناتي بك فلتكن حياتنا معا سعادة خالصة .. لأنه لم تعد لي قدرة على تحمل أية معاناة جديدة ، وسأبذل كل حياتي لإسعادك واسعاد نفسي فدمعت عيناهما وعاهدتني على أن تكون حياتنا معا نهرا متدفقا من السعادة وأقبلت على

حياتي الزوجية بكل هذه الرغبة العارمة في السعادة ووفت حبيتي بمجهودها فجعلت من حياتنا أغنية جميلة وأصبحنا مثارا للتندر بين أسرتهما والأصدقاء من شدة حب كل منا للآخر وخوفه وغيرته عليه وحملت زوجي وأنجبت طفلنا الأول فطرنا به من الفرحة ، وأصررت أنا على أن تؤدي معاً نحن الثلاثة العمرة لنشكر الله على ما أعطانا ثم بعد عامين أنجبنا طفلنا الجميلة فأشاعت البهجة في حياتنا وبعد عام واحد أنجبنا طفلنا الثالث وقررنا الاكتفاء لنوفر لأبنائنا الحياة الكريمة مع أفي لو تركت لنفسى لرغبت في دستة من الأطفال يوثقون العلاقة الحميمة بينى وبين حبيتى .

وتخرجت في كليتها ورغبت في العمل فلم أعترض رغم متاعب تربية ٣ أطفال صغار ، واستطاع أبوها بعلاقاته الوثيقة أن يجد لها عملا مناسباً واستقرت حياتنا بعد إرسال الأطفال إلى الحضانة .

ورغم أنها تقاضت مرتباً معقولاً فلم أسمح لها باتفاق أى جزء منه في البيت وطالبته بالاحتفاظ به لنفسها ، وكانت كريمة بطبعها فكانت تهديني في المناسبات العائلية هدايا قيمة أردتها بهدايا لا تقل عنها قيمة وبعد سنوات من الزواج عدنا في إجازة إلى مصر وقدمتها لأسرتي فسعدت بها وأحبها كل أفرادها وعدنا إلى مقر عملنا سعداء .

وبعد فترة أخرى ثقلت علينا مهمة رعاية الأطفال الثلاثة فاقترحت عليها الاستقالة من عملها بعد أن توافرت لها بعض المدخرات ولم تعد لها حاجة إلى العمل فوعدت بالتفكير في ذلك لكنها استمرت في العمل . وبعد قليل عدت لمناقشتها في الاستقالة ففوجئت بها تطلب منى الطلاق ! نعم الطلاق .. هكذا وبلا مقدمات ولا أسباب لماذا ؟ لأننى لا أحبك ولم أحبك يوماً واحداً ! . يا إلهى لم تحبني يوماً واحداً .. ففيم إذن كانت هذه السنوات الست .. ولماذا

قبلت الزواج منى .. ولماذا أنجبت ؟ ولماذا لم تتطلب الطلاق قبل الإنجاب أو بعد الطفل الأول ولماذا انتظرت حتى جئنا إلى الحياة بثلاثة أطفال أبرياء .. وفيم كانت ابتسامة السعادة التي تبدو دائما على وجهها ولماذا لم تتشاجر مرة واحدة وهي لا تحمل لى أية مشاعر .. لم أسمع منها جوابا مقنعا .. ولم أسمع سوى أنها وافقت على زواجى لأنى شاب مقبول ولأنها أحست بحبى لها ورغبتى فيها وأنها أملت فى أن تحببى لكنها اكتشفت بعد فوات الأوان أننى لست طرازها وأنها لن تحببى .

وتخيل حالى ياسيدى وأنا أسمع هذه الكلمات التى انغrust فى لحمى وقلبى كأنها سهام نارية .

لم تحببى يا إلهى وأنا أحببتها من أول نظرة ؟ حاولت وفشلت إذن لماذا لم تصارحنى ولماذا لم تتركبى لحالى لأجد من تحببى .. أو من لا يؤثر فيها كلام الافلام هذا ..

وأسرعت إلى أبيها فوجدته يعرف كل شىء ووجدت الأسرة كلها تعرف كل شىء وأن القصة مشاعة ومعروفة وأنى الوحيد الذى لا يعرف أن زوجته لا تحبه ولا تطيق رؤيته وأنهم حاولوا معها كثيرا بلا جدوى وأنها هددت بالهرب والنزول إلى مصر بأولادها ان لم يساعدها على التخلص منى ، منى أنا ياسيدى الذى كان يبدأ يومه بأن يتملى من وجهها وهي نائمة ثم يخرج إلى عمله مبكرا مزودا بهذه النظرة حتى يعود إلى بيته عند الظهر .

ماذا أفعل ياربنى .. لو كان الأمر يخصنى وحدى لما انتظرت ، لكن ما مصير هؤلاء الأطفال الثلاثة الذين لم يبلغ أكبرهم الخامسة .. فقدت القدرة على التصرف فعرضت عليها أن تعود إلى بيت أسرتها وتفكر فى الأمر بهدوء وتراجع نفسها فإذا أصرت بعد ذلك أجبت رغبتها ، فعادت إلى بيت أسرتها وعشت

وحدى في شقتي محروما من أبنائي الصغار ثلاثة شهور تطاردني صورهم وألعايمهم التي تركوها وراءهم وأسمع أصواتهم في الليل وأنا نائم فيخيل إلي أنهم عادوا وأنهم فرحا أفتش عنهم في الشقة فلا أجدهم وكلما اشتد بي العذاب ذهبت إليهم وزرتهم فتتعمد زوجتي عدم الوجود في البيت عند حضوري وأخيرا جاءني أبوها متألما وقال لي إنه عاجز عن إرغامها على العودة وأن من الأفضل لنا أن ننفصل بلا متاعب عسى أن تصفو النفوس بعد حين . ووجدت نفسي أقره على وجهة نظره مستسلما لإرادة الله وأملا في أن أستعيد أبنائي ذات يوم ، وتم الطلاق يا سيدي وعدت لحياة الوحدة والعذاب والمعاناة وربت حياتي على أن أرى أبنائي كل أسبوع مرة ورضيت بقدرى وبدأت جراحی تهدأ فإذا بي ذات صباح أقرأ في الصحيفة المحلية في باب الاجتماعيات تهنئة من موظفي الإدارة التي تعمل بها زوجتي السابقة للسيد فلان الفلاني والسيدة فلانة التي هي زوجتي وأم أبنائي بالزواج السعيد ا .

بعد ٥ شهور فقط من الطلاق ! وأين أولادى .. وكيف لا يبحث معي أحد مصيرهم ، وأسرعت إلى بيت أبيها كالمجنون فإذا بي أجد الجفاء والعبوس والصد .. وإذا بالكلمات تنزل على المطارق .. اذهب إلى المحكمة لا كلام بيننا .. وإذا بي اكتشف أن العروس الجديدة قد غادرت البلاد قبل نشر التهنة إلى مصر مع أولادى بعد أن قدمت استقالتها من العمل خوفا من أن أطالب بهم ، وأنها نجحت في الحصول على وثائق سفر لأولادى من القنصلية رغم مخالفة ذلك للقانون .

فأسرعت إلى مقابلة غريمي الذي ساعدها في ذلك بكل تأكيد وهو زميلها في العمل الذي بلغ سن الأربعين ولم يتزوج وعمل ١٥ عاما في هذه البلاد وجمع ثروة لا بأس بها فلم أجد عنده ما يفيدني سوى أن على أن ألقأ إلى المحكمة

وكان هو الآخر ينهى أوراقه بعد أن قدم استقالته ويستعد للعودة للحاق بعروسه أم الأطفال الثلاثة وللإستقرار في مصر وبدء مشروع تجارى فيها .
ولم أجد ما أفعله سوى اللجوء إلى المحكمة فحكمت لى برؤية الأطفال لكن أين هم لكى أنفذ حكم الرؤية وأراهم لقد استقروا في مصر في عنوان لا أعرفه وفشلت كل محاولاتي مع أسرة مطلقتي لكى أعرفه .. ثم لم تلبث الأسرة أن عادت إلى مصر .

وأدخلت زوجتي أطفالى الثلاثة مدارس لا أعرفها .. وأفهمتهم أن زوجها الحالى هو أبوهم .. وحاولت محاولة فاشلة لتغيير اسم الأب في شهادات الميلاد لتنسبهم إليه ولولا يقظة ضمير أحد الموظفين لنجحت في ذلك ووجدت نفسى كالفضائع .. معى النقود وليس معى أطفالى ، محترم أمام الناس ومهان ومجروح أمام نفسى فاستقلت من عملى وعدت إلى مصر لأبحث عنهم .. وبدأت من الصفر من معارف المعارف الذين يمكن أن أجد لديهم عنوان أسرة مطلقتي حتى توصلت إليه وكانوا قد انتقلوا إلى شقة جديدة في مدينة نصر وظنوا أنهم في مأمن بعيد ، فوجدنى الأب ذات صباح أطرق الباب عليه وأقول له أنت رجل محترم وأنا كذلك ولست أطلب سوى العدل والقانون فأعطينى عنوان أبنائى ودبر لى أمر رؤيتهم بغير اللجوء إلى الشرطة والمحاكم ولن تجد ابنتك منى ما تخشاه فلست بالطائش ولا بالراغب فى الانتقام فاستجاب لطلبى ثم أرسل زوجته لإحضار الأبناء الثلاثة وليته ما أحضرهم فقد جفلوا منى وبكوا لانزعاجهم من أحضان ماما وبابا ! .

ووجدت نفسى أشد تألما من حالى وأنا أبحث عنهم ، خاصة حين رأيت الصغير الذى حرمتنى منه أمه وعمره أقل من عامين وهو يفزع منى كلما حاولت تقييله ، وبكيت وأنا أجد نفسى غريبا على أطفالى وخرجت منهارا لا أعرف ماذا

أفعل .. ولا لماذا أعيش وقد خسرت كل شيء بلا ذنب .. سوى أن السيدة زوجتي لم تحبني ! فحكمت على بالموت في نظر أبنائي ..

لقد قرأت لك تعليقا مرة في باب الردود الخاصة فهمت منه أنك تنصح رجلا بعدم الإقدام على طلاق زوجته التي يجمعه بها أبناء لجرد أنه لا يحبها تطالبه فيه بالتزوي ومراعاة صالح أبنائه وتستشهد بواقعة الشخص الذي قال لعمر بن الخطاب أنه يريد طلاق زوجته لأنه لا يحبها فقال له لأنما ومعاتباً : وهل كل البيوت بنيت على الحب فأين الرعاية وأين الوفاء وأين حسن المعاشرة ! . فلماذا لا تقول يا سيدي نفس الشيء لمن يهدم أسرهن ويشردن أبناءهن استجابة لنبضات القلب وكلام الأفلام .. لماذا لا تقول لمن وأين الرعاية وأين الوفاء وأين حسن المعاشرة وأين مصلحة الأبناء ! .

ثم ماذا أفعل الآن وقد عدت إلى بلادي وزهدت العمل في الخارج وقررت أن أفتح مكتباً للمحاسبة واستأجرت شقة للإقامة وأيامي تمر على طويلاً إلى أن يأتي يوم الرؤية فأذهب إلى بيت صهرى السابق أملأ في تعويض عذابى فأزداد عذاباً حين أرى أبنائي مازالوا يحفلون منى ولا يستجيبون لعواطفى . وماذا أفعل يا سيدي ؟ وزوجتى السابقة تقتل فيهم حب من أنجيم من صلبه وتغرس فيهم حب من اختاره قلبها .

بماذا تشير على ؟ .

□ ولكتاب هذه الرسالة أقول : لا خيار أمامك يا صديقى سوى أن تمسح ظلال هذه التجربة الكئيبة عن كاهلك ، وأن تستمر فيما بدأت من خطط لمستقبلك فتفتح مكتبك وتستقبل عملاءك وتشغل ساعات يومك بالعمل وبالعلاقات الإنسانية والنشاطات الاجتماعية المختلفة فهذا هو السبيل لنسيان التجارب الأليمة في حياتنا .. وهذا هو الطريق للخروج من كل عننة تختبرنا بها

الحياة وتمتحن بها صلابتنا وقدرتنا على تحمل شدايدها وفي كل ذلك عليك دائما أن تثق في الله الذى لا تضيع عنده الودائع وفي عدالة السماء التى لا يفلت منها مجرم بجرميته ، وأن تستعيد ثقتك فى نفسك وفى جدارتك بأن تكون أملا لمن هى أفضل منها بإذن الله ، فليس يعيبك أن من اختارها قلبك لم تكن أهلا لحبك ووفائك ، فلكل إنسان فشله ونجاحه ولكل إنسان غالبا عذابه الخاص الذى لا يعلمه إلا الله المطلع على خبايا القلوب وليس معنى ذلك بالتأكيد أن يهدر الإنسان عمره فى البكاء على الأطلال أو فى محاولة استعادة من لم يبادلوه ودأ بود ، وإنما معناه ألا يكف الإنسان عن التطلع دائما إلى الأمام بقلب راغب فى الحياة وأن يحفر دائما الآبار فى صحراء الحياة فى انتظار أن يتفجر ذات يوم ينبوعه الخاص من السعادة ولا شك أن زوجتك قد أجمت حين لم تتوقف لحظة لتفكر فى صالح أطفالها الثلاثة وتراجع نفسها قبل أن تهدم المعبد من أساسه بلا أسباب جادة استجابة لأهواء عارضة . والحق أنى لا أصدق أنها لم تحبك يوما واحدا خلال قصتك معها وإلا كان عذرها أقبح من ذنبها .. إذ ماذا أرغمها على الزواج منك وهى لا تميل إليك ولا تتقبلك نفسيا وعاطفيا زوجها ، وماذا أرغمها على الاستمرار حتى أنجبت من البنين ثلاثة وكيف عاشت معك كل هذه السنوات وهى لا تضمر لك سوى الكراهية وقد مضت حياتكما هادئة وبلا منازعات ، والعيون وجوه القلوب ، و« البغض تبديه لك العينان » كما يقول الشاعر ، فكيف أخفت كل هذه المشاعر وبدت أمامك دائما الإنسانية السعيدة المبتسمة إلا إذا كانت فى الحقيقة إنسانة متقلبة المشاعر ضعيفة المناعة لا تستقر مشاعرها على حال لهذا فقد استجابت لنزوة طارئة فلم تتوقف عند أية اعتبارات .. وأسرعتم بهدم العش ، وحاولت برعونتها وقسوتها ومخافاتنا لروح العدل أن تطمس شخصية الأب من حياة أطفالها .

إن مثل هذه الزوجة التي لا يردّها قيد سوف تتقاذفها دائماً أمواج أهوائها ومشاعرها وتقضى عليها بالتخبط بين أكثر من مرفأ لأنها سفينة بلا شراع يعصمها من الخطأ ويهدئها إلى الصواب فلا تحزن عليها فهي ليست جديرة بك .. ولا تقلق بشأن أبنائك ولا تجزع لجفوفهم منك الآن فهم أطفال صغار لا يسألون عما يفعلون وقريبا سوف تنضجهم الأيام على نارها الهادئة فينجذبون تلقائيا إليك كما يعود مؤشر البوصلة إلى مستقره الطبيعي بعد حين لأنك أبوهم وفي الأب قبس من روح الله لأنه سر الحياة بالنسبة لأبنائه ولديهم دائما ميل غريزي للتواصل معه والحاجة إليه والبحث عنه وما أيسر استمالة قلوب الأطفال بالحنان والرعاية والهدايا والحب الأبوي الذي يسرى إليهم كتيار الكهرباء بغير أن يشعروا فلا تقلق مرة أخرى فسيعودون إليك قريبا وستشفى جراحك سريعا ، وسوف تجمع الأيام بينك وبين من تبادلك حبا بحب ووفاء بوفاء ورعاية برعاية وسوف تكشف عندها معنى السعادة الحقيقية التي حرمت منها ظلما وعدوانا في هذه التجربة الكئيبة .

زهرة العمر

أكتب إليك .. لأنى فى حاجة لمن ىشير على بالرأى السلم رغم كثرة من حولى من الأهل والأصدقاء ، ولن أقص عليك قصة حىاتى كلها لكنى سأبدأ من اللحظة التى عدت فىها من الخارج حىث كنت أستكمل دراستى ومعى الشهادة التى اغتريت من أجلها .. ومعى أىضاً زوجة أجنبية جمىلة تعرفت بها هناك وجمع الحب بن قلبىنا وتزوجنا .

كان زواجى من أجنبية مفاجأة لأهلى لأننى لم أبلغهم به فلم ىتقبلوا الأمر بسهولة فى البداية ثم بدأوا ىتقبلون الوضع تدريجياً وىتعاملون معها بشكل طبعى كواحدة من أفراد الأسرة وساعدت شخصىتها المرحة على ذلك .. فهى ودود وتثق فى الناس وتحب اسرقى ... وبعد أسابىع من عودتى استأجرنا شقة فى أحد أحياء القاهرة البعيدة عن الزحام وظهرت مواهب زوجتى فى تنسيقها وتجميلها بأبسط الأشياء حتى تحولت إلى واحة ىشعر من ىدخلها بالراحة والهدوء ، ومضت حىاتنا جمىلة ىظللها التفاهم ولمسات الحب الرومانسىة الرقىة حتى حملت زوجتى وأنجبت طفلتىن توءما فى غاية الجمال أخذتا عن أمها الشعر الأصفر والعىون الملونة وبمجيئها اكتملت سعادتى وأصبحت رعاىتهما هدف حىاتنا وحكاياتها مصدر تسلىتنا ومتعتنا .. خاصة بعد أن درجتا على الأرض وتكلمتا .. وكانت زوجتى تحرص على أن تختار لها ملابس

مماثلة تبدوان فيها آيتين في الجلال .. ومضت حياتي هادئة سعيدة وكنت أعطى زوجتي معظم دخلى لتنفق على الأسرة وكانت هى حسنة التدبير تجيد التصرف ولا تنفق قرشاً في غير موضعه ، لكننى مع اقتراب الطفلتين من سن الالتحاق بمدرسة الحضانه .. بدأت زوجتى تناقشنى فى أمر لم يكن ضمن اتفاقنا وهو أن نعود معاً إلى بلدها بحجة أن تربية الطفلتين هناك ستكون أفضل ولم أرحب بالفكرة لأننى كنت حريصاً على أن تنشأ الطفلتان فى مصر ، وتلقيا تربية شرقية سليمة وسط أهلها حتى لا تضع شخصيتها فى مجتمع أجنبى غريب ولم أكن فى ذلك متجنبا على زوجتى لأننا اتفقنا على ذلك عند الزواج ولأن هناك حلاً ملائماً هو أن نعيش معاً فى بلدى وتسافر زوجتى ومعها طفلتاى كل سنة فى اجازة لكيلا تنقطع صلتها بأهلها . وعرضت عليها ذلك فاقترنت بعد تردد ثم توقفت عن الحديث فى الموضوع تماماً واسترحت إلى أنها قد نسيته تماماً وعدت للاستمتاع بالجو الأسرى الجميل الذى نعيشه واعتزمت أن أرتب لها أول اجازة فى الصيف القادم بعد شهرين وذات يوم عدت من عملى فلم أجد زوجتى فى البيت .. ودخلت غرفة الأطفال فوجدت إحدى طفلى تجلس على الأرض وسط لعبها تلهو بها ويبدو من منظرها أنها تلعب وحدها منذ فترة فتوجهت إلى المطبخ لأحضرها شيئاً تأكله فلمحت على سرير الطفلة الأخرى ورقة صغيرة مكتوباً عليها هذه العبارة بخط زوجتى «أسفة لم اقتنع بكلامك لذلك فقد قررت الرحيل إلى الأبد ومعى إحدى طفلى وتركت لك الأخرى لكى تربيا التربية الشرقية التى تريدها ثم التوقيع ا» وحين جنونى .. هل معقول أن تحرم أم ابنة من أبيها وشقيقتها لأى سبب وهل الأطفال تركة يمكن تقسيمها وأسرت أجرى كالهجنون إلى المطار لعل ألحق بها واقنعها بالعودة أو بترك ابنتى إن كانت لا تريد الحياة معى .. فلم ألحق بها .. ورحت أفتش بين

قوائم الركاب المغادرين .. فوجدتها قد سافرت منذ ساعات إلى بلدها ومعها طفلة في الثالثة من العمر هي ابنتي ا وعدت حزينا منهارا إلى البيت فوجدت طفلي تبكي من الجوع فاحتضنتها وأعددت لها طعامها وأنا لا أستطيع أن أقاوم دموعي .. ورحت أرقبها وهي تتناول طعامها وأسأل نفسي بمرارة كيف هان على أمها أن ترحل بعيدا عنها وأن تحرمها من توءمها وهما لا تنفصلان عن بعضها لحظة واحدة .. وماذا جنيت لكي أتعرض لهذه المحنة .. وأنا لم أخالف عهدا ولا ميثاقا ولم أطلب من الدنيا سوى حق المشروع في الحياة السعيدة وبت ليلة لم تغمض لي فيها عين وقررت أن أسافر على الفور إلى البلد الذي تعلمت فيه .. لأسترد زوجتي وأذكرها بما جمع بيننا من حب وعشرة جميلة أو لأسترد ابنتي إذا رفضت زوجتي العودة لكي تنشأ مع شقيقتها وركبت الطائرة إلى بلدها وأسرت إلى بيت أسرتها ففوجئت بهم لا يعرفون شيئا عن ابنتهم ولا يحركون ساكنا للبحث عنها كأن الأمر لا يعينهم في شيء وعدت محطما يائسا وعشت أيامي مكتئبا حزينا وكلمة رأيت ابنتي تذكرت اختها التي لا أعرف أين هي .. ونسيت رجولتي وانسابت دموعي وتشاور الأهل في مأساتي ثم طالبوني بالزواج من أخرى لكي ترعى ابنتي وأكدوا لي أنهم سيختارون لي زوجة مصرية تعرف طباعنا وترى ابنتي التريبة السليمة .. لكني رفضت الفكرة ورفضت مبدأ الزواج مرة أخرى نهائيا .. وقررت أن أتفرغ لابنتي وعملي وأن أحاول أن أعوض بها ما خسرت في هذه التجربة الأليمة .. وأحضرت لابنتي مربية طيبة كبيرة السن لكي تتكفل برعايتها .. وأصبحت أنا عمليا الأم والأب لابنتي بعد أن لم يعد لها في الدنيا غيري . ومرت السنوات .. وأنا لا أنسى ابنتي الغائبة وكيف أنساها وشقيقتها صورة أخرى منها تتحرك أمامي وكنت أستخبر السنين فأخمن أنها لا بد الآن في

السنة الأولى من مدرستها الإعدادية لأن ابنتي قد بلغت هذه المرحلة في مصر.. أو في السنة الأولى الثانوية حين تصل ابنتي المقيمة معي إليها .. ولا يخفى عليك أنني كثيراً ما واجهت لحظات حرجة مع ابنتي التي تحتاج إلى أم تستشيرها في بعض الأمور التي لا يفيد فيها الأب .. فكنت أضيق بما صنعته لي زوجتي .. ثم أعود إلى طبيعتي وأواصل حياتي وأتعجب لماذا لا تفكر في إرسال بطاقة بريد كما يفعل الغرباء حين يتعارفون لكي أعرف منها أخبار ابنتي .. ولماذا لا تتصل تليفونياً لتطمئن على ابنتها وقد حرصت على عدم تغيير رقم التليفون طوال هذه السنوات لعلها تتصل يوماً بابنتها .. أو تسمع صوتها فترق لها وترسل لها صورة لأختها؟ .. لكن السنوات مرت .. والبريد لا يحمل أية رسالة .. والتليفون لا ينقل خبراً منها وتفرغت لابنتي فأصبحنا أصدقاء وتفرغت لعملي فحققت فيه تقدماً كبيراً ثم رن أخيراً جرس التليفون منذ أسابيع قليلة وفوجئت بزوجتي تقول لي بصوت مخنق إذا كنت تريد أن ترى ابنتك فانتظرها بالمطار بعد غد لقد أرسلتها إليك وحددت لي الموعد ورقم الرحلة وطلبت مني أن أرفع لافتة من الكرتون تحمل اسمي لكي تتعرف على ابنتي وقبل أن أعرف منها أية تفاصيل كانت المكالمة قد انتهت وانقطع الاتصال وأنا لا أصدق نفسي من الفرحه ومضت الساعات بطيئة في انتظار الموعد وفكرت في أن أصطحب ابنتي معي إلى المطار لكي تستقبل شقيقته العائدة بعد ١٦ عاماً لكن شيئاً ما داخلي وسوس لي أن أذهب وحدي وأن أترك ابنتي في البيت لكي تكون المفاجأة بالنسبة لها أخف وأرحم وذهبت إلى المطار ووقفت بين المستقبلين ممسكاً بورقة عليها اسمي بالإنجليزية ورحت أفحص الوجوه وانتظر اللحظة الحاسمة التي ستقدم مني فيها فتاة جميلة باسمه مترددة لتسألني في خجل هل أنت أبي؟ فأفتح ذراعي لها وتكون هي إجابتي

على سؤالها ومر أمامي عشرات من الركاب والسياح .. ولم يتقدم مني أحد سوى راكب مصرى اقترب مني وسألني بلكنة أجنبية هل أنت السيد فلان ثم طلب مني الدخول معه إلى الدائرة الجمركية لانتهاء بعض الاجراءات فدخلت معه ووجدت في يده أوراقاً اطلع عليها ضابط الأمن فسمح لي بالدخول وهو ينظر إلى صامتاً وبغير أن يطلب بطاقتي فهل تعرف ماذا كانت هذه الأوراق لقد كانت أوراق تسلّم الصندوق التي جاءت داخله ابنتي التي عشت السنوات الطويلة انتظر رؤيتها .. وانتهت الاجراءات ولا أعرف كيف انتهت ولم أعد إلى الشقة التي تنتظري فيها ابنتي وإنما إلى بيت أهلي لترتب المراسم الحزينة وحين عدت في آخر الليل إلى مسكني وجدت ابنتي ساهرة تنتظر فقلت لها إن شقيقتها لم تعد على الطائرة الموعودة وفي اليوم التالي انتهى كل شيء وبعد أيام جاءني الراكب المصرى الذى طلب عنواني ونحن في المطار ليحدثني في أمر هام وعرفت منه أنه يعيش مع زوجته في نفس المدينة التي تقيم فيها زوجتي وأنها صديقان حميان لها ولابنتي الراحلة وأن ابنتي كانت بلغت السنة الأولى من دراسة الطب وأنها مرضت منذ سنوات بمرض لعين وأن زوجتي قد حافظت لابنتي على دينها وعاشت لها ترعاها وتهتم بها وبعد أن أصيبت بهذا المرض اللعين بدأت تفكر في العودة إلى .. وتحديثها بأنها ظلمتني وأنها عزم على العودة لكنها انتظرت علاج ابنتها وحين حم القضاء أحست بالحزن والضيق وقررت أن يكون مثواها الأخير في بلدها .. فأرسلتها لي وكلفت هذا الصديق الذى يزور مصر بعد فترة غياب بأن يرافقها ليتعرف علىّ ويبلغني بالنبا الحزين .. وأنها بعد كل ما جرى تطلب مني أن أسمح لها وأن أسمح لها بالعودة لكي ترى ابنتها الأخرى التي أصبحت الآن طالبة جامعية وتسالني هل أصفح وأنسى ؟ فوجدت مأساتي تصحو داخلي من جديد .. ووجدت نفسي حائراً

هل أقبل عودتها وأنسى كل ما فعلته بي وأنا أشعر بأنها سبب موت ابنتي التي حرمتني منها ١٦ عامًا أم أرفض وأواصل حياتي كما عشت بعد أن انقضت زهرة العمر في المعاناة والآلام ؟ لقد وعدته بالتفكير والرد ولم أتوصل إلى قرار بعد فهاذا تنصحنى ؟

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا أنصحك يا سيدى بقبول عودتها إليك ولا برفضها نهائيًا وإنما أنصحك أولاً بأن تسمح لها بزيارتك ورؤية ابنتها الوحيدة ، فتصبح فترة وجودها عن قرب أفضل اختبار لمدى استعدادك للصفح والنسيان وأفضل اختبار لمشاعرك القديمة تجاهها ، فأنت لا تستطيع أن تحكم على غائب ولا تستطيع أن تستشف صدق ندمها أو صدق رغبتها في التكفير عن جرائمها بمجرد رسالة أرسلتها إليك بعد غياب ١٦ عامًا تطلب فيها الصفح ، لهذا فأنت في حاجة إلى هذه الفترة الضرورية لتعرف ما إذا كنت على استعداد لأن تنسى جرائمها الإنسانية في حقك وحق ابنتها أم لا . فسجل جرائمها في حقلك جميعًا لا تغسله سوى مياه البحر ، والغدر بك رغم بشاعته ليس أكبر جرائمها وقد كانت تستطيع أن تطلب الانفصال والعودة لبلادها على أن تستمر الصلوات الإنسانية بينكما فتزور ابنتها وتزورانها ، لكن أكبر جرائمها في رأيي هو ما ارتكبه في حق ابنتها على السواء إذ حرمت ابنتها التي إستلبتها معها من حقها المشروع في أن تعرف أباها وشقيقتها وأن تتمتع بمشاعرهما الحميمة تجاهها ولم تسمح لك برؤيتها إلا وهى في رحلتها الأخيرة إلى موطن أبيها .. أما ابنتها التي خلفتها وراءها فقد حرمتها هى الأخرى من حقها الإنسانى في أن تعرف أمها ، وشقيقتها الوحيدة وأن تتمتع بمحبتهم ودفع مشاعرهما ، فاقتمست ابنتها بينكما كأنهما متاع يمكن اقتسامه ، ولم ترق مشاعرها لابنتها التي تركتها وراءها كل هذه السنوات ولم تحن إلى سماع

صوتها في التليفون مرة .. ولم تبعث إليها بطاقة بريد واحدة وحين بدا أنها قد تنبت أخيراً لواجبها تجاه ابنتها المغتربة معها كان الوقت قد فات ، وكان اللقاء الحزين بينكما في المطار فأى أمومة وأية إنسانية هذه ؟ إننى لن ألوم ابنتك إذا تلمست مشاعر البنوة في قلبها تجاه هذه الأم فلم تجدها ، لأن الأمومة والأبوة لا تخلقها شهادة الميلاد وإنما تغرسها الرعاية والحنان والمسئولية والعطاء فأين نصيب ابنتك من كل ذلك .. ، ولماذا لم تتفجر مشاعرها تجاهها إلا بعد أن هوت فوق رأسها مطارق الحياة تذكرها بمن ظلمتهم وبعادتهم بلا سبب ، إننى لا أريد أن أغلق في وجهها أبواب الرحمة فن يدري لعل المحنة القاسية التي عاشتها قد فجرت ينابيع الخير داخلها فندمت وصدق ندمها ، وأبواب السماء مفتوحة دائماً لقبول توبة التائب بشرط أن تكون صادقة ..

لهذا فأنت وحدك الذى تستطيع أن تحكم على صدق ندمها وصدق رغبتها في التكفير عن جرائمها .. وأنت وحدك من يستطيع أن يعفو أو يتمسك بحقه في القصاص العادل ويرفض العفو وليس من حق من أدمى بوحشية قلوبنا بلا مبرر أن يتساءل وأين الصفح والنسيان ، وإلا كان من حقنا أن نسأله نحن أيضاً وأين كانت الرحمة .. وأين كان العدل !

فإذا كنت إنساناً كبير القلب وقادراً على العفو ، فلتفضل النفس الجميل لأنه خير وأبقى .. وليس هناك أجمل من العفو عند المقدرة ، وإذا كنت غير قادر عليه فلا جناح عليك ولا لوم فليس نسيان وقع الخناجر المسمومة في مقدور كل إنسان .

وفى كلا الحالين لا تقطع شعرة الاتصال والرحمة بينها وبين ابنتها فهذا حق ابنتك عليك قبل أن يكون حق زوجتك . ومن عافى يا صديق مرارة

الحرماني من فلذة كبده أجدر بالآ يرضاه لغيره حتى ولو كان ظالمًا أهدر زهرة
العمر في المعاناة والآلام . مع الاحتراس كل الاحتراس من أن تحاول تكرار
لعبتها القديمة مع ابتكك الوحيدة .

السائرون نياماً!

أنا سيدة في السادسة والعشرين تخرجت في إحدى الكليات النظرية - وكنت دائماً مجتهدة في دراستي وأتمتع بذكاء حاد كما يقولون لكنني كنت مترددة وضعيفة الشخصية - أصمم على رأى معين ثم بعد نصف ساعة أغيره وأصمم على عكسه وأتمسك به ، وحين كنت طالبة بالكلية خطبت لشاب ثم فسخت خطبتي لأسباب عائلية وتخرجت من الكلية ومضى عامان لم يتقدم لى فيها أحد يرضيني وبدأت نظرات من حولى تلسعنى لأنى وصلت إلى سن الخامسة والعشرين تقريبا ولم أتزوج ففكرت أن أقبل أول عريس يتقدم لى مها كانت مواصفاته ومها كانت ظروفه وكان دافعى لذلك هو أنى رأيت عددا من الفتيات فى أسرتى قد رفضن من يتقدم لهن طلبا للأفضل فأصبحن فى حكم العانسات .. وأنت لاتعرف ياسيدى ماذا تعنى كلمة عانس فى مجتمعنا وأوساطنا .. وهكذا كنت لا أريد أن أتأخر فى الزواج فقبلت أول طارق على الباب إرضاء للناس من حولى وإرضاء لفرورى أيضا لكيلا يفوتنى القطار رغم التفاوت البسيط فى المستوى الاجتماعى والعائلى بينى وبينه ورغم أن تفكيره وطموحاته يختلفان عن طموحى وتفكيرى وكان شابا يكبرنى بخمس سنوات وكنت أظن أن فترة الخطوبة سوف تقربنى منه فلم يحدث هذا التقارب من جانبي بل حدث العكس فكل يوم اكتشف صفة أكرهها فهو يجيل إلى حد

ما ويكذب في أنفه الأشياء- وفكرت في فسح الخطبة أكثر من مرة لكن إرادتي كانت تخونني لسببين الأول أني كبرت في السن وقد خطبت مرة سابقة إذن فاحتمال أن يتقدم لي خاطب جديد ضعيف والثاني : هو أني أشفقت عليه مما سوف أسببه له من آلام لو فسخت الخطبة وهو لا ذنب له فيما حدث وكل يوم يزداد تعلقه بي وحبه لي وتزداد محاولاته لارضائي واستمرت الخطبة حوالي عام ونصف العام ولم تتغير مشاعري بالنسبة له بل لعلها تعمقت ، وتحدد يوم الزفاف ، وأنا مازلت غير مقتنعة به لكن ضعف شخصيتي وخوفي من مواجهة الناس يمنعاني من اتخاذ أي إجراء ، وهكذا وجدتي أستمر في المشوار فاشترى فستان الزفاف وأجهز بيتي بألية غريبة كما لو كنت مخدرة ، ولم أبق إلا بعد أن وجدتي متزوجة منه ومر على زواجنا شهران وأنا مازلت عند الخطوة الأولى من موقفي منه .. أقول لنفسى أحيانا إنني قد أحبه وقد نتقارب مع مرور الأيام خاصة وأنه يبذل كل جهده لارضائي وإسعادي .

وأقول لنفسى أحيانا إن هذا لن يحدث لسبب بسيط -/وأرجو ألا تسيء الحكم علي- هو أنني أتمنى له الموت ! نعم الموت ولا تدهش ولا تسيء الظن بأخلاق وديني فأنا أخاف الله وأصلي الفروض ولست شريرة فأنا لا أطيق أن أرى كائنا صغيرا يقتل أو يتعذب ولو كان حشرة ، لكن الشيطان هو الذي يوسوس لي بذلك في أحيان كثيرة ويصور لي أنه الحل السعيد لكي أتخلص من هذا القيد دون أن يلومني أحد .. لهذا أتمنى له الموت أحيانا في أقرب وقت .. فإذا تأخر عن العودة للبيت تمنيت في داخلي أن يكون قد أصيب في حادثة بالطريق أو صدمته عربة مسرعة وانتقل إلى رحمة الله ، وإذا مرض مرضا خفيفا تمنيت أن يشتد المرض ويطول ويقضى عليه ، لكن هذه الأفكار لا تخرج من دائرة الأحماق ولا أظهر منها شيئا وهو يعتقد أنني ملاك طاهر

وفيض من الحنان كما يقول لى وهذا يجعلنى أتعذب أكثر وأتمنى الموت لنفسى أنا أيضاً حتى لا تطول حياتى مع هذا الرجل الغريب عنى الذى ظلمت نفسى بقبولى الزواج منه ، ثم بعد ذلك استغفر الله وأتمنى أن يهدىنى وأن يجعلنى أحب زوجى خاصة أنى لا أكرهه بشدة .. ولا أنفر منه لكن الاختلاف فى المستوى الاجتماعى والهوايات والطموحات هو ما يجعلنى أكرهه حتى أنى اخجل أن أعرفه هو أو أحد أقاربه بأقاربى ومعارفى .. وأنا أكتب لك الآن لأسألك هل يمكن أن أحبه فى يوم من الأيام - وأيضاً لأرجوك أن تنصح كل فتاة بالألا تستعجل الزواج من أى شخص بحجة كبر سنها لأن قرار الزواج هو أخطر قرار فى حياتها وعليها أن تفكر فيه جيداً .. فحتى لو ظلت عانساً فى أسوأ الظروف فهذا أرحم ألف مرة من أن تعيش مع إنسان لا تربطها به ميول عاطفية .. فتظل تمنى له ولها الموت طيلة حياتها .

□ □ ولكاتبة هذه الرسالة أقول : إن رسالتك يا سيدتى تعكس بشكل محزن الكثير من أخطاء التفكير الشائعة بيننا الآن . فنحن كثيراً ما نرى مقدمات الفشل وأسبابه واضحة للعيان قبل الاقدام على مشروع هام كمشروع الزواج فى حياتنا .. ومع ذلك نمضى إليه مخدرين لانتوقف لحظة لكى نراجع أنفسنا أو نتخذ الخطوة الصحيحة ونتحمل نتائجها كأننا نسير نياما إلى أقدار محكوم علينا بمواجهتها كما فى الأساطير الاغريقية القديمة ، بل نفعل ذلك ونحن لانرى أية بادرة تقدم فى الأحوال ، ثم يمضى العمر بعد ذلك نشكو مما صنعناه بأيدينا لأنفسنا .

ونحن أيضاً ياسيدتى نتخذ أحيانا أخطر القرارات لأسباب لا علاقة لها بموضوع هذه القرارات نفسها وإنما لأسباب تتعلق بظروف تخصنا نحن ولا تصلح أن تكون معايير سليمة للحكم على الأشياء ، كقبولك لهذا الشاب

لأنك خطبت قبله وفشلت ولأن نظرات الآخرين تسمعك مع أنك صغيرة السن ، أو لأن بعض الفتيات من حولك قد فاتهن قطار الزواج ، وهذه كلها اعتبارات لها أهميتها ، لكنها لا شأن لها بالمعايير السليمة لاختيار شخص معين لشركة الحياة الطويلة ، كميزات هذا الشخص نفسه وخلقه والقبول العاطفي والنفسي له والتكافؤ الاجتماعي والثقافي معه إلخ .. ومابنى على خطأ لا بد أن يكون خطأ .

ونحن كذلك مدفوعين برغبة داخلية في تفخيم الذات . نستشعر دائما الفروق الاجتماعية الطفيفة بيننا وبين الآخرين ، مع أن هذه الفروق لا ترمى بالعين المجردة ، ولو رجعنا إلى الوراء خطوة واحدة لأمكننا أن نرى الصورة أوضح وأشمل .. وعرفنا أننا ومن نستشعر التميز عنهم في درجة واحدة من السلم الاجتماعي .. وأن هذه الدرجة نفسها من الدرجات الدنيا فيه ، فلا نحن من سلالات الدم الأزرق .. ولا نحن من عيون المجتمع أو نجومه ، فلماذا هذا الإحساس الطبقي الزائف لدى الكثيرين منا ؟ ورغم ذلك فحتى هذه الفوارق الوهمية لا تمنع زوجة من أن تحب زوجها الذى يحبها ويبالغ في إرضائها ولاحالت يوما ما بين قلبين جمعها الحب والإخلاص ، لكنها « عين السخط التى تبدى المساويا » ياسيدتى لا « عين الحب التى هى عن كل عيب كليلية » ! ويوم يتفجر الحب فى قلبك تجاه زوجك سوف تكتشفين فيه من السجايا ما يجعلك تفرخين .. وترهين به .

تسألينى بعد ذلك هل يمكن أن تحبينه يوما ما .. وأجيبك نعم من الممكن جدا أن يحدث ذلك لو حدث التغير داخلك أنت أولا وتحلصت من أوهاماك وحاولت أن ترى فيه ما يحبه إليك وليس ما ينفرك منه ، والحب قد يولد فى لحظة سحرية تحب ما قبلها وتكون فاصلا بين المعاناة وبين السعادة .. فلا

تفقدى الأمل .. وتذكرى أنك مازلت في بداية التجربة .. وأن الشهور الأولى للزواج غير القائم على الارتباط العاطفي لا تصلح أبدا للحكم على مستقبله .. لأنها فترة محاولة التكيف والتوافق ولو استجابت الأقدار لتمنيات الكثيرين من الأزواج والزوجات في الشهور الأولى من هذا النوع من الزواج لتضاعفت أرقام حوادث التصادم ولانتشرت الأوبئة تحصد الأزواج حصدا لكن لطف الله أكبر ! فأعيدى التفكير في موقفك ياسيدتى - ولاتكونى أناية ترين كل الأشياء بمقاييسك أنت ، ناسية أن لك شريكا لا ذنب له في سوء تقديرك للأمور ولا في هواجسك عن المستقبل التي دفعتك لزوج لا رغبة لك فيه خوفا من أن تصبى عانسا . وإذا كان لى أن أنصحك بشيء فهو بأن توجلى مشروع الإيجاب قليلا حتى تتبدل مشاعرك وتتخلصى تماما من تمنياتك هذه ، إذ لا داعى لأن نسير نياما مرة أخرى إلى مايوثق علاقتنا بالآخرين ونحن نتمنى لهم الهلاك والفناء !.

لغز السعادة

أنا سيدة في الخامسة والعشرين من عمري منذ عدة سنوات خفق قلبي لأول مرة لجار يسكن في الدور الأسفل من نفس العمارة التي أسكن فيها وكان يقيم مع أمه ووالده وكان عزبا لم يتزوج وتبادلنا الحب ، وأحبيته بقلبي وعقلي معا وشجعتة على التقدم لخطبتي لأنه تردد قليلا في ذلك .. وسوف تعرف السبب عندما أقول لك إنه كان يكبرني بثلاثين عاما بالضبط .. لذلك فقد أشفق على وعلى نفسه من أن يصطدم برفض أسرتي أو أن يجرح أحد مشاعره ، لكنني تمسكت به وعرضت الأمر على أسرتي فقاوم أبي مقاومة شديدة ارتباطي به بحجة أنه زواج غير متكافئ لكنني صممت ونجحت في إقناع أبي بالألا يقف في طريق سعادتي فوافق بعد جهد كبير .. وزفقت إلى زوجي الحبيب وأنجبت منه طفلة جميلة عمرها عامان وعشت معه أحلى أيام عمري .. منذ الليلة الأولى لزواجنا . ورغم أنه لم يطلب مني التفرغ للبيت فلقد فضلت أن أتفرغ لبيتي وألا أعمل ..

ومرت ٣ سنوات الآن على زواجنا وقد تتصور أني أكتب إليك الآن بعد أن انتهت أيام العسل لأقول لك إنني ندمت على زواجي منه .. أو أن فارق السن قد كشف عن مشاكل لم أكن أعرفها ولكنني لم أكتب لك من أجل ذلك .. لأنه لم يحدث أي شيء من ذلك .. ولأنك لا تتصور كيف يعاملني

زوجي العظيم هذا .. فأنا لم أعان لحظة واحدة من فارق السن وهو يفعل كل شيء وأى شيء لإسعادي وهو يعطف على « ويحن » على أنا وابنتي الصغيرة . ولم تتغير معاملته لى ولم أضق بحياتي معه بعد فترة عندما « أفيق » كما حذرني أبي وأمي بل ولم تقع بيننا أية خلافات ذات شأن منذ زواجنا وحتى الآن .. وإذا وقع بيننا خلاف كما يحدث بين كل الأزواج متقاربي السن . فإنه لا يستمر سوى دقائق لأن كلا منا لا يطيق أن يرى الآخر حزينا أو متضايقا ، فيسعى كل واحد منا لإنهاء الخلاف وسرعان ما يقول للآخر بنظراته أنا آسف أو أنا آسفة ثم يجرى إلى الآخر يعانقه ونضحك معا على السبب الذي أثار هذا الزعل البسيط ..

وأنا في كل لحظة أشكر الله أن منحني زوجا فاضلا عظيما كهذا الرجل وأرجو أن تدوم سعادتي إلى الأبد إن شاء الله .

إذن ماهي المشكلة ياسيدي .. المشكلة أن زوجي وهو موظف بإحدى الشركات الحكومية يضيق بالحياة في بلدنا .. ويتأفف كثيرا من الشوارع غير النظيفة ومن سوء معاملة الباعة وجشعهم .. ومن انقطاع حرارة التليفون .. إلخ ويقول دائما إن هذه الصعوبات ليست موجودة في الخارج ويتمنى أن يعيش خارج مصر وقد بدأ يجرى اتصالاته لكي يسافر ويعيش في بلد أجنبي وأنا ياسيدي لا أستطيع أن أسافر وأعيش في بلد غريب لا أعرف فيه أحدا ولا أرى فيه أهلى ولقد ناقشته طويلا في ذلك وحاولت إقناعه بأن بلده أولى به وبأن يطرح هذه الفكرة من رأسه ففشلت ، وهو يقرأ لك بانتظام كل يوم جمعة وقد اقترحت عليه أن أكتب لك لكي تحاول إقناعه بما فشلت فيه .. ولنعرف رأيك فأرجوك أن تقنعه بذلك .. وشكرا لك مقدما من زوجة حائرة .

□ □ ولكاتبه هذه الرسالة أقول : إن من حقنا جميعاً أن نشكو من بعض سلبيات الحياة في بلادنا .. وأن نتأفف من قذارة الشوارع وجشع الباعة وانقطاع الحرارة عن التليفون أحيانا لكنه ليس من حقنا أبداً أن نسعى جميعا إلى هجرة بلادنا لأن بعض مظاهر الحياة فيها لا يرضينا ، وأنا دائماً من أنصار الهجرة والكفاح في أرض الله الواسعة إذا كانت له دوافعه الجادة كأن تضيق بالإنسان سبل الرزق في بلده أو يعجز عن بناء حياته ومستقبله فيها أما أن يهاجر البعض وكل سبل الحياة متاحة له لمجرد « القرف » من بعض سلبيات المجتمع فهذا مالا أوافق عليه ولا أشجعه أبداً لأن لكل مجتمع إيجابياته وسلبياته مهما كان مستوى المعيشة فيه مرتفعاً ولكل إنسان دائماً وفي أى مجتمع ما يرضيه وما يثير شكواه ولقد طفت بعدد كبير من دول العالم على مدى عشرين عاماً وحاورت الآلاف في هذه الدول فلم أصادف إنساناً في دول الشرق أو الغرب يعتبر بلاده جنة الله في أرضه .. أو أفضل مكان في العالم فهناك دائماً ما يثير سخط الإنسان في كل زمان ومكان وليست هناك فوق الكرة الأرضية مدينة فاضلة كمدينة أفلاطون التي تخيلها أو التي يتخيلها بعض الفلاسفة في « اليوتوبيا » ولن تكون في ظني وإلا لكانت اللجنة التي وعد بها المتقون .

وإنما هناك دائماً سخط ورضا .. وقبول ورفض .. وسعادة وتعاسة وحياة سهلة وحياة صعبة في كل مجتمع وفي كل مكان ، فإذا كان لحياتنا سلبياتنا الكثيرة فإن لكل حياة في أى مجتمع سلبياتنا وإيجابياتنا أيضاً ، ومن سلبيات الحياة بالنسبة لكما في أى مجتمع آخر أن سعادتكما التي تعيشانها الآن لن تتحقق كاملة هناك وأنت تفتقدين الأهل والصحاب والأمان النفسى ، وكل إنسان يهفو قلبه إلى بلاده مهما لقي فيها من متاعب وآلام والرسول الكريم حين

خرج بأمر ربه من مكة التي حورب وطورد ولقي فيها من العنت الكثير خرج
موجع القلب باكيا يقول : « رب أخرجتني من أحب البلاد إلى » فكيف بنا
نحن الضعفاء ؟.

لا ياسيدتي لا أواقفه على الهجرة إذا كانت هذه فقط هي دوافعه لها أما
إذا كانت لديه دوافع أخرى غير معلنة كرهبته اللاشعورية مثلا أن يعيش في
مجتمع لا يلتفت فيه أحد لفارق السن بين الزوج والزوجة لأن كل إنسان
مشغول فيه بنفسه ولا يهمنه من أمر الآخرين شيئا .. فهذا أمر آخر لكنه
لا يستحق على أى حال تعكير صفو حياتكما مادمتما قد اخترتما حياتكما معا وما
دتما سعيدين بها والسعادة لغز في النهاية قد تتحقق للإنسان حين يتوقع له
الآخرون التعاسة .. وقد لا تتحقق له حين يكون الظن أن كل أسبابها قد
توافرت له . فليس من حق أحد إذن أن يسأل لم أو لماذا لأنها هبة من ملك
الملوك الذي إذا وهب لا نسألن نحن عن السبب ، والسعادة في النهاية
إحساس داخلي لا علاقة له بحمارة التليفونات ولا بالشوارع النظيفة فعسى أن
يعرف زوجك قدر هذه الهبة التي وهبها الله له وألا يسعى لإزعاج حياتكما
بمشروع الهجرة الذي ترفضينه .. والذي لاتدعو إليه أية ضرورة أما أنت
ياسيدتي فهنيئا لك سعادتك وأرجو أن تدوم بفضل من الله إلى الأبد لكن
لاتتظري من غيرك أن يكرر تجربتك لأن لكل قاعدة استثناء .. ولأن قوانين
الحياة العادية أولى دائما بالاتباع .. وشكرا ..

النافذة المضيئة!

أكتب إليك بعد تفكير طويل لأستعين برأيك في حالى فنذ ٤ سنوات كنت طالبة بإحدى الكليات الجامعية .. وكنت أحاول بكل طاقتى أن أتفوق وأن أحصل على تقدير ممتاز لكى أجد فرصة التعيين كمعيدة فى نفس كليتى لأن أسرتى بسيطة ولا أمل لى فى وظيفة عن طريق أحد الأقارب كما يفعل المحظوظون .. لذلك وضعت همى فى مذاكرة دروسى وكنت أسهر الليل أراجع دروسى وأعيد مراجعتها وحين يصيبنى الملل اقف فى النافذة بعد منتصف الليل قليلا أشم الهواء واستريح قليلا ثم أعود للمذاكرة .. وذات مساء لاحظت أن هناك نافذة على بعد قريب منى تظل مضاءة معظم ساعات الليل مثلى .. فقدرت أنه طالب أو طالبة تذاكر دروسها مثل ..

ووجدت نفسى بعد فترة مشدودة إلى منافسة صاحب هذه النافذة المضيئة فى الاستذكار .. وكلما أرهقنى التعب ونظرت إليها فوجدتها مضاءة زال عنى التعب وقررت مواصلة المذاكرة ساعة أخرى حتى تنطفى النافذة الأخرى .. هكذا مضت الليالى لى .. وبعد فترة عرفت أن من يذاكر بها طالب .. وبعد أسابيع أخرى بدأت أحس كأنه يعرفنى وأعرفه .. وبعد فترة أخرى كانت قد نشأت بيننا علاقة « ضوئية » إذا جاز هذا التعبير فأصبحنا نتبادل التحية عن طريق إطفاء نور الحجره وإضاءته عدة مرات كل ليلة .. ثم بدأ يمر تحت

نافذنى فى النهار وتبادل الابتسامات ، ثم عرفته وعرفنى وعرفت أنه طالب فى نهائى الهندسة وأنه يسبقنى بعام ولم تمض شهور إلا وتقدم لخطبى بمجرد تخرجه .. واتفقنا على أن ننتظر لمدة عام إلى أن اتخرج ثم نتزوج ، وقد قربتنى منه فترة الخطوبة كثيرا فأحبيته حبا عظيما وأحبنى هو كذلك ، ورضينا نحن الاثنين بطروفنا فهو مكافح مثلى لا أحد له سوى أمه .. وأنا ابنة لموظف مكافح ، وجمع بيننا الحب والاحساس بأنه لا نصير لنا فى الحياة ، لذلك فلقد قلت له إننا إذا انتظرنا حتى يدخر ثمن الجهاز فسوف تنقضى زهرة العمر ونحن فى الانتظار لذلك فإن علينا أن نتزوج الآن ونعد جهازنا فيما بعد حين تسمح ظروفه ولو بعد عشر سنوات .. وكنت قد جهزت الأشياء الخاصة بى فى حدود إمكاناتى ففكر هو قليلا فى الأمر ثم وافق على أن نتزوج خاصة أنى وافقت على الإقامة مع أمه فى مسكنها .. وأنه قد عين مهندسا بسبب تفوقه بإحدى الهيئات الحكومية بعد نجاحه فى مسابقة التعيين ..

وهكذا احتفلنا فى بيتنا احتفالا بسيطا بالزفاف .. لم يحضره سوى بعض أقاربنى وبعض أقرابه .. ولم نقدم فيه للضيوف سوى الشراب وقطع الكيك التى صنعتها أمى . ثم انتقلت معه إلى مسكنه ، وبدأت حياتى الزوجية سعيدة به وبنفسى . واتفقنا على أن نؤجل الإيجاب حتى تتحسن ظروفنا وحتى ندخر مبلغ الجهاز ، ومضت أيامنا سعيدة سعادة البسطاء من أمثالنا .. أساعد حياتى فى أعمال البيت .. نعيش معا فى حياة مشتركة بلا أى متاعب لأنى أحببتها - واعتبرتها كأسمى واحبتنى هى أيضا وعطفت على ، ومضى عامان على زواجنا وزوجى يعمل ليل نهار يخرج من عمله الحكومى إلى عمل آخر ويعود إلى البيت فيستدعونه فى العمل الحكومى فى منتصف الليل لأنه يعمل فى أحد مراقب الخدمات التى تتطلب العمل فى أوقات مفاجئة فيخرج نشيطا ويعود

قرب الفجر ، وهو ينفق على البيت جزءا من مرقبه مع معاش أمه ويدخر
الباقى لكى تشتري الجهاز... وبعد كفاح عامين لم ندخر سوى « باكو » بلغة
هذه الأيام .. ولم أقلق لأن الأيام أمامنا ولأنى سوف أعمل ذات يوم وسوف
أساعده فى الادخار .. لكن المشكلة هى أن زوجى ياسيدى قد بدأ ينفد صبره
وبدأ يقول لى أنه لا أمل لنا فى أى شىء وأن الطريق طويل أمامنا .. ثم بدأ
يمضى فترات طويلة صامتا أو سارحا وكلما اقتربت منه وحاولت مشاركته
أفكاره يبعد عنى ... ثم فاجأنى منذ ٣ أسابيع بمفاجأة هزتنى من أعماق حين
قال لى أنه يشعر أنه ظلمنى معه .. لأننا ننام على سرير سفرى ونعيش فى شقة
صغيرة قديمة شبه خالية من الأثاث ، وليس بها ثلاجة ولا تليفزيون .. وأنه
يفكر فى أن يتركنى لآخذ حظى مع غيره ممن يستطيعون تقديم شبكة ومهر
وتأثيث شقة إلى آخر هذا الكلام .. وبكى وقلت له إن كلا منا يجب الآخر
ويرى فيه حياته ومستقبله ، واننى لست متعجلة لأى شىء ولا يهمنى جهاز أو
غيره وإنما يهمنى أن أضع رأسى كل ليلة على وسادة ينام عليها من يجنبى
وأحبه .. وهددته بأنه إذا عاد إلى هذا الحديث مرة أخرى فسوف أشكوه
لأمه . فانهى الحديث ، لكنه بعد أيام أخرى قال لى يا فلانه أنت صعبانة
على لأنك أحببت شابا فقيرا .. وأنت جميلة وتستطيعين الزواج من شاب
ميسور ، فوضعت يدى على فمه ثم قلت له لا تحاجبى بذلك لأنك شاب
وفى مقتبل العمر والحياة أمامك وإذا كنت تعتبر نفسك فقيرا فلا تنس أيضا
أننى فقيرة دقة ، ومع ذلك فأنا أعتبر نفسى غنية بك .. واعتبرك أغنى رجل
فى العالم فلا تعذبى بهذا الكلام .. فسكت لكنه يزداد حزنا يوما بعد يوم .
إنه شاب ممتاز ويعاملنى بكل حب وهو مهندس شريف ولو أراد أن يكسب
الكثير من عمله لفعل .. لكنه يرفض أن ينحرف ولن ينحرف أبدا لأنه يعرف

ربه ويخشى الحرام وأنا أخشاه أكثر منه ، وأريد منك أن تقول له أنى لا أرضى به بديلا وأنى سعيدة معه فى الشقة القديمة مع الأثاث القديم وأنى مستعدة أن أنام بجواره على حصيرة .. لكن عليه فقط أن يطرد هذه الفكرة من ذهنه لكيلا تعكر عليه حياته .. ولكى نعيش حياتنا كما يعيش كل الناس .. ولا بد لكل ليل من آخر .. إننى أرجوك أن تقول له ذلك على لسانى لكى يهدأ ويستريح ويعود إلى نشاطه وابتسامته فهل تفعل ذلك من أجلى ؟ .
□ □ ولكاتبه هذه الرسالة أقول : نعم أفعَل يا سيدتى بكل سرور .. لكنى مها أجهدت نفسى فى تنميق الكلمات فلن أعرّ على كلمات تعبر عن حبك له وتمسكك به أجمل ولا أصدق من كلمات رسالتك هذه .. لذلك فلن أضيف إليها الشئ الكثير .. ولن أعيد تكرار كلمات الحب والوفاء والاخلاص على زوجك الشاب لكنى سأطلب منه فقط أن يعيد قراءة رسالتك هذه عدة مرات وأن يعي معناها الكبير .. وان يعتبرها تيممة حب يقبض عليها بيده ويدفع بها عن نفسه الضيق والملل كلما ضاق صدره بظروف الحياة لأنها زاد عظيم لمن يشق طريقه فى الحياة معتصما بالقيم ورافضا للانحراف كما يفعل زوجك .. وقوة دفع كبيرة سوف تدفعا بإذن الله إلى مواصلة طريقه المستقيم متمسكا بك ومحتميا بحبك ضد صعوبات الحياة حتى تتحقق الأمال بإذن الله ..، وعفوا ياسيدى إذا قلت لك أن رسالة زوجتك هذه يشقى كثيرون لكى ينالوا بعضا من كلماتها الصادقة من شريكات حياتهم الشقية رغم معاناتهم لاسعاد زوجاتهم وتوفير كل متطلبات الحياة لهن فلا تفرط فى قلبها الذهبى الذى يغمرك بكل هذا الحب ولا تفقد صبرك وجلدك على متاعب الطريق الطويل أعانك الله عليه وأعان كل الشباب من أمثالك على آلامه وتبعاته الجسام .

حكاية قديمة

أنا يا سيدى أب قاربت سن المعاش لا دخل لى سوى مرتبى الحكومى ومورد آخر من عمل إضافى جاهدت فى الحياة لتعليم ابنتى وقاسيت الكثير لتوفير الظروف الملائمة لتعليمها تعليمًا عاليًا فأدخلتها المدارس الخاصة رغم ارتفاع رسومها .. وحرمت نفسى من ضروريات الحياة لأوفر لها الدروس الخصوصية حين بلغت مرحلة الجامعة لأنها اختارت فرعًا صعبًا وحديثًا من فروع الدراسة ، هو شعبة الهندسة الطبية بكلية الهندسة .. وكانت الدراسة شديدة الصعوبة حتى ليستحيل بالفعل على كثيرين أن ينجحوا فيها بغير معونة الدروس الخصوصية .. ويعلم الله كم تحملت لأفى بتكاليف هذه الدروس لكن الهدف كان يستحق المعاناة من أجله .. وكافأنا الله على صبرنا .. فكانت ابنتى عند حسن الظن بها ، وعلى قدر المسئولية فتخرجت من كلية الهندسة منذ عامين ، وحمدت الله كثيرًا على ذلك وأحسست أنى أدبت واجبى تجاه أسرتى فلقد تخرجت أيضًا ابنتى الصغرى متفوقة أيضًا وعينت معيدة بإحدى الكليات ، وبدأت اطمئن للمستقبل فابنتى الكبرى لن تلبث أن تعمل بعد قليل لأن تخصصها حديث ومطلوب .. وخلال سنوات العمل الأولى تستطيع ابنتاى وهما تعيشان فى كفالتى أن توفرن للغد ما تستطيعان به تجهيز نفسيهما حين يتقدم لهما صاحب النصيب ، وأستطيع أنا أن أؤدى واجبى معها فى حدود قدراتى واطمئن إلى أن كلا منهما قد

استقرت في بيت زوجها وأن رحلتى قد أثمرت ثمارها الطيبة .
 وبينما أنا في أحلامي السعيدة هذه فوجئت بما لم أكن أتوقعه من ابنتي
 المهندسة فلقد رفضت العمل بصفة نهائية وتحجبت ولزمت البيت تمضي ساعات
 الليل والنهار جالسة إلى جانب أمها .. ورفضت كل عرض قدم لها للعمل سواء
 في الحكومة أو القطاع العام .. هل تعرف لماذا ياسيدى ؟ .. لأن عمل المرأة
 حرام .. أيا كان نوعه !! وكما سألتها عن حجتها في ذلك قالت لي « وقرن في
 بيوتكن ! » .. فأقول لها استكملي نص الآية لتعرفي أن المقصود بها أى عمل
 خارج عن الدين وأن النساء في الإسلام كن يساعدن الرجال في غزوات النبي
 والخلفاء الراشدين وكن يقفن وراءهم في المعارك ويحملن الماء إليهم وفتيات العالم
 الإسلامى يعملن ولم يقل أحد أن عمل المرأة حرام بصفة عامة .. فتقول لى
 « لكم دينكم ولى دين » .. ثم تمضى اليوم كله جالسة في البيت أو تلتقى بفتيات
 محجبات يقرآن القرآن معاً في المساجد ، أو تقرؤه وحدها معتزلة في حجرتها ،
 وليس هذا مصدر الخوف .. لكن الخوف كله من أن تتحول الحياة إلى
 جلوس .. وكلام فقط ، والحياة عمل وعبادة ، والعمل عبادة أيضاً ،
 وما يشير حتى هو أنى لو كنت أعرف اتجاهها إلى ذلك من البداية لوفرت على
 نفسى العناء الذى تحمّلته لكى أعلمها في الجامعة وفي هذا الفرع الصعب من
 الدراسة ولاقتصررت على تعليمها تعليماً متوسطاً ووفرت صحتى ومالى اللذين
 بددتها خلال السنوات الماضية ..

وأنا الآن أريد منك جواباً لهذا السؤال : هل عمل المرأة حرام ؟؟ .. وإذا لم
 يكن كذلك ماذا أفعل معها ؟ أكون قد أرضيت ربى وضميرى معها خاصة
 وأنى أخشى عليها من الفراغ ومن الحياة التى تسلكها فى صحبة هؤلاء
 الفتيات ؟ ..

□ □ ولكاتب هذه الرسالة أقول : لا أعرف سر هذا البلاء الذى يفرض علينا من حين إلى آخر لإضاعة الوقت والجهد والطاقة فى قضايا لم تعد قابلة للجدل لأنها محسومة بالنصوص والأحكام الشرعية منذ قديم الزمان اللهم إلا إذا كان البعض منا يعتقد أننا قد حققنا مجتمعا ولأنفسنا فوق ما نريد له من العدل والوفرة والرخاء .. وأن الأوان لأن نجلس على الأرائك لنعيد فتح باب المناقشة فى القضايا القديمة .. ونمتحن أدلتها الفقهية .. ونجتهد فى استخراج أحكام جديدة حولها . عمل المرأة أيا كان نوعه حرام ؟ يا إلهى !!! إن الإسلام لم يمنع المرأة من الجهاد .. فكيف يمنعها من العمل الشريف الذى تكسب منه رزقها وتخدم به مجتمعها وغاية كل الأديان هى خير البشر وسعادتهم وليس التعسير عليهم وإرهاقهم !!

والإسلام لم يمنع المرأة من الاشتغال بالسياسة .. فناصرت نساء كثيرات عليا ابن أبى طالب فى صراعه مع معاوية .. ودعت السيدة عائشة ضد على وشهدت موقعة الجمل وهذا هو قمة العمل السياسى .. فكيف يحرم الإسلام المرأة من حق العمل الشريف؟؟

لقد خرجت النساء مع الرسول فى غزواته وكانت إحدى أمهات المؤمنين تناوله السهام ليرشق بها الأعداء فى بعض الغزوات ، وكانت النساء يسقين المجاهدين ويعالجن الجرحى ويقمن بما يقوم به الآن الجنود فى الخطوط الخلفية أثناء المعارك ، بل وشاركت بعضهن فى القتال وامتطين الخيول وامتشقن السيوف حتى تساءل خالد بن الوليد فى إحدى معاركه ضد الروم عنم يكون هذا الفارس المقدام الذى يقاتل بشجاعة فى صفوفه فإذا به السيدة خولة بنت الأزور الكندى !! وفى كتب التاريخ إشارات عديدة لنساء عملن بالتجارة وبالطب .. وأورد كتاب «طبقات الأطباء» إسم إحدهن اشتهرت بممارسة

الطب وتفوقت فيه وهى السيدة زينب طيبة بنى أود ، بل وروت كتب أخرى أن سيدة قد تولت القضاء فى عهد الخليفة المقتدر فى العصر العباسى فشهد لها الرجال بالعدالة واطمأنوا إلى قضائها ، وغير هذه وتلك كثيرات وكثيرات فى كل العصور .. فلماذا نفتح هذا الباب من جديد الآن ، والعقل يقول لنا إن الإسلام قد كرم المرأة ومنحها من الحقوق والواجبات ما منح الرجل بل وما لم تمنحه لها قوانين بعض الدول الأوروبية حتى الآن مثل حق التصرف فى مالها بغير إذن الزوج .. فكيف يعقل أن تعطى الشريعة للمرأة المتزوجة حق أن تبيع ما تشاء وتشتري ما تشاء وتودع أموالها فى المصارف باسمها وأن تحتفظ بمالها ودخلها لنفسها وهو ما لم تصل إليه المرأة فى بعض المجتمعات المتحضرة حتى الآن ، ثم يجرمها بعد ذلك من حق العمل الشريف الذى تساعد به نفسها وزوجها وأبناءها وجمتمعها !!!

إنها مسألة منطق أكثر منها مسألة جدال حول الأحكام والنصوص والبراهين ، فإن شئت ابتك أن تعرف النصوص والأحاديث أيضا .. فلتحسن أولاً قراءة كتاب الله ، لتفهم معانيه السامية .. ولتقرأ كتاباً ككتاب تفسير المنار للإمام محمد عبده .. أو كتاباً ككتاب «مكانة المرأة فى الإسلام» للأستاذ الأبراشى أو أى كتاب يضم الفتاوى ولو شئت أن أهديها بعضها فإنى على استعداد لذلك فى أى وقت .. لكن المشكلة ليست فى ذلك ، وإنما فى هذا الظلام الذى يحيم على عقولنا ويقيد حركتنا للكفاح من أجل مستوى معيشة أفضل .. إن قوماً فى مثل ظروفنا الصعبة ينبغى عليهم أن يسابقوا الزمن ليحاربوا التخلف والفقر وصعوبات الحياة .. لا أن يحاول البعض أن يجرم مجتمعنا من جهده ومشاركته وعلمه بحجة أن عمل المرأة حرام .. ونحن فى حاجة إلى كل قطرة عرق .. وإلى ثمرة كل عقل لنغالب ظروفنا .. ثم كيف تكون العبادة حجة

مقبولة لعود الهمة والتوقف عن العطاء والعمل والكفاح .. وكتاب الله الذى بين يديها يحث على العمل والسعى فى الأرض .. ورسوله الكريم يأتى إليه قوم يقولون له إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر فيسألهم أياكم يكفيه طعامه ؟ فيقولون : كلنا ، فيقول لهم : كلكم خير منه !!

ورسوله أيضاً يصفح ذات يوم معاذ بن جبل فيستخشن يده ويعرف أنها قد اخشوشنت من العمل فى الزراعة ليكسب رزق عياله .. فيقبله أو يقبل يده فى رواية ويقول له : تلك يد يحيا الله ورسوله !!

وما ينطبق على الرجل ينطبق على المرأة فى الإسلام لأنه ساوى بينهما فى الحقوق والواجبات .. وأباح للجميع حق العمل الشريف وطالبهم بالإسهام الجاد فى ترقية الحياة ..

فقل لها ذلك يا سيدى .. واستعن عليها بالعقلاء من اهلك .. وانصحها بأن تخدم نفسها ومجتمعها بعلمها الذى اجهدت نفسها وأجهدت لتكسبه وهو من فروعه المطلوبة بالحاح فى بلادنا ، فإن لم تنتصح فلا تحمل نفسك ما لا طاقة لك به فلقد أرضيت ربك وضميرك وأديت واجبك كاملاً تجاهها .. ويكفى أنها سوف تتحمل تبعات اختيارها .. وسوف تلمس الفرق واضحاً بين إمكاناتها وإمكانات شقيقتها حين تتزوج فتندم على أنها لم تسع فى الأرض لتكسب رزقها وتعين نفسها على نفقات الزواج .. أما أنت فلا جناح عليك أن قصرت إمكانياتك عن الوفاء بما يتطلبه زوجها من نفقات لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ولأنها كانت تستطيع أن تعينك على أمرها لكنها اختارت أن تكون « معالة » إلى الأبد رغم احتياجها .. فأبت لنفسها الكرامة التى كرمها بها دينها حين ساوى بينها وبين الرجل فى الواجبات والحقوق ، واختارت لنفسها « مهانة » المرأة فى القانون الرومانى القديم الذى كان يرى « أن المرأة كالطفل

ليست أهلاً للتصرف طيلة حياتها ويجب أن يوكل كل أمرها إلى رب الأسرة ..
ومن لا يساعد نفسه يا سيدي لا يستطيع أحد أن يساعده مهما فعل ومن
يأب الكرامة لنفسه فلا يستطيع أحد أن يرغمه على تكريم نفسه بالكفاح
الشريف في الحياة .. والسلام ..

أيام الطفولة

« أرجو أن تصدق كل كلمة أكتبها لك لكى تشير على بالرأى السليم فى مشكلتى التى تؤرق حياتى فأنا سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى .. نشأت فى أسرة متوسطة الحال فى حى شعبي ، وكعادة أهل الحى كنا نلعب فى الشارع : الأولاد مع البنات معظم ساعات النهار ، وفى سن مبكرة أرجو أن تصدقنى إذا قلت لك أنها كانت سن السادسة من العمر وجدت نفسى أستكين تحت حماية « ولد » من أطفال الجيران فى التاسعة من عمره بدأ يمارس معى دور الأخ الأكبر فيمنعنى من اللعب مع هذا .. ويضرب من أجلى ذاك .. ولا أستطيع أن أتصرف أى تصرف بغير مشورته أو أن أذهب إلى مكان إلا بإذنه وكأنه الأمر النهائى فى حياتى .

وربما شجعنى على ذلك أنى كنت وحيدة بلا أشقاء ذكور ، وإنى تربيت فى أسرة تعمل فيها أمى وأبى معاً فى محل تجارى صغير ولا نشعر كثيراً باهتمام أبى أو بسيطرته فالأم هى التى تعمل معظم ساعات النهار وهى التى تدبر حياتنا ، .. وتقضى لنا مطالبنا وتشتري لنا ملابسنا أما الأب فغير مبال فى معظم الأحوال ، وهكذا وجدت فى هذا الصبى ما افتقدته فى أبى من قوة وحزم ورعاية ، ولن أطيل عليك فى سرد ذكريات طفولتى لكننى سأقول لك أننا واصلنا التعليم الإبتدائى ونحن مرتبطان بهذا الشكل حتى إذا وصلنا إلى المرحلة الإعدادية كنا قد

أصبحنا مشكلة حقيقية بالنسبة لأمى التى كثيراً ما هددتني للابتعاد عنه وأيضاً لأبيه الذى كثيراً ما هدهده وضره ليتوقف عن اعتبار نفسه مسئولاً عنى !
و حين وصلنا إلى أوائل المرحلة الثانوية لم يجد أبوه مفرّاً من أن يصطحب ابنه معه إلى بيتنا ويقابل أبى ويعرض عليه الأمر ضاحكاً .. ثم يطلب منه قراءة الفاتحة على خطبى لابنه لكى يستريح من هذا الصداع ! ورحب أبى وتمت قراءة الفاتحة ، واعترف بنا الأهل كخطيبين واطمأن خاطرى وحين وصلت إلى الثانوية العامة عقدنا القران ، وبلغت سعادى القمة ودخلت الامتحان ونجحت ونجح هو أيضاً والتحق بكلية الزراعة والتحق أنا بمعهد الخدمة الاجتماعية .
وبعد عامين بدأ خطبى يستعد لإعداد الجهاز فترك الدراسة مؤقتاً وعمل بائعاً فى محل تجارى لكى يوفر متطلبات الزواج ، وفى هذه الفترة بدأت معاناتى معه .. فكثرت مشاجراتنا .. وكلما تشاجرنا ترك العمل ويظل هكذا حتى أصلحه ، وعرف هو نقطة ضعفى فاستغلها تماماً ، ونصحنى البعض بأن تكون لى شخصية معه لكنى لم أستطع أبداً يا سيدى ، وكلما أفلتت أعصابه منه تحملت وقلت لنفسى أنه يكافح لإعداد الجهاز ولا أحد يساعده وينبغى على أن أصبر . ثم تزوجنا بعد ٣ سنوات .. وطالبته بالعودة للدراسة دخل امتحان السنة الثالثة من الخارج ونجح ثم حصل على البكالوريوس وحصلت أنا أيضاً على شهادتى .

وكان المفروض أن تكتمل سعادتى .. لولا أنى لم أحمل خلال السنوات الخمس التى مضت من الزواج .. ولولا أن طبعه لم يتغير معى ، فحياتنا معاً مزيج من السعادة والمشاكل فى نفس الوقت ..
فأيامنا إما سعيدة جداً جداً .. وإما تعيسة جداً .. مشحونة بالمشاجرات والغيرة والمشاحنات حول الحمل والإنجاب وكلما تشاجر معى امتدت يده علىّ

بالضرب كما سبق أن ضربني مرة ونحن مخطوبان في الشارع ورغم ذلك فأنا أرفض تدخل أحد من أهلي أو أهله بيننا ، وواجهت معه مشاكل الحياة فبعد التخرج لم يعمل وإنما افتتح بمساعدة أبيه محلاً صغيراً في مكان بعيد لم ينجح فعرفنا ضيق العيش بنفس راضية حتى اضطر أن يغلقه ويعود إلى الحى الشعبى الذى نشأنا فيه ويتخذ من «فترينه» على الرصيف مكاناً لبيع بضاعته ، وتحسنت الأحوال قليلاً ، لكنى كنت أضيق أحياناً بمشاجراته وضيق العيش فاترك له الشقة وأعود إلى بيت أبى ، ورغم ذلك كنت أتعجب لأنى لا أجد راحتي في بيت أبى الذى طالما وجدت الراحة فيه أما أمى فهى تجدها فرصة لتكرار نصائحها لى بأن أنفصل عن زوجى .. وأبحث عن الأمان مع غيره مادمت لم أنجب منه ولست مستقرة معه فيدخل كلامها يا سيدى من هذه الأذن ليخرج من الأذن الأخرى بلا أى تأثير ثم بعد عدة أيام أجدنى كأتى منومة أذهب إليه في الشارع الذى يقف فيه .. وأشير إليه مبتسمة فما أن يرينى ابتسامته حتى أنسى كل ما حدث وأسير معه إلى البيت .

وذاث يوم كانت أخت زوجى في زيارتنا فخرجت في الصباح الباكر لأمر ما ثم عادت بعد دقائق حاملة معها طفلاً حديث الولادة «بالدم والسرة» عثرت حياى علينا أن نحفظ بهذا الطفل ونريه لعله يهدئ نفوسنا سيكون فاتحة خير علينا .. ولم أتكلم لكنى تمنيت من أعماق أن يوافق زوجى .. فوافق وأخذنا الطفل فعلاً وذهب هو إلى مكتب الصحة واستخرج له شهادة ميلاد باسمه واسمى .

وفرحت بهذا الطفل فرحة كبرى وبدأت أهتم به وأجد ما ينقصنى وانشغل به ساعات نهارى التى يغيب فيها زوجى أما هو فلم يتغير فيه شىء .. فيضربنى لأتفه الأسباب ولا ينقذنى منه حتى صراخ الطفل .. ورغم حبه له فلقد قال لى

أكثر من مرة أنه يريد طفلاً من دمه .

ومع ذلك مضت الحياة بنا .. حتى عرفت أنه اقترب من جارة له في الركن التجاري الذي يقف فيه .. وأنه يريد أن يتزوجها لكي ينجب منها .. وعند هذا الحد لم أحتمل أكثر من ذلك فحملت ابني وعدت إلى بيت اسرتي ! وطلبت من أبي أن يقابله ويطلب منه الطلاق وذهب إليه أبي واتفق معه على كل شيء .. وحدد معه موعداً لكي نذهب إلى الشقة « ونفك » الأثاث وننقله إلى بيتنا ثم نذهب معه إلى مكتب المأذون لكي نجري إجراءات الطلاق .

وفي صباح اليوم المحدد أحضر أبي عربية نصف نقل واثنين من الأقارب وذهبتنا إلى شقتي لتسلم العفش .. ووجدته ينتظرنا وأقسمت لنفسى ألا أضعف معه مرة أخرى مها حدث فحيته تحية عادية وانشغلت مع الموجودين في فك الأثاث وتحميله إلى السيارة .. وجمع الأواني والصابون في كراتين صغيرة ومضت ساعة ونحن نعمل وهو يساعدنا حتى أنزلنا الأثاث ولم تبق سوى بعض الكراتين فبدأت أستعد للانصراف إلى المأذون وقبل أن نغادر الشقة قلت له فجأة : « إبقى إسأل علىّ » فhez رأسه صامتاً ثم أمسك يدي وقبلها .. فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أقبل يده وأبكي وأبى واقف مندهشاً ومذهولاً أمامنا وقريباً والسائق .. ينظرون إلينا صامتين .. وبعد دقيقة من الصمت استجمعت إرادتي وطلبت على استحياء من السائق وأقاربي أن يعيدوا الأثاث إلى الشقة مرة أخرى .. فانفجر أبي في صائحاً : الله يقطعكم .. هو لعب عيال ولا إيه .. والله لا أتدخل في أمر لكما مرة أخرى وسأنصرف الآن ، فإذا بسائق اللورى يقول لأبى منشرحاً : انصرف إنت في سلام .. ويمين على يمينك لأعيدن هذا الأثاث إليهما ولن أتقاضى من أحد أجرة هذه « العطلة » .. فلقد ذقت من قبل « مرار » هذه اللحظة وأعرف معنى خراب البيوت .. ثم دفع قربي إلى خارج الشقة وأعادوا

الأثاث خلال دقائق وهم يتضحكون ويتندرون وساعدونا في إعادة تركيبه ،
وشكرناهم من أعماقنا وانصرفوا سعداء يوصوننا بالألا نفرط في بعضنا البعض وأن
نتقى وساوس الشيطان .

وعدت إلى بيتي من جديد يا سيدى .. لكنى أشعر أن شيئاً بيننا قد إنكسر
فأنا أحبه لكنى أكره أفعاله .. ولا أستطيع الاستغناء عنه لكنى أريد أن أعيش
معه في سلام ، وهو يحبني ولا يستطيع الاستغناء عنى لكنه لا يريد أن يجيأ معى
حياة طبيعية بلا مشاكل ولا مشاجرات .

إنى أقول لئنفسى أحياناً إننى يجب أن أتحمّل .. وأعيش معه وأرضى بالقليل
لكى يحس بالأمان ويهدأ ويستقر .

وأقول لئنفسى فى أحيان أخرى .. يجب أن انفصل عنه .. وأتعذب إلى أن
أنساه ثم أبدأ حياتى من جديد بعد عذاب ، نعم .. ولكن فى إستقرار يدوم إلى
آخر العمر .

وبين هذا وذاك احترت وتعبت ظنوفى وقد كتبت لك هذه الرسالة وأنا فى
أشد حالات ضيق راجية أن تشير علىّ بالرأى السديد وأعدك أن أعمل به ،
لكن أرجوك ألا تطلب منى الطلاق لأن معناه أن أحكم على نفسى بالموت وأن
أحرم طفلاً من أب يمكن أن يوجهه حين يكبر التوجيه السليم حتى ولو قال بعض
الناس أنه ليس ابنتا .. فيماذا تشير علىّ ؟

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : إنك لم تدعى لى يا سيدتى مجالاً للاختيار ،
فلقد حسمت الأمر كله لرفضك أساساً لفكرة الانفصال .. وحسناً فعلت لأنك
لن تستطيعى فعلاً الانفصال عنه ولن يهدأ لك جانب إذا ما حرمت منه فهو
تحت جلدك وممتزج بدمك وطفولتك وصباك ، وأنت أيضاً تحت جلده وممتزجة
بدمه وحياته حتى ولو لم يدرك ذلك تماماً الآن .

إذن فلا مكان لحل الانفصال في القصة كلها .. لأنها قصة عمر وقصة حياة
من هذا النوع الذى يقول فيه الشاعر :

كان لم يكن في الناس قبلى متيم

ولم يك في الدنيا سواك حبيب

وأنا أصدقك في كل ما قلت .. وأعجبت كثيراً بشهامة هذا السائق الإنسان
وحكمته وأرى أن مثلكما لن يهنا له عيش بعيداً عن الآخر .. ولو عاش في قصور
فاخرة ، وأن سفينة كل منكما لن تلبث أن تعود إلى مرفئها القديم مها تقاذفتها
الأمواج بعيداً عن الشاطئ .. ومها طالت غيبتها .. فلا داعى للتجارب الفاشلة
إذن .. ولا داعى لتكرار أخطاء الآخرين ممن تحذوا أنفسهم وجربوا حظهم
بعيداً فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم حين بدأوا حياة جديدة مع الغير وقلوبهم
رهائن لدى آخرين فشقوا وأشقوا غيرهم .. خصوصاً إذا كان الحب محفوراً في
القلب إلى هذا الحد .

غير أن آفة هذا النوع من الحب الملتهب هو أنه لا يعرف وسطاً بين السعادة
والشقاء أبداً فإما سعادة لاذعة حريفة .. وإما تعاسة حريفة ولاذعة أيضاً ،
لأنه كالنار المتأججة دائماً ومع ذلك فحتى التعاسة فيه لها مذاق خاص أجمل
كثيراً من النوع الآخر البغيض ومع ذلك أيضاً فكم من الناس من يتمنون لحظة
من هذه السعادة اللاذعة ولو دفعوا ثمنها من أعمارهم !

وإذا كانت القاعدة القديمة تقول : إن من يحب أقل يسيطر أكثر ،
فالواضح إنك تحبين أكثر وتسيطرين أقل لكن لا بأس بذلك .. فليس بين
الحبين حساب ، والمهم هو أن تتجنبي متاعب هذه الحياة الحريفة وتستمتعي
بسعادتها ولا مفر أمامك من الصبر عليه إلى أن يزداد نضجاً وحكمة وفهماً
للحياة .. ولا مفر أيضاً من أن تحاولي التماسك أمامه قليلاً لكيلا تشجعيه على

تكرار الأخطاء السابقة .. وأن تتجنبى المشاحنات معه بقدر الإمكان ، وأن تحاولى اقتناعه بأنه حين يؤذيك جسدياً إنما ينال من عمره وحياته ووجوده كله ، وإنكما قد شببتما عن الطوق ولم تعودا صغيرين يلعبان فى الطريق ويمجوز بينهما ما كان يمجوز وهما فى سن الطفولة أو الصبا .

وسوف تتحسن الأحوال بإذن الله حين تتحسن ظروفه المادية .. وحين تنضجه الأيام والليالى ويعرف قيمة الكثر الذى أعطته له الدنيا ، وحين تعملين أيضاً وتساعدينه فى تحمل أعباء الحياة ، وحين يأذن الله لكما بالإيجاب .. وحذار ساعتها أن تتخلياً عن هذا الطفل المحروم فمن يدرى فلعل الله قد جمع بينكما من جديد وصان عشكما من الدمار حماية لهذا البريء من الضياع وجزاء لكما على أن أويتاه ورعيتهاه بعد أن تخلى عنه ذووه .

المعركة

ليس أعمق من التجربة الشخصية .. نبعا للحكمة ، وفهم الحياة ، حتى لقد تمنى أحد أبطال الرواى الكبير نجيب محفوظ فى روايته «السمان والحريف» أمنية خيالية هى أن يعود الإنسان إلى الحياة أكثر من مرة لكى يستوعب دروسها ويتجنب أخطائه ثم يعيش حياته للمرة الأخيرة آمنا سعيدا متسلحا بالخبرة الثمينة التى اكتسبها من تجاربه فى «حيواته» السابقة !

ولقد تذكرت هذه العبارة بشدة وأنا أقرأ هذه الرسالة التى كتبها لى قارئة تعليقا على رسالة «التحدى» التى روت فيها صاحبها كيف شغلها طموحها فى عملها عن زوجها حتى تنبته إلى أنه قد ضاق بانصرافها عنه وتزوج من زميلة له سرا .

أما الرسالة فتقول :

«كبت إليك من قبل رسائل عديدة لأستشيرك فى أمور تتعلق بأدق أسرار حياتى لكن رسالتى هذه لا أطلب منك فيها المشورة وإنما أتطوع بأن أقدم أنا النصح والمشورة لكاتبة رسالة «التحدى» وأرجو أن تسمح لى بذلك ، لأنى صاحبة تجربة .. ولا ينبئك مثل خبير ، كما تقول أنت دائما !

أنا يا سيدى سيدة فى الثامنة والعشرين .. تزوجت حين كان عمى ٢٥ سنة من أستاذ لى بالجامعة كان وقتها فى الخامسة والأربعين ، وكنت أحبه

حبًا كبيرًا وكان هو يجنبني كما قال لى .

وقد تزوجنى بعد أن ضاق بإهمال زوجته له وانشغالها معظم وقتها عنه فى عملها العلمى المرموق الذى وصلت فيه إلى أعلى وأرقى درجات العلم . وكان زوجى للحقيقة يحب زوجته الأولى حبًا كبيرًا لهذا أصر على أن يكون زواجنا سرًا فغضب أهلى ونخلوا عنى .. لكنى لم أبال بل كنت أكثر منه حرصًا على سرية زواجنا وعدم إعلانه حفاظًا على مشاعره ومشاعر زوجته .

وفى الأيام الأولى لزواجنا كان زوجى يشكولى دائماً زوجته الأولى وكنت أدافع عنها وأنتس لها الأعداء دائماً وركزت جهدى فى أن أعوض زوجى عن إهمال زوجته له وانشغالها عنه وركزت كل تفكيرى وحياتى فى إسعاده وقبلت رغمًا عنى ألا أنجب طفلاً لأنه رفض مبدأ الإنجاب بإصرار بحجة أن عنده أولادًا وبنات من زوجته ولا حاجة له بالمزيد من الأطفال .

ورغم حنينى للإنجاب من زوجى الحبيب فلقد رضيت بالحرمان إرضاء له ورضيت معه بكل شىء بسرية الزواج وحرمانى من زوجى نفسه معظم الوقت لانشغاله بأسرته ويعمله .

ومضيت حياتنا رغم كل ذلك هادئة سعيدة لمدة عامين .. ثم فجأة علمت زوجته .. بزواجه وصارحته بذلك فلم ينكر ولم يكذب عليها وواجهها بأن انشغالها عنه هو الذى دفعه للزواج من أخرى .

فهل تعرف ماذا فعلت «ضرتى» التى تشغل مركزًا علميًا مرموقًا حين سمعت ذلك من زوجها ؟ لم تصرخ .. ولم تولول .. ولم تفصح الدنيا .. ولم تقل له عملى «ابقى» لى منك .. ولم تعقد جلسات صلح .. ولا جلسات خناق .. وإنما صنعت شيئًا واحدًا هو أنها قدمت استقالتها بهدوء من عملها على الفور واستغنت عن الشغالة ومديرة المتزل وقبعت فى بيتها ورمت عرض الحائط

«بأبجاده» .. ومركزها الاجتماعي وتحولت إلى ربة بيت وزوجة وأم هل تصدق هذا ؟

هذا والله ما حدث من «الأستاذة» «ضرقى» !
ونتيجة لهذه التطورات بدأ زوجى ينسحب من حياتى تدريجياً .. وبدأ يتغيب عنى فترات طويلة بشخصه وبصوته فأصبحت لا أراه ولا أسمع فى التليفون بعد أن كان يخاطبى كل يوم مرة على الأقل فى التليفون .
ثم بعد أسابيع طرق البواب باب شقتى ذات يوم وفوجئت به يسلمنى ورقة الطلاق ومعها رسالة من زوجى يقول لى فيها : «سامحنى لكى أسامح نفسى أنا لم أنفصل عنك بسبب يرجع إليك أو لكره فيه ، لكن لأن ظروفى لم تعد تسمح لى إلا بالانفصال ، وقد آثر أن يرسل لى ورقة الطلاق مع البواب لكيلا يأتى بها عسكري من القسم حفاظاً على مشاعرى .. ولكيلا تحدث شوشرة لا داعى لها وهكذا يا سيدى خرجت من حياته .. مطلقة بدون أطفال .. وقد خسرت أهلى وعملى وحياتى ، سامحه الله .. وسامحنى أيضاً لأنى تزوجته وهو متزوج وكنت مجرد محطة فى حياته أخذ منها ما أراد ثم غادرها بلا عودة وأنا أكتب إليك الآن لأنصح الزوجة وكيلة الهيئة المرموقة المشغولة عن زوجها وأستاذها وحبيب . عمرها بعملها وطموحها فى الوصول إلى منصب رئيس الهيئة .. التى تمر الأيام بغير أن يراها زوجها أو تراه ، حتى ضاق بوحده وتزوج من زميلة له ، أكتب لأقول لها تعلمى الدرس من «ضرقى» التى استطاعت أن تستعيد زوجها وتحرمنى من زوجى .. ابدلى كل جهدك يا سيدتى لاستعادة زوجك لأن هذا هو التحدى الحقيقى فعلاً فعملك لن يبق لك مدى العمر ولن تجدى حين تصلين إلى سن المعاش من يقف بجوارك ويعينك على وهنك وشيخوختك سوى زوجك ، فاحرصى عليه .. وابدلى الجهد لاستعادته ، وليعنا الله أنا وضررتك

على دفع ثمن اخطائنا ، وأخطاء الآخرين من أمثالك يا من تدفعن أزواجك
إلى التلفت حولهم طلباً للرفقة بسبب انشغالكن عنهم .. فنكون نحن الضحايا ..
وتكن أنتن الجانيات والضحايا في نفس الوقت !

□ □ هذه هى الرسالة التى ذكرتنى بعبارة بطل رواية السمان والخريف عن الخطأ
والتجربة وبالرغم من أن أخطاء البشر غالباً متشابهة .. فإننا لا نتعلم الكثير منها
بكل أسف .. فنخطئ كثيراً .. ونتعلم قليلاً .. ونقترب من تجارب غيرنا ونعرف
أخطاءها ثم لا نلبث بعد حين أن نسير على نفس الدرب ونتجرع نفس التجربة
بمرارتها ... كأننا مسوقون إلى الخطأ بأقدار لا نملك لها دفعاً .. مع أن الإنسان
هو سيد نفسه فى النهاية ويستطيع أن يعيش «حيوات» عديدة وهو يتسلح
بجرباتها لو وعى تجارب الآخرين وتجنب أخطاءهم .

فأنت مثلاً يا سيدتى كم مرة عرفت ولمست تجارب «نصف الزوجة» التى
تنتهى غالباً نفس النهاية ويعود الزوج إلى حياته وأسرته بعد «استراحة» قصيرة ؟
ومع كل ذلك فلقد وقعت فى نفس الخطأ بلا مبرم مقبول ، واتبعته بأكثر من
خطأ فى حق نفسك فحسرت أسرتك وأهلك وهم سندك الحقيقى فى الحياة
وفقدت عمك وهو أيضاً سند وحماية لك ، ورضيت بالسرية فى الزواج ،
والزواج الحقيقى الذى يستحق اسمه إشهار وإعلان لأنه عمل مشروع نشهد
العالمين عليه .. بل ورضيت بالحرمان من الأمومة وهى قرعة عين أبة زوجة فى
الظروف الطبيعية .. ففقدت كل أسلحتك ووقفت فى المعركة وحيدة أمام زوجة
تثقل موازينها على موازينك لأنها الأم وشريكة العمر والروابط العديدة الأسرية
والاجتماعية .. ولقد تصرفت بحكمة غريبة فأنهت المعركة بضرية قاضية لم تعطك
معها أبة فرصة للمقاومة وتخلت عن عملها وطموحها وتحولت إلى زوجة وربة
بيت لتستعيد زوجها .. وهذا أكثر من المطلوب لأن كل زوجة عاملة ليست

مطالبة بأن تتخلى عن عملها وطموحها لكيلا تفقد زوجها .. وإنما فقط بالألا
تسمح لها بافساد حياتها والانشغال عن بيتها وزوجها وابنائها ... لكنها قدمت
المزيد لأنها أرادت أن تحسم الموقف لصالحها .. ولعل في حديثك عن خطواتها
هذه .. من « الغيظ » أكثر مما فيه من الدهشة لأنها استطاعت فعلاً أن تنفذها ..
لكن السعادة يا سيدتي هدف عزيز المنال يستحق أن يضحى الإنسان من أجله
بالكثير .. ولقد تعارضت سعادتك مع سعادتها ، فكسبت هي المعركة برصيداها
لدى زوجها ... وبخطوتها الجريئة هذه فلتناً بما فعلت .. ولتستفيدي أنت من
درس تجربتك فلا تقبلي مرة أخرى أن تكوني نصف زوجة أو زوجة بالتليفون أو
محطة عابرة لأي إنسان ، لأنك تستحقين أن تكوني زوجة كاملة وواحة يستظل
بها إنسان من هجير الحياة إلى آخر العمر .

الشكرارة!

أنا ياسيدى شاب تخرجت فى كلية الهندسة واخترت العمل فى أطراف القاهرة بعيدا عن الضوضاء والزحام ووفقت والحمد لله فى الحصول على شقة يجوار عملى ، وبعد حصولى عليها بدأت أفكر فى الزواج ، وكعادتى فى كل أمورى فلقد انجهدت إلى الله سبحانه وتعالى ، فوجدت فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم خير مرشد لى حين قال « فاظفر بذات الدين تربت يداك » فتحدثت مع صديق لى يلازمى فى صلاتى ، برغبى فى الزواج فأشار على بالتقدم لخطبة فتاة لاحظت فيها الخلق والدين ، وبالفعل زرت أسرتها وفتحتم برغبى فى خطبة ابنتهم فكان أول سؤال وجهوه إلى هو : كم معك من المهر وما هى قيمة الشبكة التى ستشترىها .. فقلت لهم إننى لأملك إلا مرتبى وإنى من أسرة فقيرة ، ولا أريد سوى أن أكون من أبنائكم ، وأننى أحلم بأن أبنى مع ابنتكم عشنا قطعة قطعة كما بنيت أنا نفسى فكنت اعمل أثناء الدراسة ولم أكلف أبى إلا أقل القليل ومع ذلك فلقد حصلت على بكالوريوس الهندسة وحصلت على العمل بتوفيق من الله ، وسأحافظ على ابنتكم كقطعة من نفسى وسأرعى الله فيها وأؤدى إليها حقوقها فلم يجد كلامى أى صدق لديهم سوى الاستهزاء والاستهتار بى بطريقة بشعة ، فقلت لهم إن عدم توافر قيمة المهر والشبكة معى ليس عيبا ، فالرسول عليه الصلاة والسلام قد زوج إحدى بنات الصحابة

لرجل - لم يكن معه ما يمهرها به - يبضع آيات من القرآن الكريم كانت هي مهرها ، فإذا بشقيق الفتاة الأكبر يقول لى : يا ابني الكلام ده تقوله على المنبر ا وإذا بالجميع ينفجرون فى نوبة ضحك هستيرى صاحب ، استمر لعدة ثوانى خلتها دهرًا والجميع يضحكون كأنهم سمعوا نكتة رائعة وأنا أتصيب عرقًا ولم يتوقفوا عن الضحك إلا حين انسحبت بهدوء وصدى ضحكاتهم يطاردنى ونظراتهم العابثة تكوينى ، وعشت أيامًا طويلة وصدى ضحكاتهم يطاردنى وأتذكرها من حين إلى آخر .. فأحس بأطرافي تتلجج .. وأحاول أن أشغل نفسى بأى شىء آخر ..

ومن بعدها صدمت فى هذا المجتمع المادى وانطويت على نفسى فى شقتى ولم أعد أختلط بأحد من الناس إلا فى حدود العمل ، لأن الناس هذه الأيام لا يشغلهم سوى المادة ولا يحترمون إلا من معه مال .
وإنى أدعوك للكتابة لأمثال هؤلاء ولمن يستهزئون بالناس لعوزهم وفقيرهم ، أنهم قد اشتروا الضلالة بالهدى وأن الله سوف يستهزئ بهم كما استهزأوا بغيرهم ، كما سألك أن تقترح على ما يخلصنى مما أعانى منه من انطواء وبعد عن الناس أبعد عنى معظم أصدقائى حتى بدأت أضيق بالوحدة وظلم الناس ونظرتهم لى .
ولكاتب هذه الرسالة أقول : إن رسالتك هذه تنكأ جراحًا قديمة وتضع الأصبغ على أحد أسباب مشكلة خطيرة يواجهها مجتمعنا الآن ، وهى مشكلة اغتراب بعض الشباب المتدين فى مجتمعهم بسبب التناقض بين أفكارهم المثالية .. وبين القيم المادية التى تحكم تصرفات البعض .. فن هذا التناقض يبدأ الاغتراب .. الذى قد يتزايد فيؤدى بهم إلى الانسحاب من المجتمع .. وقد يتفاقم لدى البعض فيؤدى بهم إلى رفضه ومعاداته وأحيانًا إلى الرغبة فى الانتقام منه .

ومعظم النار من مستصغر الشرر كما يقولون .

وفي حالتك هذه فإن مستصغر الشرر قد يتمثل في هذه الفظاظة التي عاملتك بها أسرة الفتاة التي تقدمت إليها ، وهي طريقة فظة بالفعل لرفض أى خطيب ، فلقد كانت هذه الأسرة تستطيع أن تعتذر لك عن عدم قبولك بغير أن تبحر مشاعرك وبغير أن تستهزئ بأفكارك وتصوراتك المثالية عن الزواج ، وبغير أن تسمعك بهذه الضحكات المستيرية الكريهة ومصيبة البعض أنهم لا يعرفون كيف يختلفون مع آراء الآخرين بغير أن يجرحوا أصحابها .. أو كيف يرفضون قبول شيء بأدب يحفظ للإنسان كرامته ولا يمس معتقداته ومشاعره . لكن أسرة فتاتك هذه ليست كل الناس يا صديقي وتجربتك المريرة معها ليست دليلا على أن الجميع على شاكلتها ، فما أكثر الأسر الكريمة التي تطلب لفتياتها الخلق والدين قبل المهر والشبكة .. وما أكثر من يجدون في شاب عصامي مكافح مثلك خير شريك لبناتهم .. وخير من يثقون في استقامته وحسن رعايته لابنتهم .

والحياة حافلة بقصص الفتيات والشبان الذين يتعاونون معا لبناء عش الأحمال بغير معاونة من الأهل ولا مساندة من أحد سوى من سواعدهم وطموحهم ورغبتهم العادلة في السعادة فلا تقع في خطأ التعميم ، وإصدار الأحكام العامة على الجميع من واقع تجربة شخصية مريرة . ولا تبخس نفسك حقها .. ولا تنطو على نفسك وتعزل الأصدقاء مجرد أن بعض السفهاء قد أذوا مشاعرك .

فليس معنى أن البعض لم يعرفوا لنا قدرنا أن الجميع سوف يتعاملون معنا بنفس الطريقة .. وإنما معناه فقط أننا لم نلتق بعد بمن نستحق تقديرهم ويستحقون تقديرنا .

وثق أن هناك أسرا عديدة سوف ترحب بك وتجد فيك من تعتر به وتفخر بانضمامك إليها . لكنك لم تعرف الطريق إليهم .. ولم يعرفوا الطريق إليك لانزالك وضيق دائرة علاقتك الاجتماعية ولولا أني أكتب هذه الكلمات مقدما قبل سفري إلى الخارج لرجوتك أن تزورني لأتسرف بالتعرف عليك وأسعد بلقائك وأبجث معك الأمر لكني آمل أن أجد هذه الفرصة بعد عودتي إن شاء الله فإلى لقاء قريب في مساء أى يوم من أيام الإثنين إن شاء الله .

شئ من القوة!

أنا امرأة في الثلاثين من عمري تزوجت منذ خمس سنوات ورزقت بطفلة هي أحلى ما في حياتي ومشكلتي يا سيدي تتفاقم وتزداد يوما بعد يوم لدرجة أنني ضقت بجيأتي فلقد اكتشفت أن زوجي ضعيف الشخصية ويفتقد الثقة في نفسه وكثيرا ما يتأثر بآراء الآخرين وبكلامهم وهذه الحقيقة تكدرني تماما ففى كل موقف وكل يوم تتأكد هذه الحقيقة وبشكل واضح وكثيرا ما كنت أؤاخذه وأنتقده لماذا لم تفعل كذا ولماذا لم تتصرف هكذا والمفروض أن تعمل كذا وكذا إلى أن أصبحت حياتنا سلسلة من الشجار والمعاتبة والملاحظات وهو لا يطبق كلامي ونقدى وأنا لا أطبق تصرفاته وأساليبه لدرجة أنني فكرت فى ألا أظهر معه فى أى مجتمع ولكن الأمر لا يخلو من ذلك طبعاً لأنه ليس من المعقول أن نحتجب عن العالم والناس والعجيب أن هذه الصفات لم تظهر بتاتا أثناء الخطوبة لمدة عامين فكرت ماذا أفعل وهذا شئ فى طبعه ولن يتغير ومن شدة حزنى أصبحت لا أنتقده ولا أعاتبه على شئ وأكتم فى نفسى لأنه لا فائدة سوى الشجار والمناقشة التى لا تجدى على حساب أعصابى وهو يظن أنه لا يوجد ما يكدرنى أو يضايقنى وأن الحياة تمضى بنا فى هدوء فتحولت إلى آلة أسمعها فقط حين يتكلم وفقدت حماسى لكل شئ وسلمت أمرى لله . أسمعها حين يتحدث ولا أريده أن يتحدث ولا أريد أن أنظر إلى وجهه لأننى عندما أنظر إليه أتذكر

كل مواقفه وتصرفاته . وأصبحت أندب حظى على أننى لم أتزوج الرجل الذى أتمناه وتتمناه أى امرأة . فالمرأة تحلم بالرجل القوى الذى يشعرها بقوته وصلابة رأيه وتشعر أمامه بضعفها ولكنى ياسيدى لا أشعر بذلك أبدا حتى أننى فكرت فى الانفصال عنه ولا أخفى عليك أيضا أننى أصبحت أستهتر به ولا أعمل لرأيه حسابا وبالرغم من أنه يعاملنى معاملة طيبة إلا أننى قد تكون عندى إحساس لا إرادى بأن الضعيف لا يستحق أى شىء ولكنى أعود وأشفق عليه فى كثير من تصرفاتى والنهية أشعر بأننى أشفق عليه ولكن لا أحبه إذ ماذا يكون شعورك ياسيدى وأنت تقدم على شىء وتفترق حاسك له . إن هذه هى الحال بالنسبة لى الآن والعمر يمر ولا يوجد أى حماس فى حياتى معه فأؤدى واجباتى كلها تجاهه لأخلص ضميرى أمام الله ولكن أى انسان يتحمل هذا ؟ لقد أصبحت غير مقبلة عليه وفقدت ابتسامتى التى كانت لا تفارقنى وفقدت العلاقة بيننا حماسها وجهاها وأتظاهر بأننى أجاريه واسمعه لكنى فى الحقيقة شمت هذا الوضع الممل وأشعر أننى أحتقن يوما بعد الآخر .

وأخيرا قررت أن أرسل إليك لكى تسمعنى وتريحنى أو تجد حلا لمشكلتى لأننى وصلت لدرجة من اليأس والسأم من كل شىء لا تستطيع أن تتصورها . □ □ ولكاتبه هذه الرسالة أقول : لا أعرف لماذا ذكرتنى رسالتك هذه بعبارة قديمة قرأتها منذ زمن طويل تقول : لن يسترخ الإنسان إلا فى قبره ! ويبدو أن هذا صحيح فأنت تشكين من أن زوجك ضعيف ويفترق الثقة فى نفسه ويتأثر بآراء الآخرين وغيرك تشكو من أن زوجها قوى ومتسلط ولا يسمع لها ولا لغيرها وآخر يشكو من أن زوجته ضعيفة وسلبية ولا تشاركه بالرأى فى أمور حياته . ورابع يشكو من أن زوجته قوية أكثر مما ينبغى وتتدخل فى كل أموره وتفرض عليه ما لا يرضاه .

وهكذا إلى ما لا نهاية .

ورغم ذلك فإن شكوى الزوجات من الزوج القوى المتسلط الذى لا يشعر
زوجته بشخصيتها إلى جواره أكبر بكثير من شكوى الزوجة من الزوج الضعيف
وفى واقع الأمر فليس هناك إنسان قوى فى كل أحواله وإنسان ضعيف فى كل
الحالات .. لأن الإنسان أصلاً مزيج من الضعف والقوة والخوف والشجاعة
والكرم والبخل كل الأضداد التى تتصورينها . ولأنه ليس هناك إنسان مهما
بلغت قوته يخلو من ضعف بشرى من أى نوع ..

ولكنك ترين أن زوجك ضعيف كل الوقت وفاقد الثقة بنفسه ويتأثر بآراء
الآخرين إلى النهاية .. وأنت على رأس هؤلاء الآخرين بالطبع فلماذا إذن
لا يتقبل انتقاداتك ولا يعمل بتوجيهاتك ! أنه كما فهمت من رسالتك يسمع
لك أحيانا ولا يسمع لك فى أحيان أخرى وهذا وحده دليل على أنه ليس
شخصية انقيادية كما تتصورين .

والمشكلة فى تصورى ليست فى ذلك ، بقدر ما هى فى اتخاذك منه موقف
المعلم الذى ينتقد كل تصرفاته ولا يبدي رضاه عن أى تصرف له باستمرار
وكثرة الانتقاد تفقد الإنسان القدرة على التصرف السليم .. وتفقدته أيضا الثقة فى
نفسه . وإذا صدق حديثي فأنت مدرسة قوية الشخصية على تلاميذك لكنك
تسعين نفسك فى تعاملك مع زوجك فتصورينه تلميذاً ينبغي أن يجلس
أمامك صاغرا يسمع توجيهاتك ويعمل بها وإلا فهو لا يحسن التصرف كما
تقولين .. وهذه هى المشكلة ! .

أما حكاية أن المرأة تحلم بالرجل القوى الذى يشعرها بصلاية رأيه وضعفها
أمامه فهى صحيحة فى بعض الوجوه لكنها ليست صحيحة على إطلاقها ، لأن
العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة إذعان ولا ينبغي أن تكون كذلك .

فهى علاقة تفاعل وحوار وتبادل للضعف والقوة بين الطرفين وهناك أحوال تحتاج فيها المرأة إلى قوة الرجل وهناك أحوال أخرى لا تحتاج فيها إلى هذه القوة ولا تقبلها ونفس الشيء بالنسبة لعلاقة الرجل بالمرأة لكنك فيما يبدو من اتباع مذهب القوة عند الفيلسوف الألماني نيتشه الذى كان يرى أن الأقوياء وحدهم هم الجديرون بالاعتبار ، فجرت فلسفته فى القوة وعبادة البطل الخراب على العالم حين مهدت لظهور هتلر والنازية .

فهل أنت نيتشوية إلى هذا الحد ؟.

أنك تتفقين مع نيتشه فى إحدى مقولاته الخطيرة وهى أن الضعيف لا يستحق شيئا ، وهو منطوق لا إنسانى ولا يجوز فى التعامل مع الغرباء فكيف يجوز فى التعامل بينك وبين شريك حياتك ؟.

إن المشكلة ليست فى القوة والضعف .. لكنها فى الحب ودفء المشاعر يا سيدتى وفى أوبرا عايدة تقول الأميرة الفرعونية أمنريس لغريميتها عايدة « أن الزمن كفيل بمداواة الجروح لكن الحب أكثر قدرة من الزمن على ذلك » .
فأين مكان الحب من القصة كلها !.

ياسيدتى إن عين المحب عن كل عيب كليلة .. فانظرى لزوجك بعين الحب لا بعين المدرسة لتلميذها ، وسوف تكتشفين أن عيوبه أقل شأنًا من غيره وأكثر احتمالًا من عيوب الآخرين وساعديه على استعادة ثقته بنفسه التى فقدها فيما أظن بسبب موقف الاشمئاط الدائم الذى تتخذينه من كل تصرفاته وعندها سوف تتغير أشياء عديدة .. وسوف تستعيد علاقتكما حاسها وجالها بإذن الله .

القناع

أنا فتاة في الثامنة عشرة من عمري ... منذ سنوات قليلة كنت أعيش في رعاية أبوي مع شقيق وشقيقة يصغرانني ، وكانت أُمي مثلاً للحنان والأمومة .. لا تهدأ طوال النهار في خدمة أطفالها وزوجها فهي من هذا النوع من النساء اللاتي تشعر بطيبتهن منذ أول لحظة تراهن فيها وهي لا تعرف الغضب ولا الشجار وإذا ضايقها أُنِي في شيء لمعت الدموع في عينيها لكنها لا تنبس بكلمة واحدة ، فيسارع باسترضائها وترضى سريعاً وفي الليالي الجميلة كانت تجلس أمام التليفزيون ويدهاها دائماً مشغولتان بشيء تصنعه لنا : بلوفرات للشتاء ملابس تكويها لنا أو حلوى منزلية رخيصة تتفنن في صنعها وبعد أن انتهى من عمل الواجب المدرسي انضم إليها فنمضى مع أخوتي ساعة جميلة من السمر اللذيذ والضحك ثم نهض لننام .. فلا تركنا إلا وقد أغمض النوم عيوننا واستسلمنا لأحلام الطفولة البريئة ثم أشعر بها أكثر من مرة في الليل نحكم الغطاء حولنا وفي الصباح الباكر تدخل علينا لتوقظني بكوب شراب أشربه وأنا في السرير فإذا كان الوقت صيفاً فالشراب بارد ، وإذا كان الوقت شتاء فالشراب دافئاً وهكذا .. ثم تدعوني للنهوض للذهاب إلى المدرسة فأجد الإفطار جاهزاً وكل شيء بالابتسامة .. وبالكلمة الحلوة ويا حبيبتي ويا نور عيني إلى أن أخرج من باب الشقة وأنا أحب كل شيء في الحياة . وفي الظهر تستقبلني عند عودتي

من المدرسة بالقبلات والأحضان وكأني عائدة من السفر وتسألني عما جرى في المدرسة .

أما أبي فهو موظف متوسط العمر هادئ الطبع .. نراه على مائدة الغداء فيداعبنا .. ويدخل غرفته ليستريح قليلاً بعد الغداء ثم يخرج أول المساء فلا يعود إلا قرب منتصف الليل أما يوم الاجازة الأسبوعية فلقد كان يعطينا كل وقته فلا يفارقنا طوال النهار وكنا نحن ننتظر هذا اليوم كأننا ننتظر عيداً .. ونهض يومها سعداء مستبشرين ونجتمع على مائدة إفطار الجمعة .. وهو افطار مخصوص تستعد له أمي كل أسبوع ، ثم نجلس جميعاً في غرفة المعيشة نحتسى الشاي .. وتسامر ونضحك ونشارك في بعض ألعاب التسلية .

وهكذا مضت حياتنا سعيدة خالية من المشاكل إلى أن بدأت ألاحظ أن أبي وأمى يخرجان كثيراً بعد الظهر معاً ويتركاننا في رعاية بعض الجيران أو وحدنا بحجة الذهاب إلى الطبيب وبدأنا نلاحظ أن أبي قد ازداد رقة في معاملته لأمي وبدأنا بعقولنا الصغيرة نعرف أن أمي مريضة .. وندعوها بالشفاء في صلاتنا أما هي فلم يتغير فيها شيء .. فهي تتحامل على نفسها لتعد لنا الطعام .. وتتحامل على نفسها لترتيب البيت .. ثم تضعف فتدعوني لمساعدتها .. وعدا هذه الحالات لم نرها إلا باسمة ولم نسمع منها سوى نفس العبارات ، وبعد عام على هذا التغيير رحلت أمى عنا فجأة وخلا بيتنا السعيد منها .. واحتضنتنا جارة طيبة كانت صديقة لأمى طوال الأيام الحزينة الأولى .. ثم انتهت هذه الأيام ورحل المعزون والأقارب وعدنا إلى بيتنا طفلة في الثانية عشرة وطفل في السابعة وطفلة في الخامسة وبتلقائية شديدة وجدت نفسى أقوم بدور الأم لأخوتي ويدون أن يدعوني لذلك أحد فهضت مبكرة في اليوم التالى ثم ربت البيت ثم نزلت لأشترى الفول والخبز وعدت وأعددت الافطار ودخلت غرفة نومنا لأوقف

شقيقى وشقيقى .. فوجدت نفسى بدون أن أشعر أردد لها نفس الكلمات التى كانت أمى الغالية ترددها كل صباح لنا لكى نصحو : اصح يا حبيبى اصحى يا نور عينى .. اصح يا قلبى وعينى ولم أشعر إلا ودموعى تسح من عينى .. وإلا أبى واقف أمام باب الغرفة يسمعى وينظر إلى حزينًا ثم يستدير ذاهبًا إلى الحمام ، ومر اليوم الأول فى سلام . وتفرغت طواله لرعاية اخوى وتلبية طلباتها وادخالها الحمام وتغيير ملابسها وشيئًا فشيئًا وجدت نفسى أؤدى كل أعمال البيت .. فأنظف الشقة وأغسل الملابس فى الغسالة وأنشرها وأجمعها وأطهو طعام الغداء بمساعدة جارنى فى أول الأمر ثم وحدى بعد ذلك .. ووجدت نفسى وأنا فى سن الثانية عشرة أمًا لطفلين أحبهما وأدللها .. وأقدم لها الطعام فى مواعيده .. وأدخلها الحمام وأنظفها بالليفة والصابون كما كانت أمى رحمها الله تفعل معنا وأسرح شعر أختى كل يوم ، وشعر أخى أيضًا وأصبحت لا أخرج من البيت بعد عودتى من المدرسة حتى صباح اليوم التالى وجيرانى يطرقون بائى ليسألونى إذا كنت أريد شيئًا فأشكرهم فيقولون ربنا يكملك بعقلك وكالك . وبلغت أختى الصغيرة سن الدراسة فأدخلها أبى نفس المدرسة التى أتعلم فيها مع شقيقى ، وأصبحنا نخرج كل يوم إلى المدرسة معًا ونعود معًا وعودت أختى أن ينزل لشراء الأشياء من البقال الذى يقع فى نفس العارة التى نساكن بها .. وشدت عليه ألا يعبر الشارع ومع ذلك كان قلبى يرتجف كلما نزل لشراء شىء ولا أطمئن إلا بعد عودته .. ومضت بنا الدنيا وتقدمنا فى المدارس سنة وراء سنة حتى وصلت أنا إلى الثانوية العامة هذا العام وكنا قد اعتدنا حياتنا لكنى بدأت أحس بالقلق تجاه أبى فعدا مسحة الأسى التى استقرت فى وجهه بعد غياب أمى ، فلقد ظل لعدة أعوام هادئًا عطوفًا علينا وعلى أنا بالذات وهو يرانى أعمل ليل نهار فى البيت وأذاكر لأخوى .. وأتابع امتحانها لكنه منذ عام بدأ يتوتر ثم يثور لأبى

تقصير صغير في شئونه .. رغم أنى لا أقصر فى أى شىء خاص به وأكوى كل قصانه ومناذيله .. وارتب غرفته وأكوى ملابس أخوى وأدير البيت فى حدود المصروف الذى يعطيه لى .. وحين نار على لأول مرة بكيت .. وشكوت لجارقى الطيبة من تغير طباع أبى .. فنظرت إلى طويلاً ثم قالت : هو معذور .. وأنت معذورة يابنتى فاصبرى ، لكن الثورات تكررت بلا رحمة .. وتحولت معاملته لى إلى معاملة خشنة عنيفة .. وبدأ يتتقد عملى فى البيت .. ويشكو من نقص الرعاية وأشياء كثيرة ويصبح هذه حياة لا تطاق . فأرتعد خوفاً وأبكى وأحاول مضاعفة جهدى فى العمل وفى كل شىء لإرضائه فيهدأ قليلاً ثم يثور مرة أخرى وعدت أشكو لجارقى الطيبة وأبكى على صدرها وتهون على الأمر ، وظل هذا الأمر يحيرنى خاصة أن كل أقارب أبى وأمى يشيدون بى أمامه ويقولون إبنى حملت مسئولية البيت على كتنى وكلهم يحبونى ويحترمونى ويتعاطفون معى . وبعد ذلك فوجئت بأبى يعرض على خطيباً وأنا لم أبلغ التاسعة عشرة من عمرى ويزكبه لى بشدة .. وجاء الخطيب وجلست إليه فى الصالون فلم أرتج إليه ولم أحس بأى توافق معه ، وهو أكبر منى بـ ١٥ عاماً وليس مثقفاً لكنه مستعد مالياً وقلت لأبى رأى بصراحة فثار على ثورة عنيفة واتهمنى بعدم الاحساس بالمسئولية ولا عما نواجهه من مشاكل بعد رحيل الأم فأسرعت أوافق على الخطوبة لكى أرضيه ولكى أثبت له إحساسى بالمسئولية العائلية .. أنا من تحملت مسئولية الأسرة منذ سن الثانية عشرة وأعلنا الخطوبة وبدأ خطيبى يتردد علينا ووضعت كل أملى فى أن تقرب بيننا فترة الخطوبة ، لكنى ازدددت نفوراً منه ، وأصبحت زياراته لى عذاباً أتحملة صابرة لكيلا أعرض نفسى لغضب أبى ، لكن الأيام مرت ومشاعرى تجاهه لم تتغير بل تزداد نفوراً وهو الآن يطلب عقد القران عقب انتهائى من امتحان الثانوية العامة بعد أسابيع .. لكى يتم

الزواج بعد قليل وفي الشقة الجاهزة التي كان قد أعدها من قبل لزواج سابق لم يتم وكلما اقترب الموعد ازدادت خوفاً وضيقاً واكتئاباً وقد صرحت لأبي مرة أخرى بمشاعري فثار على من جديد .. وتركتني وأنا أحس أنه يريد أن يعجل بزواجي على غير إرادتي لكي يتزوج .. ويظهر أنه يريد أن يتزوج لكنه يريد أن يبدو زواجه أمام الأهل والأقارب وكأنه ليس لنفسه ولكن لرعاية الأبناء والبيت فإذا أفعل ياسيدي هل أستمّر في الخطبة وأنا لا أحس بأى أمل في تغيير مشاعري تجاه خطيبي .. وماذا أفعل لكي أتجنب ثورة أبي وأظل أرحم أخوي اللذين أحبهما وأحس بأموئتي لها .

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : لقد أنضجتك الحياة مبكراً يا صديقتي .. ولا عجب في ذلك لأن المسئوليات والتجارب تثري خبرة الإنسان وتزيد قدرته على فهم الأسرار لذلك فهمت سر ثورات أبيك المتكررة عليك .. وأدركت بجملة الأم التي ترعى طفلين وتحمل مسؤولية بيت بأكمله منذ ٧ سنوات أنها تنفيس عن صراع مكتوم يدور داخل أريك بين حاجته كرجل إلى أن يتزوج وبين حرصه كأب على أن يبقى مضحياً بسعادته الخاصة من أجل أبنائه ووفياً لذكرى زوجته الملائكية الراحلة .

ولأن الصراع عنيف فلقد ارتدت الرغبة في الزواج عنده قناع الرغبة في توفير الرعاية للبيت والأبناء .. ولما كنت أنت تقومين بهذه المهمة فإنك تسقطين المبرر لتحقيق رغبة الزواج بالقناع الذي اختاره لها لهذا تنفجر فيك ثوراته اللاإرادية مترجمة هذه المشاعر المتناقضة داخله .

لكنه يسرف على نفسه وعليك كثيراً في ذلك فالأمر لا يحتاج إلى كل هذا العناء لإخفاء الرغبة في الزواج والتنصل منها والإصرار على أن ترتدى ثوب «تضحية» جديدة من أجل الأبناء ، فالزواج في مثل ظروفه رغبة مشروعة لها ما

يبررها بغض النظر عن قيامك بدور الأم لأخويك وتفانيك في خدمة الأسرة كلها ، لأن هذا الدور قد يغني أخويك عما افتقدها من حنان أمها ، لكنه لا يغني عن دور الزوجة بالنسبة لأبيك الذي يقرب من سن حرجة ويزداد إحساسه بالوحدة وفقدان الرفيق وهي محنة لا يعرف آلامها إلا من يكابدها ، وأنت مها طال بك الزمن .. ومهما كانت مقاصدك نبيلة وشريفة .. فسوف تتزوجين ذات يوم وتتغادينه إلى بيت زوجك .. فلا بأس إذن في أن يلتمس لنفسه الإيناس في صحبة زوجة ملائمة له الآن قبل أن يتقدم به العمر وتضيق أمامه فرص الزواج الملائم لكن اليأس كل اليأس هو أن يرغمك مدفوعاً بهذا الصراع على قبول زواج لا تريدينه لكي يخلو منك البيت ويصبح المبرر لزواجه ملحقاً وعادلاً ومقبولاً .

إن هذا هو الخطأ الفاحش الذي ينبغي ألا يستمر فيه أب حريص على صورته أمام أبنائه لهذه الدرجة مثله . ليس فقط لأنه ليس في حاجة لاختلاق المبرر لشيء مشروع ومقبول وإنما أيضاً لأن ممارسته لأي ضغط معنوي عليك لقبول زواج لا تريدينه يتعارض مع مفهوم القبول والإيجاب الذي لا يصح الزواج إلا به ، فضلاً عن سنك الذي لا يؤهلك للزواج الناجح الآن .. وليس من العدل أن يورطك في مثل هذا الاختيار قبل أن تكتمل شخصيتك ونظرتك للحياة .

فليتزوج إذن الآن أو غداً وفي وجودك أو بعد زواجك لكن بشرط ألا يرغمك على زواج لا تقبلينه وعشرة لا ترضين بها .

فقولي له كل ذلك وشجعيه على الزواج وباركي رغبتك فيه .. بل وحسنيها له إذا تظاهر باستبشاعها في البداية واستمرى في أداء دورك النبيل مع أخويك إلى أن تتزوجي زواج رغبة واختيار . لا زواج ضرورة لن يرشحك إلا إلى التعاسة

والشقاء ومثلك أحق بالسعادة وبكل شيء طيب في الحياة جزاء وفاقاً لما قدمت
لأخويك الصغيرين .. ولما اثقلت به الدنيا قلبك من أثقال وأحزان في تلك
السن المبكرة من طفولتك .

الخطوة ١

قرأت رسالة « الكلمة المسحورة » التي يحكى فيها أحد قرائك قصة عذابه مع زوجته وكيف تغيرت أحوالها معه بعد صدور قانون الأحوال الشخصية الذي يعطى الشقة للزوجة الحاضنة فصبر عليها حتى تزوج الأبناء وانتهت المسئوليات العائلية ثم قال لها « الكلمة المسحورة » التي أصلحت شأنها وهي أنها لم تعد حاضنة وأنه يستطيع أن يتخلص منها وليس لها عنده سوى نفقة سنة ونفقة المتعة ويستريح فعادت إلى عذوبتها السابقة معه وحفظت له وده كما كانت تفعل قبل صدور هذا القانون ، قرأت هذه الرسالة فخطر لي أن أكتب لقرائك تجربتي مع زوجتي لكي تضيف إلى تجربتهم شيئا جديدا .. فقد عشت مع زوجتي ثلاثين عاما من العذاب والايلام لكنني لم أقدم على الطلاق ، بعد زواج ابنتي وبناتي لأنني خفت على مستقبل بناتي خشية أن يصبح طلاق لأمهن سابقة يستخدمها أزواجهن في الاساءة إليهن أو في التهديد بها فروضت نفسي على الصبر واحتمال الجحيم الذي أعيش فيه معها منذ سنوات طويلة وهي زوجة سليطة اللسان وعصبية ونكدية ولا ترعى الله في معاملتي ومعاشرتي رغم ما أوفره لها من حياة كريمة ورغم تلبية لكل مطالبها ومع أن لي شقة في بلد آخر منذ سنوات طويلة فإني لم أفكر في الانتقال إليها والحياة فيها بعيدا عن زوجتي لأن أعمالي وحياتي مرتبطة بالبلد الذي أعيش فيه

مع زوجتي وبناتي ، لكن للإنسان ياسيدى طاقة للاحتمال لا يستطيع أن يتجاوزها مهما كان عليه من مسؤوليات عائلية أو مادية .. لذلك فقد حزمت أمرى بعد تفكير طويل واستقر رأى بعد زواج بناتى على أن أضحي بأعمالى وأصفيها وأغلق مكتبى وأعتزل مهنتى وأكتفى بما أعطانى الله من مدخرات ثم انتقل إلى البلد الآخر بحجة وجود عمل لى فيه بأجر كبير ثم أعيش هناك وحيدا مغتربا بلا مناكفات ولا نكد ولا مشاجرات يومية على أن أرسل إليها من هناك مصروفها الشهرى بما يتناسب مع الحياة فى الزمن العصيب ، فاستريح وأحافظ على مظهرنا الاجتماعى وكرامتنا أمام أزواج بناتى ، ونفذت بنود هذه الخطة بأحكام بالرغم من صعوبة الأمر على نفسى فى أن أنهى حياتى العملية الناجحة وأحكم على نفسى بالبطالة والفراغ لكنى مضيت فى خطى بإصرار فاشعت أنى وجدت عملا مغريا فى هذا البلد وأنى سأقبله وسط عجب أقاربى من أن أقبل الاغتراب فى مثل هذه السن وبلا ضرورة مادية قوية لأنى مستور والحمد لله .. ثم بدأت فى تصفية أعمالى وأستغرق الأمر عدة شهور ثم أغلقت مكتبى وسرحت العاملين فيه وأعطيتهم مكافأتهم وأبلغت الضرائب بإيقاف نشاطى وأعددت حقائب السفر واستعددت لكى استنشق نسيم الحرية بعد هذه السنوات الطويلة من العذاب ولم تبق على الرحيل سوى أيام فجاءت البنات وأزواجهن لتوديعى وانصرفن إلى بيوتهن ففوجئت بأمر لم يكن فى الحسبان .. ولم تتضمنه الخطة فقد توفيت زوجتى فجأة بلا مرض وبلا مقدمات . سبحانك لك الأمر كله إنك أنت علام الغيوب .

□ □ ولكتاب هذه الرسالة أقول : صدقت ياسيدى . فسبحان من له الأمر كله من يعلم السر وما أخفى . سبحانه أنه علام الغيوب . فلقد خططت ودبرت وأحكمت التخطيط والتدبير ونفذت البنود بكل دقة ووسط دهشة الأهل

والأصحاب ، لكن شيئاً بديهيًا لم تضعه في الحساب قد وقع فجأة فغير الأمر كله وأصبحت الخطة المحكمة بعده لامعنى لما ولامنطق ، وهذه هى عبرة التجربة فى رسالتك أننا مهما خططنا ودبرنا فالأمر كله له وحده فى المبتدأ والمنتهى . ولقد أضافت رسالتك إلى معرفتنا بالحياة الجديد فعلا لكنه الجديد القديم الذى نعرفه جميعا أو ننسأه جميعا أيضا فى صراعنا اليومى مع الحياة ، وهى أن لكل رحلة نهاية محتومة وأن الحياة مهما طالت قصيرة وأنا مهما تصارعنا فلن ينتصر فى النهاية إلا الموت الذى سيفرق بين الجميع فقيم اللجاج إذن ، وفيم المعاناة وإتعاس الآخريين وترى كم تصبح الحياة رحلة عذبة هادئة لو تذكرنا دائما هذا المنتصر الوحيد!؟ .

الرباط المقدس

أنا سيدة في التاسعة والثلاثين من عمري تخرجت من إحدى الكليات العلمية من تسعة عشر عاماً وارتبطت عاطفياً بزميل لي في الكلية ونخرجنا معاً فعمل هو معيداً بالكلية وعملت أنا بأحد المراكز العلمية وبعد عام من التخرج تقدم حبيبي لخطبتي واحتفلنا بعقد القران في حفل عائلي بسيط في النادي الصغير الذي نشترك فيه ، وبعد عام من الخطبة استطعنا أن نؤجر شقة صغيرة جميلة في عمارة مطلة على نفس النادي وتشاركت مع خطبتي في دفع مبلغ الخلو المطلوب وتشاركنا في التأثيث وقدم لي أبي كل ما معه فأثناها بأثاث جميل بسيط أبرز ما فيه غرفة كبيرة للمكتب والمعيشة وتم الزفاف وبدأنا حياتنا الجديدة ، ومرت أيام العسل سريعة ، وعدنا إلى أعمالنا وبدأ زوجي يحضر رسالته للماجستير وكنت قد سجلت رسالتي معه فقررت أن أوجل امتحاني فيها عاماً لكي أساعده في إنهاء رسالته ، واستطعنا فعلاً الانتهاء من تحضيرها خلال وقت قصير وحصل زوجي على الماجستير فتفرغ لي في العام التالي حتى استطعت إنهاء رسالتي وتقدمت بها لنفس الكلية وحصلت أنا أيضاً على الماجستير ، وبدأ زوجي يرأس الجامعات الأجنبية ليحصل على منحة دراسية لدراسة الدكتوراه في إحداهما ، وكلما جاءه رد منها بالاعتذار عاد حزيناً يندب حظه فأخفف عنه وأداعبه بأن الله لا يريد له أن يفارقني بهذه السرعة لأن مرتب المنحة الدراسية لن يسمح له باصطحابي

معه . وهكذا حتى جاءت الموافقة من الكلية العشرين التي راسلها وكانت في أمريكا فطار فرحاً وانشغلنا بترتيب سفره .. وكان في حاجة إلى ثمن تذكرة الطيران لأن المنحة مقصورة فقط على الدراسة ومصروف شهرى صغير جداً ، فبعت إسورتي وقدمت ثمنها له ليشتري تذكرة السفر واتفقنا على أن يسافر ويبدأ دراسته ثم أزوره أنا في إجازتي وسافر حبيبي إلى بلاد الغربية بعد عامين من زواجنا ، وكابدت آلام الفراق التي لم تخفف منها رسائله الطويلة إلى أن نجحت في الحصول على اجازة من عملي وجمعت كل ما معي من نقود واشترت تذكرة الطائرة وطرت إليه وكان منظرنا مثيراً وهو يحملني بين ذراعيه في المطار ويدور حول نفسه عدة مرات حتى أصابه الدوار ومن حولنا يضحكون ويبتسمون وعشت معه أياماً جميلة في غرفة ضيقة بها سرير مفرد وركن للمطبخ وليس بها حمام وانتهت إجازتي سريعاً فعدت وكان باقياً له من مدة الدراسة عامان ونصف فاتفقت معه على أن يأتي في اجازة الصيف التالي ليقتضى معي شهرين وسوف أدبر له ثمن التذكرة خلال العام .. وودعته وعدت لبلدي وقلبي هناك وعشت شهوراً طويلة في حالة تقشف شديد لأدخر معظم مرتبي وأوفر له ثمن التذكرة ، حتى أصبت بالهزال ولم أعد أروح عن نفسي إلا بالذهاب إلى النادي صباح يوم الجمعة وقبل أن يأتي الصيف بأسابيع فوجئت بوالد زوجي يأتي إليّ في الصباح وهو منهار ويقول لي إنه تلقى مكالمة تليفونية من القنصلية المصرية تعني إليه ابنه في حادث تصادم وأن .. ولم أسمع باقي عبارته .. ولم أشعر بالدنيا إلا وأنا في سريري وحول شقيقاتي وأمي ، وحين انتهت لنفسى نهضت صارخة لأذهب إلى المطار وأستقبل زوجي فأعادوني بالقوة إلى سريري وقالوا لي إن كل شيء قد تم .. ثم جاء الطبيب وأعطاني حقنة منومة فغبت مرة أخرى عن الوجود .

ومضت أيام وقرر أبي أن يعيدنى إلى بيته لكي يبعدنى عن شقة الزوجية فاعتذرت له بإصرار فسلم برغبتى وأقامت معى أمى عدة أسابيع حتى ألححت عليها أن تعود لبيتها ، وعدت إلى عملى وحاولت شغل نفسى بإعداد رسالة الدكتوراه فلم أستطع أن أحقق فيها أى تقدم لأنى كنت كلما جلست إلى المكتب غامت عينائى بالدموع وتذكرت حبيبى وهو يجلس إلى نفس المكتب يقرأ حيناً .. ويداعبني حيناً آخر ثم ينادينى بأعلى الصوت إذا غبت عنه كأنه طفل يحنى البقاء وحده ، فبدأت أضيق بالشقة وبدأت أخرج وأذهب إلى النادى فأتجول فيه على قدمى من مكان إلى مكان حتى يهدنى التعب فأجلس لألتقط أنفاسى وأشرب فنجاناً من القهوة ثم أنصرف ، وبدأت أمى تحس بالقلق علىّ .. وبدأت شقيقائى يلححن على بترك الشقة والاقامة مع أبى فرفضت ذلك ولم أرحب بأن تقيم إحدى شقيقائى معى لأنى كما قلت لهن أدمنت الوحدة ولم أعد أحس بالراحة إلا وأنا وحدى فبدأن يتحدثن عن الزواج مرة أخرى فأكدت لهن أبى قد عرف نصيبى من الزواج ولن أستطيع أن أعاشر رجلاً آخر مها حاولت .

ومضى عامان وأنا على هذا الحال ضعف خلالها بصرى من كثرة البكاء ونصحنى الطبيب بارتداء نظارة سوداء لتجنب الشمس ، فأصبحت ارتدى السواد فى كل شىء ، كما أصبحت أيضاً أقضى أوقاتاً طويلة فى النادى وحدى أطوف ملاعبه وأجلس على المقاعد الحجرية لأشاهد تمرين الفرق الرياضية أو مباريات الأطفال وذات يوم كنت أجلس وحدى أتفرج على بعض الأطفال يلعبون الكرة فجاءت طفلة فى الخامسة من عمرها وجلست يجوارى ولم أشعر بوجودها إلا حين التفت إليها بعد فترة فوجدتها تنظر إلىّ بتودد وتبتسم فابتسمت لها فظلت جالسة يجوارى حوالى نصف ساعة وهى مستكينه .. ثم نهضت

وانصرفت وتعجبت من إحساسى بالارتياح لها وتابعتها بنظري حتى غابت بعيداً وبعد يومين ذهبت إلى النادي وإلى نفس الملعب وجلست فإذا بنفس الطفلة تأتى وتجلس إلى جوارى فى هدوء وهى تبتسم فأردت ابتسامتها ثم تمضى حوالى ساعة جالسة صامتة ثم تنهض وفى المرة الثالثة سألتها عن اسمها فعرفت أنه ياسمين ... ووجدت فى حقيقتى باكو من اللبان فأعطيها بعضه وجلسنا صامتتين إلى أن انصرفت .

وفى المرة الرابعة وجدت شعرها منكوشاً فأخرجت مشطى وسرحت شعرها وعقصته لها .. وبعد أسبوع جاءتنى نفس الطفلة فأحسست لأول مرة إني على استعداد لقبول صداقة إنسان جديد وأحببت أن أرى أم هذه الطفلة المؤدبة الهادئة الصامتة دائماً فسألتها عن أمها فقالت لى ببساطة : ماما مسافرة ! فسألتها مسافرة فىن ؟ فقالت : لا أعرف .. مسافرة من زمان !

وأدركت الموقف فانقبض قلبى وسكت وأمضيتنا الجلسة صامتتين حتى انصرفت عنى وشغلتنى أمور الحياة عن بعض همومى فبدأت اعتاد حياتى وبدأت تحضير رسالتى ، وبين حين وآخر تعرض على أمى أو إحدى شقيقاتى عريساً فأرفض وأغضب . لكنى وجدت نفسى مشدودة إلى هذه الطفلة التى أراها فى النادي وأتذكرها كثيراً فى وحدتى .

وذات يوم جاءتنى وأنا جالسة فى مقاعد المتفرجين بملعب الكرة وجلست بجوارى وتحادثنا قليلاً ثم فاجأتنى بسؤال غريب إذ ترددت قليلاً ثم قالت لى بصوت خافت : تتجوزى بابا يا طنط ؟ وتعجبت من هذا السؤال وسألتها من هو بابا يا ياسمين ، فعرفت منها أنه مدرب فريق كرة اليد فى النادي وأنه مدرس بأحد معاهد التربية الرياضية وأنها تعيش معه وحدها فى شقة قريبة أيضاً من النادي ، ثم وهو الأهم أن أباه هو الذى كلفها بأن تسألنى هذا السؤال !

ولم أشأ أن أبحر مشاعرها فقلت لها أنى سأفكر فى الأمر ففرحت جداً وقبلتنى
وجرت سعيدة وغبت عن النادى ثلاثة أسابيع ثم ذهبت إليه فجاءتنى ياسمين
تجبرى ثم لم تمض دقائق حتى جاء شاب وسيم فى الخامسة والثلاثين يقترّب بجد
وأدب ثم حيانى وقدم لى نفسه بأنه والد ياسمين فرددت تحيته بتحفظ وانصرف
هو بعد دقائق ، وتكررت نفس القصة بعد ذلك عدة مرات ، ووجدت نفسى
لأول مرة منذ ٤ سنوات لا أضيق باقتراب رجل منى .. لكنى لم أستطع أن
أحكم على مشاعرى تجاهه .. وبعد تفكير طويل استطعت أن أتوصل إلى حقيقة
مشاعرى وهى أن هناك رابطة سحرية غامضة بينى وبين هذه الطفلة اليتيمة وأن
هذه الرابطة هى المفتاح الوحيد لوجود أية علاقة إنسانية بينى وبين أبيها ..
وصارحته بذلك حين فاتحنى فى أمر الزواج وصارحنى بأنه راقبى طويلاً خلال
العامين الماضيين وسمع قصتى من بعض أعضاء النادى وأحب فى حبي لابنته ثم
أحببى بعد ذلك حباً صادقاً وصارحته بدورى بأننى لا أستطيع أن أدعى أنى
أحبه لكنى لا أعرف ماذا ستحمل لى الأيام بعد ذلك فقبل منى ذلك وطلبتنى
بالموافقة على الزواج وفكرت فى الأمر عدة أسابيع ثم استشرت أسرتى فأيدونى
فتزوجته بعد ٤ سنوات ونصف من رحيل زوجى الأول وأصررت على أن يكون
الزواج فى شقتى وعلى أن تكون العصمة فى يدي ورغم أنى لم أتخلص تماماً من
أحزانى .. فلقد وافقت على أن أرتدى ثوب الزفاف الأبيض استجابة لرجاء
ياسمين التى قالت لى أنها تريد فرحاً تدعو إليه صديقاتها وأقنا فى شفته حفلاً
صغيراً حضره الأهل وصديقات ياسمين وحملت ياسمين شمعة طويلة ومشت
أمامى سعيدة وابتسامتها تملأ وجهها البرىء الجميل وانتقلنا آخر الليل إلى مسكنى
لنبدأ حياتنا الجديدة ومضت حياتنا نحن الثلاثة هادئة مريحة ووجدت فى زوجى
الجديد حيناً شديداً للاستقرار ورغبة فى إسعادى وإسعاد نفسه بعد ما عانينا من

الأم فاسترحت إليه واستجبت لكل محاولاته للتقرب مني وأحسست بعطف خفي عليه فتجاوبت معه في كل ما يطلبه أما علاقتي الحقيقية فقد كانت مع ياسمين فلقد أصبحت هي اهتمامي الأساسي .. طعامها ولبسها ومدرستها وحمامها وصديقاتها وكل شيء يتعلق بها .. وازدادت تعلقى بها حين مضى على زواجى من أبيها عامان فلم أنجب ووجدت في زوجى إنساناً طيباً كريماً حسن المعاشرة فأحببته بصدق في العام الثالث من زواجى منه ، أما هو فقد كان قد بلغ قمة حبه لى حتى أصبح يغار أحياناً من حبي لابنته وشغلتنى ياسمين عن مواصلة تحضير رسالة الدكتوراه فتركته جانباً وأصبحت أقضى معظم ساعات المساء في المذاكرة لها وشرح دروس مدرسة اللغات التى ادخلتها فيها .

والغريب أنى مع حبي لزوجى لم أفقد حبي لزوجى الراحل وإنما استقر فى ركن من قلبي لا يغادره وأفسح إلى جواره مكاناً لحبي الجديد واطمأن قلب زوجى إليّ ، فتفرغ لعمله وترقى إلى أستاذ مساعد وأعطى فريقه فى النادى كل اهتمامه ، وأصبحنا أنا وياسمين نطوف الملاعب وراءه ونشجعه ، ونسعد بانتصاراته ، وتأكدت من أنه لا حياة لى بعيداً عنه أو عن ابنته فعرضت عليه أن أتنازل عن العصمة له فرفض لأن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً وكان زوجى يبدأ يومه فى الصباح الباكر بالذهاب إلى المعهد ثم يعود إلى البيت ليتناول طعامه ويخرج ماشياً إلى النادى فينشغل بتدريب الفريق حتى المساء ثم يعود منهاكاً . فيمضى ساعتين معنا وينام ، ولأنه كان يرهق نفسه فى التدريب فقد كان ينام بعمق ولا يصحو على جرس المنبه واضطر لايقاظه عدة مرات حتى يتنبه . وذات صباح رن جرس المنبه حتى توقف رنينه ولم يصح زوجى فبدأت ايقاظه وناديته بصوت خفيض .. ثم بصوت عال ثم بصوت أعلى ثم هززته بيدي ليتنبه .. مرة ومرات ومرات .. ثم صرخت من أعماقى حتى تجمع الجيران أمام

باب شقنتنا وجاءت ياسمين فزعة فخرجت بها من الغرفة وفتحت باب الشقة فاندفع الجيران إلى الداخل وأنت تعرف الباقي .

فلقد مات زوجي الثاني يا سيدى فى فراشه بلا مرض وبلا شكوى ولا مقدمات بعد أن حرك المشاعر القديمة فى قلبى وأيقظ المارد النائم فيه وأحبهته باخلاص وارتبطت به للأبد .. مات بعد ٥ سنوات من الزواج لم أر منه خلاها شيئاً سيئاً ولم يغضبني مرة ولم تختلف لحظة واحدة .. تماماً كما مات زوجي الأول بعد ثلاثة سنوات ونصف من الزواج السعيد المشتعل بجذوة الحب وترملت مرة أخرى يا سيدى قبل أن أبلغ الأربعين وارتديت ملابس الحداد مرتين كأنه مكتوب علىّ ألا أسعد طويلاً ومشيت نفس المشوار القديم مرة أخرى .. وشريت من نفس الكأس .. وضعف بصرى مرة أخرى وعدت لارتداء النظارة السوداء .. وروضت نفسى على احتمال الأمر الواقع فأفرغت كل حبي وحرمانى وعواطفى المكبوتة فى ياسمين التى أصبحت بتيمة الأبين ولم يعد لها فى الدنيا سوى ورتبت حياتى على أن أعيش لها وأن أرهاها وأشرف على تعليمها إلى أن تكبر وتتخرج وتتزوج على يدى وجاء أعمام زوجى يتحسسون الموقف بعد الوفاة فأعلنتم أنى لن أتنازل عن ياسمين أبداً ولن أتركها وأكدت لهم ياسمين أنها لن تعيش إلا معى فتركوها معى مطمئنين خاصة أنى تنازلت عن كل ميراثى عن زوجى لها وكتبته باسمها .

ووطنت نفسى على أنه لا نصيب لى فى السعادة أكثر مما حصلت عليه وأن علىّ أن أرضى بنصيبى وبالأيام السعيدة التى عشتها وأن أعيش على ذكرياتها إلى نهاية العمر ، وبدأت انشغل برسالتى للدكتوراه التى أهملتها طويلاً .. وأعطيت ياسمين اهتماماً كبيراً وهى فى الشهادة الابتدائية فجاء ترتيبها الأولى على مدرستها وألحقها بمدرسة إعدادية راقية ستبدأ دراستها بها العام القادم لكن هدوء حياتى

تعكر فجأة منذ أيام حين جاءني عم ياسمين الأكبر وفاتحنى بعد تردد في أمر ضم ياسمين إليه ، مبرراً ذلك بأن رغبتى في احتضانها قد تكون متأثرة بظروف المسألة وأنى قد أراجع نفسى في ذلك كما أنى كما قال سوف أتزوج في يوم من الأيام وستجد نفسها غريبة بيننا ، فلم أدعه يكمل حديثه وبكيت طويلاً وأقسمت له أنى لن أتزوج مرة ثالثة بعد أن اكتويت بالنار مرتين وأنى وجدت تعويضى فى ياسمين التى أحببتها وعمرها خمس سنوات حتى أصبحت الآن فى الثانية عشرة وأنى لا أستطيع فراقها .. فسمعنى الرجل بألم ودمعت عيناه وطالبنى بالتفكير وانصرف ، ثم جاء بعد شهر وكرر نفس الحديث وكررت عليه نفس الرد .. وكلما اطمأنتت من هذا الجانب سمعت أنه تحدث مرة أخرى مع أمى فى الأمر فأحس بالقلق والمرض .. حتى قلت ساعات نومي وأصابنى اسهال عصبي لم يفلح الأطباء فى علاجه لأنه راجع لأسباب نفسية . إننى لا أريد منك مشورة هذه المرة لكنى أريد منك أن توجه إلى عم ياسمين كلمة تناشده فيها ألا يجرمنى من الضوء الوحيد فى حياتى المظلمة فهو يقرأ لك وقد حدثنى ضمن ما حدثنى عن رسالة قرأها فى بابك عن معاناة الأطفال مع زوجة الأب وزوج الأم وهو يدل على سلامة رغبته فى ضم ياسمين . فهل تفعل ذلك من أجلى يا سيدى بحق ما عانيته فى حياتى من آلام ؟

□ □ ولكتابة هذه الرسالة أقول : لو صح أن تسمى بضع كلمات أخطها على الورق خدمة تستحق الرجاء فإنى أقدمها لك يا سيدتى بكل ترحيب ليس من أجلك فقط وإنما من أجل ياسمين ومن أجل كل القيم والمعانى الإنسانية النبيلة التى يمثلها موقفك من هذه الطفلة المحرومة ويمثلها أيضاً موقف عمها الفاضل منها . فالحق أنه لا خلاف بينكما فى الدوافع السامية ولا فى الأهداف النبيلة لكل منكما ، فإن كان تمه اختلاف بسيط فهو اختلاف النبلاء أو على الأصح

تنافسهم لتحقيق الغايات الشريفة مما سوف يسر مهمتي إلى حد كبير ، فأنت يا سيدتي ترغبين في الاحتفاظ بياسمين وفي استمرار رعايتك لها حتى تكبر وتتخرج وتتزوج في كفالتك وهو يريد مخلصاً أن يؤدي الأمانة التي ألقيت بها الأقدار الحزينة على عاتقه فيضم ياسمين إلى كفالته أو يطمئن على الأقل إلى أن رغبتك في رعايتها لم تكن مجرد انفعال عاطفي عابر في ظروف المأساة وإلى أنك لم تضيق بهذه المهمة الإنسانية أو ترغبي في التخفف منها .. فأى نبل في الدوافع والغايات أكثر من ذلك ؟ وماذا أستطيع أن أقول لك أو لمثل هذا العم الجاد الفاضل سوى أن رعاية ابنة شقيقه هي من حقه شرعاً وقانوناً ، لكن هناك اعتبارات إنسانية ترقى إلى مرتبة أحكام الشرع والقانون حين لا تتعارض مع أهدافها في تنظيم حياة البشر وإسعادهم لذلك فلا ضرر البتة في استمرار كفالة هذه السيدة لابنة شقيقك وهي من هي فضلاً وخلقاً وعلماً وحباً وعظماً وحناناً وهي أيضاً من تزوجت من أبيها في البداية رغبة في كفالة هذه الطفلة المحرومة قبل أن يجمع الحب بينها ولا وجه للعجب في ذلك يا سيدى والله سبحانه وتعالى يأخذ ويعطى ويمنح ويمنع ويمحرم ويعوض ويجمع بين القلوب بخيوط خفية لا يعرف أحد سرها وقد شاعت إرادته أن يهبى لهذه الطفلة هذه الأم الرؤوم ليعوضها حنان أمها التي حرمت منه ويخفف عنها في مقبل الأيام حرمانها من أبيها ، وليخفف بها هي أيضاً عن هذه السيدة مرارة الكأس التي تجرعتها مرتين ومرارة الوحدة فأى عجب في ذلك والأمور تجري بالمقادير ، والأقدار التي تحرم البعض هي نفسها التي تأسو جراح المعذبين .. ولقد لمست بنفسك مدى ارتباط ابنة شقيقك بالأم الوحيدة التي عرفتها في حياتها حتى الآن وتأكدت بنفسك من صدق نية أرملة شقيقك في رعايتها بلا غرض ورعاية ابنة في حد ذاتها مسئولية تنوء بها الكواهل ويفر منها بعض من يتوجب عليهم أداؤها فهون عليك

ياسيدى فليس هناك ما يمنع أبداً من أداك لواجبك الإنسانى فى رعاىة هده
الطفلة مع استمرار احتضان أرملة شقيقك لها وحتى لو تحققت مخاوفك من أن
تتزوج ذات يوم وهو احتمال بعيد فليس هناك ما يمنع من أن تستردها بعد أن
تكون قد فازت بسنوات أخرى من العطف والحنان والرعاىة وهى الطفلة التى
تحتاج فى سنواتها الحرجة القادمة إلى رعاىة لا تقدر عليها سوى مثل هذه الأم
الفاضلة التى تعتبرها عزاءها وسلواها وهديفة الأقدار لها ، فلا داعى للمخاوف
ولا للقلق فما أسهل التفاهم بين ذوى النوايا الطيبة .. وما أهون التوفيق بين
رغباتهم المبرأة من الهوى والغرض وفى النهاية ياسيدى فليس المشكل فى
النصيحة .. وإنما المشكل فى قبولها .. كما قال صادقاً الإمام الغزالى فهل ينطبق
ذلك على الفضلاء من أمثالكم ؟ لا . إنما يقبل الفضلاء النصيحة المخلصة حتى
لو تعارضت مع هوى نفوسهم ، لهذا فلست أظن أن فضلك وكرمك سوف
يسمحان لك بأن تحرم هذه السيدة المكلومة من القيمة الإنسانية الوحيدة فى
حياتها الآن .. وشكراً لك مقدماً .

الفهرس

٥	الإهداء.....
٧	عيد الميلاد.....
١٧	حفل الزفاف.....
٢٧	التحدى.....
٣٨	صورة تذكارية.....
٤٨	المتفوق !
٥٩	الصوت الحزين !
٦٥	الضوء الأخير.....
٧٢	الخنجر المسموم.....
٧٨	الفراشة !
٨٩	فن الحياة.....
٩٥	الضوء الخافت.....
١٠٤	فوق السطح.....
١١٣	أعاصير الحياة.....
١٢٠	الأظافر الطويلة.....
١٢٩	وليد الصبر.....
١٣٨	العش الخالى.....
١٤٥	الصفحة القديمة.....

١٥٤ طيف من الماضي !
١٦١ الطريق الآخر
١٦٨ الحصاد
١٧٨ القسط الأخير
١٨٧ السهام النارية
١٩٦ زهرة العمر
٢٠٤ السائرون نيماً
٢٠٩ لغز السعادة
٢١٣ النافذة المضيئة
٢١٧ حكاية قديمة
٢٢٣ أيام الطفولة
٢٣٠ المعركة
٢٣٥ الشرارة
٢٣٩ شىء من القوة
٢٤٣ القناع
٢٥٠ الخطة
٢٥٣ الرباط المقدس

رقم الإيداع ٩٣/٧٨٧٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0163 - 6

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩٠ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

نهر الحياة

جلست على حافة نهر الحياة أرقب دوائر الماء
يدور فيها البشر سعداء وتساء .. وأعطيت سمعي
لكل من رمى به التيار إلى مجلسي وأراد أن
يستودع صدرى همومه .. وأجهدت فكري
ومشاعري في مشاركته آلامه وشجونه وحاولت
قلدر جهدى أن أخلص له المشورة وربما كنت
أحوج منه إلى مشورة الآخرين في أمرى ..
وألححت دائما على كل المهمومين بأنه لا بد لكل
ليل منها طال من صباح تشرق فيه شمس
السعادة على المحرومين .. وقلت مع فيكتور هوجو
« ما الحزن إلا مقدمة للسور » ولا بد لسيمفونية
الحياة أن تنتهى يوما بنغم جميل .. وقلت
للمظلومين لا تنتقموا من خصومكم بل اجلسوا
معي على حافة النهر ولن يطول الزمان قبل أن
تروا جنث ظالمكم طافية فوق الماء بغير أن تلوثوا
أيديكم بدمائهم ... فحكمة السماء سوف
تقتصص لكم منهم وسوف يتحقق العدل الإلهي
في مواعده وحين يشاء أعدل العادلين ..
.. وقلت الكثير وسمعت الكثير ورأيت من
موقعي في بريد الجمعة بالأهرام ملاحم فريدة
لعاناة الإنسان وضعفه .. وحرته الأبدية في
البحث عن سعادته ومغالبة أقداره .
فكانت هذه الصفحات القليلة من نهر
الحياة الهادئة أبدا .
وكان هذا الكتاب !

عبد الوهاب مطاوع

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣٢٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣